



كلية الكوت الجامعة
مركز البحوث والدراسات والنشر



القرآن والشاهد منه

أ. د. مهدي صالح سلطان

جامعة الامام جعفر الصادق عليه السلام

م ٢٠٢٤

منشورات

مركز البحوث والدراسات والنشر
كلية الكوت الجامعة



٢٢٠ / ٧

س ٨٦٢ سلطان، مهدي صالح.
القرآن والشاهد منه / مهدي صالح سلطان. - ط.١-
— بغداد: مطبعة الرفاه، ٢٠٢٤م
٣٢٤ ص؛ ٢٤ سم

١. القرآن الكريم - دراسات. أ. العنوان

رقم الإيداع

٢٠٢٤ / ٦٧

المكتبة الوطنية / الفهرسة اثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٦٧ لسنة ٢٠٢٤م

ISBN: 978-9922-685-64-9

ملاحظة

مركز البحوث والدراسات والنشر في كلية الكوت الجامعة
غير مسؤول عن الافكار والرؤى التي يتضمنها الكتاب
والمسؤول عن ذلك الكاتب او الباحث فقط.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ - الحجر ٩﴾

المقدمة

أحمدُ الله على عظيمِ إحسانه ، ووضوحِ برهانه ، والصلاة والسلام على نبيه الأمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وأصحابه المنتجبين ، ومن ثبت على نهجه صادقاً مخلصاً من الأولين والآخرين .

أمّا بعدُ فكننت قد أنجزت كتابي الموسوم : (أهل القرآن وتأسيس النحو) عام ٢٠١٢ ، ومن بعده: (القرآن الكريم: جمعه، وتدوينه، وضبط حروفه) عام ٢٠١٧ ، وكان هذان الكتابان قد فتحا أمامي آفاق التفكير بما يحيط بهذا الجمع والتدوين ، الذي جعلني أتأمل الرّبط بين (القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي) ، وكان هذا هو عنوان كتابي الثالث الذي صدر عام ٢٠٢١ ، ومن بعد ذلك شجعني العلامة السيّد سامي البدري على التوسّع في مثل هذه الدّراسات ، واقترح عليّ البحث استكمال التوثيق للنصّ المبارك من مصادر جمعه وإشاعته ، وحفظ لغته ، بعد أن وضع بين يدي فكرة الربط بين مضمون الآية (١٧) من سورة هود : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ ؛ والآية (١٠) من سورة الاحقاف: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَّا وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ فساغ لي البحث تحت عنوان : (القرآن والشاهد منه) ، وهذا هو عنوان هذا الجهد المتواضع؛ الذي يدور بمدار دلالة ضمير الغائب : (شاهدٌ منه) ، والشاهد من بني إسرائيل (على مثله) ، من الآيتين المباركتين بحسب رأي بعض المفسرين .

فإذا كان النبي الكريم ﷺ على بيّنة من ربه ، وهذه البيّنة مؤيّدّة مما سبقه من كتاب موسى عليه السلام ، فالبيّنة مستمرّة منه لما بعده ، وفي الاستمرار حرص على ثباتها من الماضي إلى الحاضر ومن ثمّ إلى المستقبل، وهو معنى تتسع له لغة القرآن الكريم،

ويليق بهذا الموضوع وأمثاله ، وأنَّ حَمَلَ المعنى على مفهوم الانفتاح والازدياد من تواصل البيّنة واستمرارها ممكن ، بقريئة (منه ، ومن قبله) ، والاستمرار أولى من الضيق وحصر المعنى بالنبي ص نفسه وبزمانه ؛ و(أَنَّ النَّصَّ . أَيَّ نَصَّ . يحمل إمكانيّة الخروج عن الدائرة الضيقة للمدلول والظاهر المحكي ، وذلك خلافاً للكلام المنطوق فإنَّ المعنى والمدلول ينحصر بالظروف المحيطة والحوار)^(١) .

وغايتنا من هذا البحث الاطمئنان إلى ثبات النصّ القرآني الكريم واستمراره ، وتجنّب الخوض في الاتهامات المتبادلة بين الطرفين ، لأنّ القرآن المتداول بين المسلمين هو هو محفوظٌ بقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . الحجر ٩﴾ ، فما جَمَعَهُ اللهُ لا يُخالف ، ولا يُعقل أن يُتجاوزَ ، (وقد أخبره تعالى أنّه يجمعه ويوضحه له)^(٢) ، ومن ثمَّ إلى أمته ، ف (جمع القرآن كتابته كله، مفرّق الآيات والسور ، أو مرتّب الآيات فقط، وكلّ سورة في صحيفة على حدة ، أو مرتّب الآيات والسور في صحائف مجتمعة تضمّ السور جميعاً وقد رتّبت إحداها بعد الأخرى)^(٣) .

(قال ابن عباس: وإنّما ترك ما بين الدفتين، يعني القرآن، والسنة مفسرة له ومبيّنة وموضحة، أي تابعة له، والمقصود الأعظم كتاب الله تعالى)^(٤) .

أمّا الروايات التي تحاول توظيف الجمع ، وتدّعي التفرد بجمع نصّه، وتنفيه عمّا قبلها ، فهي تحيل . من حيث تقصد أو ربما لا تقصد . على أجواء السهو والاحتمال، والاعتماد على تذكّر القراء والكتبة، الذين قد يتوهّمون في لفظ كلمة من كلماته، أو

(١) تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه ١٥٣ .

(٢) البحر المحيط ٨ / ٣٨٣ .

(٣) مباحث في علوم القرآن ٦٥ .

(٤) فضائل القرآن ١٧١ - ١٧٢ .

يستبدلونها بما يُرادفها، أو يُغيرون نطقها، بسبب التداول الشفويّ الذي أنتج مفهوم الأحرف، الذي أظهر اختلاف الصحابة في تلاوته، بل كان الأمر محل خصومات بينهم، تَدخَّل النبيّ في حلِّها في الرفض عند جماعة ، والقبول عند أخرى ، ثمّ ظهر فيما بعد مفهوم القراءات، من اجتهاد القراء في تلاوة النّصّ، وظهور نصوص موازية تختلف اختلافاً طفيفاً مع القرآن المعتمد ، (غير أنّ مفهوم الحرف والقراءة بقي ضبابياً في مصنّفات العلماء يعكس اختلافهم في قبول بعض القراءات، وردّ أخرى... حتى نصل إلى عهد ابن مجاهد الذي أقرّ سبعا ورفض الأخرى؛ وقد انتهى بنا استقراء المصادر الإسلاميّة إلى أنّ القراءات إنّما هي في الحقيقة، نتيجة لاجتهادات بشرية دَعَمَتِ السلطة بعضها دون بعضها الآخر لأغراض التبس فيها السياسي بالدينيّ على نحو كبير)^(٥) . ولا يُعقل أن يسمح النبيّ ص لهذا التعدّد الذي لا موجب له، ولا صلة له باختلاف اللهجات أو صعوبة النّطق، من مثل (استصعاب مفارقة كلّ فريق منهم الطبع والعادة في الكلام إلى غيره، فيخفّف سبحانه وتعالى عنهم، ويُسهّل عليهم، بأن أقرّهم على مألوف طبعهم وعادتهم في كلامهم)^(٦) .

فهل يحقُّ للباحث الربط بين الشاهد مِنْهُ ، والشاهد على مثله ، وجمع القرآن ووضعه بين دفتين ، بعد رحيل النبيّ ص ، والتوصية بضبط حروفه ، والتفكير في وضع قواعد لغته ؟ وهذا هو موضوع كتابنا هذا ... ومن الله التوفيق .

(٥) الكتاب أصلاً من أصول التشريع ٣١١ .

(٦) جامع البيان في القراءات السبع المشهورات ٢٥ .

التمهيد

دواعي البحث وأهميته

قد يعترضُ معترضٌ على مضمونِ هذا البحث ، فيصمهُ بعدم الجدوى ، لاستحالة الإتيان بجديدٍ نافع ، وربما دعا بعض الباحثين إلى إغلاق التفكير في مثله ، كالسيد محمد حسين فضل الله (ت ٢٠١٠م) رحمه الله ، في محاولته الإفادة من هذا الإغلاق ، للانفتاح على الآخر المخالف، فيدعو السيّد إلى الفهم الواعي ، ومحبة الخصوم ، وعدم الخوض في الخلافات التي تسقط الأخوة الإسلامية ، وإلى حوار إسلامي منطلق من التصحيح وإزالة التعقيدات ؛ فيقول السيّد فيما نحن بصدده : (اختلف المفسرون في شخصيّة هذا الذي كان على "بيّنة من ربه" هل هو رسول الله ؟ أو المؤمنون الذين كانوا معه أو جميع المؤمنين ، واختلفوا كذلك في طبيعة هذه البيّنة [بيّنة من ربه] ، هل هي القرآن ؟ أو العقل والوجدان، أو شيء آخر غير ذلك، وكذلك في شخصية الشاهد [شاهد منه] هل هو القرآن وجبرائيل ، أو الإمام علي ، أو غير ذلك من الاحتمالات ؛ لقد تعددت الروايات حول هذه المسألة بالشكل الذي لا يمكن الركون إليها لخلل في سند بعضها، وارتباك في مضمون بعضها الآخر، ولا نجد في هذا المجال أوثق من عدم الخوض في ذلك ؛ لأنّ التفسير لا يختلف كثيرًا في المعنى الأساس الذي تستهدفه الآية ، فقد يكفينا من المعرفة بذلك أن نفهم من الآية المقارنة ، بين من كان يعيش وضوح قضية الإيمان لديه، ما هداه الله إليه بشكل قاطع، فهو لا يحتاج إلى شيء آخر في زيادة المعرفة، ويتبعه شاهد منه يؤكد هذه الحقيقة للآخرين، سواء أكان هذا الشاهد رجلاً يملك المعرفة الكاملة للمسألة أم كتابًا يشهد على صحة هذا الإيمان وصدقه أمام

الآخرين؟ وبين من كان لا يعيش وضوح ذلك، لأنه لا يريد الاهتداء، ولا يخضع له ، وقد نجد في كثير من الاحتمالات المذكورة في هذا المجال ما لا يتناسب مع سياق الآية ، فلنجد ما أجمله الله ، ولنطلب الوضوح في ما أراده لنا من قواعده، ولنرجع علم ما أبهم علينا أمره إليه ... انتهى^(٧).

لكنَّ السيّد سامي البدري كان قد خالف السيّد فضل الله ، في التفكير في ما أبهم علينا أمره ، بأن يُردّ بالرجوع إلى بيان النبي ص ، لقوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ . الْقِيَامَةُ ١٨-١٩﴾ ، وقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . النحل ٤٤﴾ ، وقد عرض السيّد البدري أدلّة معتبرة يخالف السيّد فيها السيّد فضل الله وغيره ، مستندًا إلى المصادر السنيّة والشيعيّة ، وكان قد راجعها ليزيل ما اعترها من خلل وارتباك ، ويعيد استنتاج نصوصها ، ويجتهد اجتهادات مهمة ، منها على سبيل المثال :

١ . إنّ السيّد البدري كان قد أفاد من مثل توجيه الفراء ، لقوله تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَّا مَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ . الْأَحْقَافُ ١٠﴾ ، في قوله : (شهد رجلٌ من اليهود على مثل ما شهد عليه عبد الله بن سلام من التصديق بالنبي ص وأنه موصوف في التوراة ، فأمن ذلك الرجل واستكبرتم)^(٨) . فنصّ الفراء ميّز بين شخصين من اليهود بين رجلٍ لم يُسمِّه ، شهد وآمن ، ومن بعد هذا الرجل شهد عبد الله بن سلام ، وهذا ما رجّحه السيّد البدري .

(٧) تفسير من وحي القرآن تفسير سورة هود آية ١٤ ، ١٧ .

(٨) معاني القرآن للفراء ٥١ / ٣ .

٢. إنَّ السَّيِّدَ البَدْرِيَّ أفاد من مثل ما عرضه ابن جُزَيِّ الكَلْبِيَّ في أنَّ الشَّاهِدَ (رجل من بني إسرائيل كان بمكَّة ... أي يشهد على مثله فيما جاء به من التوحيد والوعد والوعيد والضمير في آمن للشاهد فإن كان عبد الله بن سلام أو الرجل الآخر فإيمانه بين ...) (٩). ومثل هذا : (قال الشعبي : الشاهد رجل من بني إسرائيل غير عبد الله بن سلام كان بمكَّة ، والآية مكِّيَّة ، وقال سعد بن أبي وقاص ومجاهد وفرقة : الآية مكِّيَّة) (١٠). وأفاد السَّيِّدُ أيضًا ممَّا عرضه الشيخ الكوراني عن إسلام مخيريق الذي : (وقفه الله للإسلام فقصد النبي ص عند وصوله إلى قباء وأسلم على يده ، ودعا قومه إلى الإسلام وأن ينصروه في أحد فأبوا ، فذهب إلى أحد بعد أن أوصى للنبي ص بكل أمواله وكانت بساتين كبيرة وقاتل واستشهد في أحد رض) (١١). وبهذا الترجيح يكون مُخِيرِيق هو الشاهد (مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَّنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) . وكان السَّيِّدُ قد لحظ الشبه بين الرسالتين والمماثلة بين محمد ص وموسى ع تاريخياً في خصوصيتين هما الخصوصية الرسالية والخصوصية النَّسَبِيَّة ؛ أما الرسالية فموسى بُعِثَ بالكتاب والشريعة ومعه وزيره هارون ، وقد جعل الله الإمامة في ذريته ، ويقابلها خصوصية محمد الرسالية أنه أنزل عليه الكتاب وجعله صاحب الشريعة وأَيَّدَهُ بوزير من أهل بيته هو أخوه علي بن أبي طالب ، أما الخصوصية النسبية فإنَّ ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، واسم هاشم عمرو العلي أي الفرع الزاكي وقد كان بيت هاشم في بني

(٩) التسهيل لعلوم التنزيل ٣ / ١٣٧٨ .

(١٠) المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ٩٤ .

(١١) السيرة النبوية عند أهل البيت ، علي الكوراني ، ط ٢ ، قم ، ١٤٣٨ ، ٢٠١٧ ، ٢ / ٥٠ .

إسماعيل أرفع بيت في قريش ثم في بني إسماعيل إذ جعل الله تعالى منه محمد ص صاحب الكتاب والشريعة ، وجعل منه علياً أخاه وزير النبي ومنه أهل بيت النبي الذين قرنهم النبي بالقرآن وأولهم علي والبقية من ذريته من فاطمة بنت محمد ص . ويكون معنى المماثلة بين النبي موسى والنبي المبشر به في بني إسماعيل هو أن النبي الإسماعيلي يبعث من أكرم بيت في قريش على الإطلاق وهو بيت عمرو العلي بن عبد مناف بن قصي (لقبه مجّع) ، معه وزير من أهل بيته هو أخوه علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم عمرو العلي بن قصي (لقبه مجّع) كما أن موسى هو ابن عمران (عمرام) أي عمرو العلي بن قهات (بالعبرية معناها مجّع) ، ولموسى من أول تكليفه بالرسالة وزير من أهل بيته هو أخوه هارون بنص القرآن ، وسنتابع في كتابنا هذا ، الشهادة والمشابهة بإذن الله .

الفصل الأول : الشهادة والشهود في القرآن الكريم

تكرّر في النصّ القرآني الكريم لفظ الشهادة وما اشتقّ من جذر (ش هـ د) ، أكثر من خمسين ومئة مرّة ، في سياقات قرآنيّة مختلفة ، ودلالات متنوّعة ، لاختلاف الشهادة ومقام الشهداء ، سنعرض لبعضها في فصلنا هذا استنادًا إلى ما وجّه به اللغويّون والمفسرون ؛ ف (الشين والهاء والذال : أصلٌ يَدُلُّ على حضور وعِلْمٍ وأعلام ، لا يخرج شيءٌ من فروعهِ ... يقال شَهِدَ يشهد شهادةً ، والمشهد محضر النَّاسِ ؛ ومن الباب : الشُّهُود : جمع الشَّاهد ... والشَّهيد : القتل في سبيل الله ، قال قومٌ : سمّي بذلك لأنّ ملائكة الرحمة تشهدهُ ، أي تحضرهُ ، وقال آخرون : سمّي بذلك لسقوطه بالأرض ...) (١٢) ؛ ولدلالة الشهادة ارتباطاً بغيرها ، مثلما سنعرض :

أولاً : الشهادة والحضور

يُقَالُ : شَهِدَ لزيدٍ بكذا شهادةً : أي أدّى ما عنده من الشهادة فهو شاهد (١٣) ، فالشاهد هو الحاضر في مكان ما يشهد به بمعاينته للمشاهد ، ثمّ يبيّنه بالإخبار عنه وإثباته بالقول ، بتحويل المرئي إلى فعل لغويّ له أثر ، ونقل الحقيقة بتدوينها أمام من يحتاج إليها ، (وشَهِدَ الشاهد ... أي بيّن ما يعلمه وأظهره ... وأصل الشهادة: الإخبار بما شاهدته) (١٤).

(١٢) معجم مقاييس اللغة ٣ / ٢٢١ - ٢٢٢ .

(١٣) تاج العروس ٢٥٢/٨ .

(١٤) لسان العرب ٤ / ٢٣٤٨ .

وفي موضوعنا يدور السؤال بمدار (الشاهد منه والشاهد من بني إسرائيل) ، من القرآن أو من جبرائيل أو من محمد ص ، والمفترض أن الشاهد إن كان من النبي ص مثلما نفترض ، أن يكون حاضرًا من أول نزول القرآن إلى آخر آية نزلت منه، فيشهد عليه ومنه ، وأن يكون مؤهلاً ، ومُشارًا إليه بالتوكّل بحمله وأدائه ، وعلى علم كامل بما يشهد به وله ، وهذا هو موضوعنا ، الذي سنتوسّع فيه لاحقًا إن شاء الله .

واللافت أن القرآن الكريم كان قد اعتنى بموضوع الشاهد والشهادة ، حتى أنه أوجب تعدد الشهود وتكرار الشهادات في أمور اجتماعية تنظيمية مهمة ، لتحقيق العدل، وصيانة العائلة ، ولما يمنع من التفكك الاجتماعي ، ويحفظ على سبيل المثال للمرأة سمعتها ومكانتها في مجتمعها ، فأوجب لذلك خمس شهادات ، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ . النور ٩٠٦﴾ .

وهذا ما يُسمّى باللّعن الذي معناه البعد ، واللّعن هو الحلّ الأمثل لمنع تطبيق حدّ القذف على الرجل المتهم زوجته بالرّنا بالشهادة أربع مرّات على صدق ادّعائه ، ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ، وشهادة المرأة أربع شهادات أيضًا في إنكار التهمة ، لدرء العذاب عنها ، ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، اللّعن في خامسة الرجل، والغضب في خامسة المرأة ، واللّعة : لعنة الله له إن كان من الكاذبين ، وغضب الله للمرأة ، المغضبة لزوجها،

ولأهلها ولربها فناسبها ذلك التعبير بالغضب^(١٥)، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَحْلُلْ عَلَيْهِ
غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ . طه ٨١﴾ .

كلُّ ذلك من أجل حماية سمعة المرأة من التسرّع في اتّهامها ، وعقاب من يرميها
بغير بينة شرعيّة أكيدة ، حتى من زوجها ، على الرغم من أنّ الزوج لا يقدم على
رمي زوجته ، التي هي من نفسه في وصف القرآن ، في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ
أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . الروم ٢١﴾ ،
وقوله : ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا . الشورى ١١﴾ .

أمّا الشهادة العامّة كما يقرّر المتخصّصون : فالخبر القاطع المأخوذ من المشاهدة
والحضور، ومن الاطلاع على الشيء عيانًا، وشهدهُ : حضره ، فهو شاهد وهم
شهود ، وأشهد بكذا : أي أحلف وأقرّ، وشاهده : عاينه^(١٦) .

وإنّ مقام الشهادة من أجلّ المقامات وأرفعها ، وأفضل الشهادات بعد شهادة الله
شهادة النبيّ ص في قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ
عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا . النساء ٤١﴾، وهذا المقام يُشير إلى موضوع بحثنا ، شهادة النبيّ
وهو (الشاهد منه) .

والشاهد : الحاضر، وفي الشّرع : القتل في سبيل الله ، لأنّ ملائكة الرّحمة تشهده
وتشهد له ، والشاهد أيضًا : الشاهد والمستشهد^(١٧) ، ويقال : حضره الموت ولا يقال

(١٥) الأمثل ٢٩/١١ .

(١٦) القاموس المحيط للفيروز آبادي ٢٧٩ .

(١٧) ديوان الأدب ١/ ٤٠٣ ، وتاج العروس ٨/ ٢٥٣ .

شهادة الموت ، إذ لا يصح وصف الموت بالعلم ، وقد يُدُلُّ الإحضار على سخط وغضب، قال تعالى : ﴿ تَمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . القصاص ٦١ ﴾ ، أي من الْمُحْضَرِينَ للجزاء والعقاب، وقيل من المحضرين في النار^(١٨) ، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه ، وإنما قدم جميع ما يضره ، فهو ملاقٍ ما وعد من العذاب المهين . والشاهد : واحد الشهود ، وأشهده الله على الشيء فشهد ، واستشهد : من الشهادة ، وشهده نقيض غاب عنه ، وشهد عليه بكذا ، وتشهد في صلاته : نطقها^(١٩) ، واعتناق الإسلام يبدأ بالجهر بالشهادة بتوحيد الله وبنبوة محمد ص ؛ وكذلك تبدأ الصلوات وغيرها بهاتين الشهادتين .

والمشاهدة بالبصر أو البصيرة ، والشهادة مع المشاهدة أولى ، ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ . الحج ٢٨ ﴾ ليحضروا ، ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ . الفرقان ٧٢ ﴾ ، أي لا يحضرونه ، ﴿ وَلِيَشْهَدَ عَدَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . النور ٢ ﴾ ، أي ليحضر ، ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ . النمل ٤٩ ﴾ ، نفي المشاهدة ، أي ما حضرنا هلاك أهله ولا علم عندنا بما حلَّ بهم وب (٢٠) .

وأما المشاهدة الدالة على حضور ونظر مباشر فيما ورد في القرآن الكريم ففي مثل : النظر إلى هلال شهر رمضان : قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ

(١٨) مجمع البيان ٣٣٧/٧ .

(١٩) ديوان الأدب ٢/ ٢٢٩ ، ٢٩٢ ، ٤٣٠ ، ٤٤٣ .

(٢٠) الميزان ٣٠٠/١٥ .

فَلْيَصُمْهُ . البقرة ١٨٥ ﴿ ١ ﴾ ، هي شهادة عيان : من شهد ميلاد هلال رمضان رؤيا العين ، وجب عليه الصوم ، فمن شهد وقت هذا الشهر ولا عذر له فعليه الصوم ، ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ : الفاء في جواب الشرط ، واللام لام لأمر ، فالصوم بعد ثبوت الشهر وحضوره حقيقة برؤية الهلال ، أو تقديراً فيما إذا لم يمكن ذلك ، و(شَهْدًا أَي حضر في الشهر ولم يكن مسافراً ، وهو المناسب لقوله بعده، فمن حضر في الشهر فليصمه كله ، ويُفهم أنّ من حضر بعضه يصوم أيّام حضوره) (٢١).

وقد تكون الشهادة الحصول على المنافع ، في مثل موسم الحج : ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ . الحج ٢٧ . ٢٨ ﴾ ، منافع دنيوية أو أخروية ، فالحضور والمشاهدة الدنيوية : هي (التي تتقدم بها حياة الإنسان الاجتماعية ويصفو بها العيش وترفع بها الحوائج المتنوعة وتكمل بها النواقص المختلفة من أنواع التجارة والسياسة والولاية والتدبير وأقسام الرسوم والآداب والسنن والعادات ... إلخ) (٢٢).

أما الممنوع فشهادة الزور ، وحضور مجالس اللغو ، وضرورة النفور منها ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . الفرقان ٧٢ ﴾ ، كالكذب وتداول الباطل والمحرم ، والانحراف والعياذ بالله ، أو تحسين السيئ ، ووصفه بغير صفته ، ووضعه في غير موضعه ، فهذا هو الحضور المحذور ، وكذلك حضور اللغو: الذي لا خير فيه ، أمّا الذين لا يحضرون مجالس الزور والباطل والفحش والشرك بالله ، فهم لا يقولون زوراً فيما يشهدون ، ولا يدخلون في أحاديث

(٢١) التحرير والتنوير ١٧١/٢ .

(٢٢) الميزان ٣٠٠ / ١٤ .

يتناولها الآخرون من التي تُعدُّ من الكفر واللغو السيِّئ، (وأصل الزُّور: تمويه الباطل بما يوهم أنه حقّ ، واللغو : المعاصي كلها ...) (٢٣).

لكن الشاهد قد يكون صادقًا وناقلاً لحقيقة ، وربما يتصرّف في الشهادة ، فلا يكون قائلًا بحق ، ولا يكون مُخبرًا بما رأى ، وما يشهد به لا يطابق الواقعة المشاهدة ، فهذا هو الشاهد الذي أعدّ نفسه أو أعدّ للمكر والالتفاف (٢٤).

أمّا الحضور والشهادة لطلب الرأي والاستشارة ، ففي مثل قول ملكة سبأ الذي جاء في القرآن الكريم : ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ . النمل ٣٢﴾ ، وتشهدون هنا للكناية عن المشاورة ، لأنّها يلزمها الحضور غالبًا ، إذ لا تقع مشاورة مع غائب (٢٥) ؛ أي أنّها لا تقرّر أمرًا ولا تقطع به ، إلا بحضورهم وموافقتهم واستشارتهم ، تقول : (أشيروا عليّ في هذا الأمر الذي واجهته... وإنما أستشيركم فيه لأنّي لم أكن حتى اليوم أستبدّ برأيي في الأمور ، بل أقضي وأعزم عن إشارة وحضور منكم) (٢٦) .

ثانيًا : أداء الشهادة

الأصل في الشهادة الإخبار بما شاهده الشاهد وشهده ، وقد شاهدتُ الشيء : رأيته ، أمّا الفرق بين الشهادة والعلم : فإنّ الشهادة أخصّ من العلم وذلك أنّها علم بوجود الأشياء لا من قبل غيرها ، والشاهد نقيض الغائب في المعنى ولهذا سُمِّيَ

(٢٣) مجمع البيان ٧ / ٢٣٦ .

(٢٤) المصدر نفسه ٢ / ٥٧٢ .

(٢٥) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٥٨ .

(٢٦) الميزان ١٥ / ٢٨٨ .

ما يدرك بالحواس ويعلم ضرورة شاهداً ، وسُمِّي ما يعلم بشيء غيره وهو الدلالة غائباً كالحياة والقدرة ، وسُمِّي القديم شاهداً لكلّ نجوى لأنه يعلم جميع الموجودات بذاته ، والمشاهدة علم يتناول الموجود ، والعلم يتناول الموجود والمعدوم^(٢٧) .

والشاهد : مرسلٌ يصدر رسالة هي الشهادة ، إلى مُتلقٍ يطلب هذه الشهادة ، وقناة تنقل هذه الرسالة ، ومادتها هي الكلام المعبر عن الحقيقة أو الواقعة ، أو الكتابة التي تدون هذه الحقيقة أو الحادثة التي كانت قد وقعت ، وحضرها الشاهد ، ثم يشهد بها ، فيبين ما يعلمه ويظهره ، ويقال : شهد فلانٌ على فلانٍ بحق ، فهو شاهد وشهيد ، والمُشاهدة : المعاينة ، وشهده شهوداً : حضره ، وشهد له بكذا شهادة أدّى ما عنده من الشهادة ، فهو شاهد ، وقوم شهود أي حضور^(٢٨) .

فالشاهد ينقل الحدث المرئي إلى فعل تلفظ وإخبار بالشهادة المُشاهدة ، وفعل إنجازي يتحقق ، وحدث لغوي ذو علاقة وثيقة بما هو خارج عن اللغة يتم بوساطة نشاطين : الرؤية والإخبار عنها بالكلام ، فالشاهد يشهد وقوع حدث ثم يخبر عن وقوعه في فعل تلفظ بالحقيقة وهو الشهادة ، بالشاهد وما يشهد عليه .

ومن الشهادات التي تهمنا أكثر من غيرها هي : الشهادة بين الناس بأن يعلم الشاهد شيئاً ويكون حاضراً حال حصوله ، ومن بعدها يروي ذلك الشيء استناداً إلى حفظه وذاكرته وتدوينه ليؤدّي الشهادة لمن يطلبها منه ، فمعنى الشهادة قول يؤدّيه الشاهد من حضوره الفعلي والمادي ، لكن يستتبع المشاهدة أي العيان إلى الشهادة أمام من يطلب هذه الشهادة ، فيفترض في الشاهد أن يكون دقيقاً وعادلاً ،

(٢٧) معجم الفروق اللغوية ٣٠٥ .

(٢٨) المصدر نفسه ٣٠٥ .

في تحويل ما رأى ولاحظ إلى عبارات لغوية تدون الحقيقة ، ومن ثم تسجيلها في التحقيق القانوني أو الشرعي أو الإعلامي ، أو في الحديث الشفاهي ، أو في التأليف الفكري الكتابي ، ذلك ما يكسب الشاهد الصادق وضعا مميزاً على مستوى البشرية وعلى مستوى المجتمع ؛ لأنّ الشاهد يحضر حين تحمّل الشهادة وأدائها في مجلس القضاء وغيره ، وفي اصطلاح القوم عبارة عما كان حاضراً في قلب الإنسان وغلب عليه ذكره ، فإن كان الغالب عليه العلم فهو شاهد العلم ، وإن كان الغالب عليه الوجد والحزن فهو شاهد هذا الوجد والحزن ، وإن كان الغالب عليه الحقّ فهو شاهد الحق^(٢٩) .

والحاجة إلى قول الشهادة في التعاملات الدينية أو الدنيوية مهمة ، فيشهد بعضهم على شيء رأوه أو سمعوه ، ومن هذه الشهادات ، تدوين الدين والحقوق للاستيثاق ودفع الخصومة والنزاع ، وشهادة شهيدين مرضيين من الدائن لتتأكد الشهادة وتتوثق، وتبعد الريبة ويُنفى الشك ، قال تعالى : ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ . البقرة ٢٨٣﴾؛ أمّا الاستشهاد فطلب الشهادة ، (والشهاد صفة دالة على الثبوت ، والشاهد من الشهود والحضور ، لأنّ المشهود به لا بدّ أن يكون حاضراً لدى الشاهد ... "وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ" أي لا يمتنع الشهداء إذا دُعوا إلى تحمل الشهادة ... والنهي للتنزيه ... "وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ" ... ولا تملّوا كتابة الدين ...

(٢٩) التعريفات ٧٢ .

وإنّما قدّم الصغير للاهتمام به ، أي لا تكون القلة مانعة عن الكتابة^(٣٠) ، ولا يحقّ للشهداء أن يمتنعوا عن أداء الشهادة . قال تعالى : ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ . البقرة ٢٨٣ ﴿ وكتمان الشهادة من الكبائر لتضييع الحقوق وهدر الكرامة ، ووقوع الظلم والضرر بمصالح الناس ، فالتعامل مباشر بين قلب المؤمن وخالقه جل وعلا ، فإنّه يستطيع خداع أخيه ، ويستطيع التحايل عليه بشتّى الطرق ، لكنه لا يستطيع خداع ربّ العزة ؛ وإذا تخيّل له أنه يخدع ربّ العزة فلا يخدع سوى نفسه ، والمطلوب تنزيه النفس فيما بينها وبين الله تعالى عن الخيانة في الأمانة ، وهي التقوى التي حرّض القرآن عليها بأساليب مختلفة ، وهي الأصل في جميع التشريعات السماوية، كما أنّها روح العمل وقوام الدين والأصل في كلّ تشريع^(٣١) .

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ

(٣٠) مواهب الرحمن ٤/٤٨١ ، ٤٨٢ .

(٣١) المصدر نفسه ٤/٤٩ .

كَاتِبٍ وَلَا شَهِيدٍ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . البقرة ٢٨٢ ﴿ . فكاتب العدل ، يكتب ما يُملَى عليه ، فعليه أن يلتزم بالعدل فيما يُمليه على الكاتب . فإن كان صاحب الحق (الدائن) غير مؤهل فليقم ولي أمره بالإملاء عنه ، ثم ليكن هناك شاهدان من الرجال ، أو رجل وامرأتان ، ولا بد من حضور الشهود ، ولا بد من كتابة التفاصيل في الديون، إلا إذا كانت تجارة حاضرة متوالية فليس واجباً الكتابة عن طريق كاتب مستقل وشهود، أما البيع فيشترط فيه الإشهاد ، ولا بد من حصانة الكاتب والشهود لأنهم محايدون ، وإذا حدثت مؤاخذة للكاتب والشهود فهذا دليل فساد وفسوق في المجتمع ، والفاسق أشبه بغير العادل ، (وبمن حرّف الكتاب الذي منه بالذي دعا شاهدًا ليشهد أو دعا كاتبًا ليكتب... فإنّ المضارّة في الكتابة والشهادة فسوق ...) (٣٢) .

ومن الشهادات شهادة الوصاية على أموال اليتامى ، قال تعالى : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا . النساء ٦ ﴾ ، والابتلاء في الوصاية على اليتامى ، حتى إذا بلغوا سنّ القدرة في تحمّل المسؤولية جسدًا وعقليًا لمدى رشدهم ، فإن ثبت رشد اليتيم يسلم له ماله ويشهد عليه ، وإن لم يثبت رشده ظل ماله تحت إشراف الوصي ، والله الشاهد على دفع المال ، فاحذروا حسابه الأخرى (٣٣) .

(٣٢) مجمع البيان ٥١٢/٢ - ٥١٤ .

(٣٣) المصدر نفسه ١٥/٣ - ١٦ .

والأشهاد في يوم البعث في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . غافر آية ٥١ ﴾ ، والأشهاد : جمع شاهد أو جمع الجمع ، والقيام : الوقوف في الموقف، والأشهاد : الرُّسل ، والملائكة الحَفَظَةُ والمؤمنون من هذه الأمة كما أشار إليه قوله : ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . البقرة ١٤٣ ﴾ ، وذلك اليوم هو يوم الحشر، وشهادة الرسل على الذين كفروا ... (٣٤) ، أما الشهود ف(كالملائكة وكل من يقوم بالشهادة) في اليوم الآخر. وصيغة الجمع تدل على وجود الدليل الذي لا يمكن دحضه في الشهادة؛ حين تجيء كل نفس من المكلفين في يوم الوعيد ومعها سائق من الملائكة يسوقها أي يحثها على السير إلى الحساب وشهيد من الملائكة يشهد عليها ، بما يعلم من حالها، وشاهده منها ، وكتبه عليها(٣٥) ؛ والتشدد في بعض الشهادات في ذلك الموقف لما يناسب ويمكن تقسيم الشهود في يوم القيامة إلى طائفتين ، الأولى : الشهود ، الله والأنبياء ، والثانية : أعضاء البدن وتجسم الأعمال ، أعمال الإنسان ، الحسنة والسيئة ، والملائكة المراقبون لأعمال العباد والذين يستسخون عملهم ويشهدون عليهم يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمُ فَبَصُرْتُمْ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ . سورة ق ٢١ . ٢٢ ﴾ .

ومن أبلغ الشهادات شهادة الملائكة أو أعضاء جسم الإنسان من السمع والبصر والفؤاد، وشهادة الملكين الذين يكتبان عمل كل فرد ، يتلقيان كلامه وعمله ويسجلانه

(٣٤) التحرير والتنوير ٢٤/٢١٦ .

(٣٥) مجمع البيان ٩/١٨٦ .

أولاً بأول ؛ هما (رقيب وعتيد) ، وبعد الموت والبعث يؤتى بك بصحبة نفس الملكين، أحدهما يسوقك ، والآخر يحمل كتاب أعمالك ، ويصبح لهما اسمان جديان (سائق وشهيد) لم تكن تراهما في الدنيا ، ولكن سترهما بعد أن زال عنك الحجاب الجسدي ؛ يقول جل وعلا عنهما : ﴿إِذْ يَتَلَقَى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ . سورة ق ١٧ . ٢٢﴾ . وأعضاء بدن الإنسان تشهد على ما اقترفته في الدنيا ، تلك الشهادة من قدرة الله ، قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ - النور ٢٤﴾ . وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يس ٦٥﴾ .

ثالثاً : (كفى بالله شهيداً)

كفى الله شهيداً لأبيائه ، وغاية هذه الشهادة تبين صحة الدعوة والنبوة ، والرأسل أنفسهم هم الشهداء على ما أرسلوا به ، وشهادة الله جلّ وعلا كافية ، لا تدانيها شهادات البشر لأنّ الشاهد أيّ شاهد حينما يشهد ، يشهد بحدود ما يرى ، وشهادة الله إحاطة تامّة ، ثابتة لا تتغير، وليس هناك من يغيرها ، وجاءت هذه العبارة (كفى بالله شهيداً) في ستة مواضع من القرآن الكريم، هي:

١ . قال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . النساء ٧٩﴾ ، الله شهيداً على إرسال رسوله بالتبليغ برسالته ، رسولاً للناس جميعاً ، والله الشاهد وكفى به من شاهد ، ومن أطاع النبي ص فقد أطاع الله ، للتلازم ووجوب طاعة الرسول

فيما يأمر به وينهى عنه ، والأمر والناهي هو الله جلّ شأنه ، ولا يرضى سبحانه وتعالى العمل إلا عن طريق رسوله ص^(٣٦) ، أي (أن الرسول إنّما يأمر وينهى بياناً من الله وتبليغاً ، فإنّما هي أوامر الله ونواهيه ... فنزلت هذه الآية تصديقاً للرسول ﷺ)^(٣٧) .

٢ . ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ . النساء ١٦٦ ، لم يشهد أهل الكتاب وتعتتوا ، وقالوا : ما نشهد لك بهذا ، فنزل ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ ، وأنزله بعلمه في نظم وأسلوب يعجز عنه كلّ بليغ وصاحب بيان ، ويُحتمل أنّه أنزله وهو عالم به رقيب عليه حافظ له^(٣٨) .

٣ . ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ . يونس ٢٩ ، الشهيد : الشاهد ، وهو المؤيد والمصدق لدعوى مدّع ، وكفى بمعنى : أجزأ وأغنى عن غيره ، صيغة تستعمل في إنشاء القسم ، لإثبات البراءة من الشركاء الذين يُعبدون ، والباء زائدة للتوكيد ، والأصل كفى الله شهيداً ، والنصب على التمييز لنسبة الكفاية إلى الله لما فيها من الإجمال^(٣٩) .

٤ . ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ . الرعد ٤٣ ، يقول بصيغة المضارع للدلالة على التكرار ولاستحضار حالهم العجيبة من الاستمرار على التكذيب بعد أن رأوا دلائل الصدق ، وقد أمر

(٣٦) مواهب الرحمن ٥٦/٩ .

(٣٧) المحرّر الوجيز ٨٢/٢ .

(٣٨) تفسير الكشاف ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٣٩) التحرير والتنوير ٦٩/١١ .

الرسول ص ، بأن يجيبهم جواب الواثق بصدقه المستشهد على ذلك بشهادة الصدق من إشهاد الله تعالى وإشهاد العالمين بالكتب والشرائع ؛ ولما كانت الشهادة للرسول ﷺ بالصدق شهادة على الذين كفروا بأنهم كاذبون جعلت الشهادة بينه وبينهم؛ وإشهاد الله في معنى الحلف على الصدق^(٤٠) ، وما أحد أعلم بكتاب الله والتمكّن منه بعد النبي ص من علي بن أبي طالب عليه السلام ، ومن الصالحين من أولاده، وشهادتهم شهادة من عنده علم الكتاب بعد النبي ﷺ، وهذا العلم هو بالمحافظة عليه وتفسيره ، وهم الذين هداهم الله لذلك ، وقد وكلوا به ، قال تعالى: ﴿... فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُؤْتِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ . الأنعام ٨٩ . ٩٠﴾ ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . فاطر ٣٢﴾ ، (بعد ما أوحينا إليك القرآن "ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ" ثم للتراخي الرتبي ، أورثنا ذريتك إياه وهم الذين اصطفينا من عبادنا ، إذ اصطفينا آل إبراهيم ، وإضافة العباد إلى نون العظمة للتشريف)^(٤١) .

٥ . ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . الإسراء ٩٦﴾ قل يا محمد : لهؤلاء المشركين : ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ إني رسول الله إليكم،

(٤٠) التحرير والتنوير ٢١١/١٢ .

(٤١) الميزان ٢٨/١٧ .

وأريد بالشهيد للمُحَقِّ على المُبْطِل ، فهو كناية عن النصير والحاكم لأنَّ الشَّهادة سبب الحكم ، والقرينة ﴿بِنِّي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأنَّ الظرف ﴿بين﴾ يناسب معنى الحكم ﴿٤٢﴾ .

٦ . ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا . الفتح ٢٨﴾ ، أرسل الرسول بالعلم النافع والعلم الصالح ، والبيِّنات الواضحة ، وبالحجة الساطعة أي القرآن ودين الإسلام ليظهر هذا الدين بالحجج والبراهين على جميع الأديان ، وقد صدَّق وحي الله شرائع الإسلام لأجل أن يظهره ويعليه ويشرفه، والكافي بشهادة الله شهادة بصدق الدعوة ، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ، حسبك شاهداً من الله ، وإعلام من الله تعالى لنبيّه ، على أنّ ما وعده بالفتح ودخول المسجد الحرام كائنٌ ، وأنه سيظهر دينك ﴿٤٣﴾ .

والله جلّ جلاله الشاهد الأول على سلوك الإنسان وعمله وتصرفاته والذي لا تخفى عليه خافية قال سبحانه : ﴿... لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . آل عمران ٩٨﴾ ، وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿... إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . الحج ١٧﴾ وقال تعالى أيضاً : ﴿... فَالْيُنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ . يونس ٤٦﴾ .

(٤٢) التحرير والتنوير ١٤/١٦٨ .

(٤٣) تفسير الكشاف ١٠٢٩ .

رابعًا : تكرر (الشاهد) المتبوع بـ (مِنْ) في القرآن الكريم

تكرّر (الشاهد) المتبوع بحرف الجر (مِنْ) ثلاث مرّات في القرآن الكريم ، من ضمن هذه الثلاثة آية سورة هود وآية سورة الأحقاف ، وهما موضوع بحثنا ، قال تعالى :

١ . ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ . هود ١٧﴾ ، ننقل هنا مخالفة القاعدة النحويّة في عود ضمير الشاهد ﴿منه﴾ الشاهد من النبيّ ﷺ ، وهو الأقرب بحسب القاعدة النحويّة ، فيحاول صاحب مشكل إعراب القرآن جاهدًا إبعاد احتمال أن يكون الشاهد أمير المؤمنين من النبيّ ﷺ ، وعنده أن "منه" من الله جل ذكره ، (والشاهد الإنجيل ، أي : يتلو القرآن ... فتكون الهاء في "قبله" للإنجيل أيضًا ، وقيل : الهاء في يتلوه لمحمد ص ، فيكون الشاهد لسانه ، والهاء في "منه" لمحمد ﷺ أيضًا ، وقيل : للقرآن وكذلك الهاء في "قبله" لمحمد ﷺ ، وقيل : الشاهد جبريل عليه السلام ، والهاء في "منه" على هذا القول لله تعالى ، وفي "من" قبله" لجبريل أيضًا ، وقيل : الشاهد إعجاز القرآن ، فالهاء في "منه" على هذا القول لله تعالى ، والهاء في "قبله" للقرآن ؛ والهاء في "يؤمنون به" للقرآن ، وقيل لمحمد عليه السلام(٤٤) .

(٤٤) مشكل إعراب القرآن للقيسي ١ / ٣٩٣ .

فجملة ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ معطوفة على صلة ﴿مَنْ﴾ ، ممّا قبلها : ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ ، وهي مشتملة على ضمير يعود على الموصول ، والقرآن إنما نزل على النبي ﷺ وكان بينة لنبوته ، فكيف يجوز أن يقال المؤمنون على هذه البينة، ويجعل النبي تاليًا لهذه البينة عليهم، فيلزم حينئذ أن يكون المؤمنون أصلاً في هذه البينة والنبي فرعاً وهو غلط .

وقد فنّد البهبهاني الفرضيات التي افترضها الرواة استناداً إلى التفكيك وإعادة بناء تخريج معنى النَّصِّ ؛ وما قد يظهر من تناقض دلالي وعدم انسجام على وفق هذه الافتراضات ؛ فالعائد على الموصول ﴿مَنْ﴾ ، في قوله تعالى : ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ ، إذا كان غير النبي ﷺ ، من قولهم : ﴿كل محق يدين بحجة وبينة﴾ ، يتوقف على استجماع الصلوات الثلاثة ، وهي :

١ . كان على بينة من ربه ، ٢ . يتلوه شاهد منه ، ٣ . من قبله كتاب موسى ، فلا تتحقق فيه الصلة الثالثة ، إذ لا يصدق قوله تعالى : ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ ، بالنسبة إلى من تقدم عليه من الأنبياء وأمهم بالضرورة ، بل الثانية أيضاً ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ ؛ أمّا إذا كان العائد على ﴿مَنْ﴾ : المؤمنون من أصحاب محمد ﷺ ، فلا ينطبق عليهم الصلة الثانية ، لأن المراد من شاهد منه حينئذ إما النبي ﷺ أو القرآن ، فلا مجال لاحتمال سائر الوجوه من كونه جبرائيل ، أو

الملك الحافظ للنبي ﷺ حينئذ. والفعل مأخوذ إما من التلاوة أو التلو، فيحصل هناك وجوه أربعة وكل منها باطل^(٤٥).

٢. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدًّا مِنْ قَبْلِ فَصَدَقْتَ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . يوسف ٢٦﴾ ، من أهل المدّعية ، والشاهد على الأرجح أنسي من أهل هذه المرأة ، بدلالة حرف الجر (من أهلها) ، وأجواء استحضار هذه الشهادة ، من بيان عقلي لما حصل ، فضلاً عن كونه شاهداً حسياً ، يؤدي إلى الحلّ والنتيجة ، لأنّ الشهادة تأدية ما عند الشاهد من الحقّ ، (وَشَهِدَ شَاهِدٌ) إشارة إلى كون ذلك الشاهد كان قد قال قولاً وكلاماً صدر عنه^(٤٦).

٣. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الأحقاف ١٠﴾ ، أي جاء هذا الشاهد من بني إسرائيل ، وشهد أنّه من عند الله تعالى ، فالإسرائيلي آمن بنبوّة محمد ص^(٤٧) ، ف (المراد : من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام)^(٤٨) . شاهد على مثله . في قول النبي . أنّه من عند الله ، يشهد على أنّ القرآن مثل التوراة ، من حيث المضمون في المعارف الإلهية التي نزلت على موسى ، فأمن هذا الشاهد واستكبرتم أنتم ، و(إن كان هذا القرآن من عند الله والحال أتكّم كفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما في

(٤٥) مصباح الهداية ٦٨ - ٦٩ .

(٤٦) الميزان ١٣٠ - ١٢١ .

(٤٧) المحرر الوجيز ٩٥ / ٥ .

(٤٨) الدرّ المصون ٨٦ / ٤ .

القرآن من المعارف ، فأمن هو واستكبرتم أنتم أستم في ضلال ؟ فإن الله لا يهدي القوم الظالمين ؛ والذي شهد على مثله فأمن على ما في بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود (...)(٤٩) .

أمّا الشاهد في آية سورة يوسف وآية سورة الأحقاف من البشر ، (من أهلها) ، و(من بني إسرائيل) ، وهذا ما يرجح عود الضمير في خطاب النبي ص آية سورة هود : (ويتلوه شاهد منه) ، من النبي ص من البشر أيضًا ، وصاحب البيئته محمد ص من الله مثله أيضًا ، وهو التالي للنبي على التخصيص بالرواية أو الترجيح، علي بن أبي طالب ، وهو مدار بحثنا الذي سنتوسع في دلالاته إن شاء الله .

الخلاصة

أردنا من هذا الفصل التهيئة لثبات الشهادة لحفظ نص القرآن الكريم ، وأن لا بدّ لهذه الشهادة أن تتوثق من :

١ . وجود الشاهد فعلياً إلى جانب صاحب الدعوة ، منذ بدء دعوته وحتى انتقاله إلى جوار ربه .

٢ . اجتماع الحضور والسّماع والمشاهدة لكلّ ما يتنزّل بالبصر والبصيرة ، من أول نزول القرآن الكريم إلى آخر آية من آياته ، وارتباط اسم الشاهد بأسباب نزول بعض الآيات ؛ ولاسيما تفسير قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ

(٤٩) الميزان ١٨ / ١٦٠ .

نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا . المائدة ٣ ﴿ ٣ ﴾ ، فالآية تُعَدُّ بِإِكْمَالِ الدِّينِ وَإِتْمَامِ النِّعْمَةِ بِوِلَايَةِ الشَّاهِدِ .

٣ . وعي الشاهد ودرجة فهمه ، ودعاء النبي ص له ، فهو (الرجل الفهم المنور القلب ، الذي يسمع القول فيتلقاه بفهمٍ وتدبرٍ ... ويُروى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ص قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضٍ : "إِنِّي دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَها أَدْنَكَ يَا عَلِيُّ" (٥٠) ، يعني قوله تعالى : ﴿ وَتَعَيَّهَا أَذُنٌ وَإِعْيَةٌ . الحاقة ١٢ ﴾ ، مثلما سنعرض بالتفصيل لاحقًا إن شاء الله .

٤ . تأهيل الشاهد للتبليغ عن رسول الله في حياته ص ، وهو الذي أَدَّى سُورَةَ بَرَاءَةِ إِلَى الْمُشْرِكِينَ ، يقرؤها على الناس بِمِنَى يَوْمِ النحر، بعد أن أُنزِلَ على النبي ص مضمون أن لا يؤدِّي عنك إلا أنت أو رجلٌ منك ﴿٥١﴾ .

٥ . تخصص الشاهد بالقرآن ، وشهد على أنه من عند الله ، وشهادته شهادة تصديق ، أعلم الأمة بكتاب الله (٥٢) .

٦ . كون الشاهد أحد كتاب الوحي ، أو هو الكاتب الأول للوحي ، والرجل الثاني بعد النبي ص كان يسمع الوحي ، ويكتبه ويتدبره ، قال ابن عبد ربه : ﴿فمن أهل هذه الصناعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان مع شرفه ونبله وقربته من رسول الله ص، يكتب الوحي...﴾ (٥٣) .

(٥٠) المُحرَّر الوجيز ٣٥٨/٥ .

(٥١) مسند أحمد ١٥١/١ ، وتاريخ مدينة دمشق ٢٣ / ٤٩٤ الحديث ١٨٣ .

(٥٢) الميزان ١١ / ٣١٦ - ٣١٧ .

(٥٣) العقد الفريد ٥ / ٢ .

٧ . صدق الشاهد وعدالته من رسول الله ص ما يرفع مقام هذه الشهادة ، (فعن أم سلمة : سمعت رسول الله ص يقول : "عليّ مع الحق والحق مع عليّ ، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض يوم القيامة")^(٥٤) .

٨ . اختيار النبي لهذا الشاهد الذي لا يتوقع منه تغيير ولا تبديل ، وأنّ حاله واحدة متصلة به ، وولايته بولايته^(٥٥) ، حتى يقول الإمام : (لم ينزل الله على رسول الله ﷺ آية إلا جمعتها ، وليس منه آية إلا وقد أقرأنيها رسول الله وعلمني تأويلها)^(٥٦) . هذه المعطيات تجعلنا نطمئن إلى أنّ الشاهد منه هو المؤهل للحفاظ على نصّ القرآن الكريم ، وإلى جانبه غيره ، لكن بدرجات ، سواء أكان غيره من القراء أو الكتبة ، أو خلاء الصحابة أو عامتهم ، وهو نفسه الضامن لسلامة هذا النصّ باعتناء النبي ص وتهيئته ، سواء استُدعي للتدوين الرسمي مباشرة أو لم يُستدع ، لأنّ مكانته من النصّ معلومة عند القاصي والداني في هذا الأمر ، وهو نفسه حريص كل الحرص ، على القرآن وموجّه من النبي ﷺ التوجيه المطلوب ، فلا يُوازن بغيره في هذا المضمار ، ولا يقاس به أحد ، وأنّ القرآن الذي وصلنا مضبوطاً بعلامات ضبط أبي الأسود هو قرآن الإمام ، وقرآن رسول الله ، والقرآن النازل من عند الله .

(٥٤) تاريخ مدينة دمشق ٥٢٨/٢٣ .

(٥٥) المعيار والموازنة ٢١٢ .

(٥٦) المصدر نفسه ٣٠٠ - ٣٠١ .

الفصل الثاني : بينات الأنبياء وشهاداتهم

بان الأمر فهو بَيِّنٌ ، وأبان الشيء إبانة وتبين ، كلها بمعنى الوضوح^(٥٧) ، و﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ . النحل ١٠٣ ، والشعراء ١٩٥﴾ ، مُبِينٌ : لوضوح حجته ، أي بلغة واضحة تعرفونها ؛ وبَيِّنْتُ الشيء : استوضحته وعرفته ؛ والبيِّنة مؤنث البَيِّن : وهي الدليل والحجة القويّة الواضحة ، أو الشهادة والدليل الحسِّي أو العقليّ ، وسُمِّيَتْ شهادة الشاهدين العَدْلَيْن : بيِّنة ، أو هي : القول الذي لا منازعةَ فيه لوضوحه ، أو من أظهر برهانه في العلم والعقل بحيث لا مندوحة من شهود وجوده ، والآيات البيِّنات : آيات القرآن الكريم ، والرسول ص صاحب البيِّنة من الله ، والبيِّنة أيضًا : الدليل الحاسم في مواطن الخلاف والنزاع والخصومات ، وَاللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ مُبِينٌ ، لَأَنَّهُ عَرَبِيٌّ فَصِيحٌ بَلِيغٌ مُعْجَزٌ^(٥٨) .

والبيِّنة : الآية الواضحة الظاهرة ، أو الوحي والحجة الفاصلة بين الحقّ والباطل ، وتستند البيِّنة إلى الشهود ، والقرآن : بيِّنة ، وهو اليقين والبرهان الواضح ، و﴿عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ : على حجة ظاهرة واضحة تفصل بين الحق والباطل ، والبيِّنة بمقابل أهواء المخالفين ، والحجة : القرآن الذي تحدّاهم به ، بدليل (وَكَذَّبْتُمْ بِهِ) وبما جاء به القرآن من بيان ؛ وكذّبتُم بالله مع أنّ دلائل توحيده ظاهرة ، وشهادة النبيّ ص على كذبهم شهادة جازمة لا تقبل الرّدّ والتردّد ، وهو على يقين وعلى شريعة واضحة ،

(٥٧) المصباح المنير ٧٠ .

(٥٨) التحرير والتنوير ٢٣٠/١٣ .

ومن أعدل الشهود ، وقد عرفوا صدقه ، فالبيّنة مضمون الشهادة مثلما سنعرض فيما يأتي :

أولاً : بين البيّنة والشهادة

كثُر استعمال البيّنة ، فيما يتبين به غيره كالحجة ، والآية قد تكون عقلية أو مادية محسوسة ، ويُقال للشاهد على دعوى المدّعي بيّنة ، وسمّى الخالق آيته بيّنة ، في مثل قوله : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . الأعراف ٧٣﴾ ، وناقاة النبي صالح ع آية حسية مشاهدة ، أخرجها الله له بدعائه ع^(٥٩) .

والآيات البيّنات : آيات القرآن الكريم ، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُرُونَ . النحل ٤٤﴾ ، ليبين للناس مسؤوليتهم تجاه آيات ربهم ؛ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . المائدة ٤٨﴾ ، فأيات القرآن بيّنات حاكمة على ما قبلها ، والهيمنة على الشيء : حفظه ومراقبته والتصرّف فيه ، والقرآن تبيان كلّ شيء ، بالنسبة إلى ما بين يديه من الكتب السماوية ، يحفظ منها

(٥٩) الميزان ٨ / ١٥٢ .

الأصول الثابتة غير المتغيرة ، وينسخ ما ينبغي أن يُنسخ^(٦٠) ، والهيمنة : الرقابة والسيطرة ، والمهيمن الأمين والمؤمن والحاكم والشاهد ، ومن أسماء الله جلّ وعلا: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . الحشر ٢٣﴾ .

ومن معاني ﴿على بيّنة من ربي﴾ : على شريعة واضحة وملة صحيحة ، لا متّبع لهوى ، إذ تشتمل البيّنة على بيان ويقين وبصيرة وحجة ، وإلى معجز يفصل الحقّ من الباطل ، قال تعالى: ﴿وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ . الأنفال ٤٢﴾ ، أي ليعش من عاش عن بيّنة ظاهرة من الله على حقيّة الحقّ وبطلان الباطل ، استنادًا إلى وضوح العلم بالهدى والضلال ، والقرآن : بيّنة عقلية وحجة واضحة نزلت بلسان المخاطبين بها ، وهي الشاهد على صحة النبوة المتعدّدة الدلائل ، فيحيا من اهتدى على الإيمان بعد قيام الحجة^(٦١) .

ولولا إرسال الله الرُّسل وإنزال الكتب لما انتهى الكفّار، ولا انفكّوا عمّا كانوا عليه من الكفر، قال تعالى : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ . البيّنة ١﴾ ، والبيّنة هنا بعث الرسول ص وإنزال الكتاب ، ومثّلوا للشرع بالنور والعقل بالعين فلا يمكن للعين أن تؤدّي وظيفتها في الإبصار من دون النور، والنور لا يضيء لمن لا عين له ، والتلازم بينهما حتمي ، والمراد بذلك

(٦٠) الميزان ٥ / ٢٩٨ .

(٦١) مجمع البيان ٤ / ٦٧٦ .

البصر البصيرة والإدراك والعقل ، قال تعالى : ﴿وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ . الأعراف ١٩٨﴾ ، تراهم كأنهم ينظرون إليك ، لكن لا نظر حقيقي ، فصَوَّرَ الأصنام على صور الأناسيِّ ، نحتوا لها أمثال الحدق الناظرة إلى الواقف أمامها ، لكن لا بصر ولا بصيرة^(٦٢) .

فالنبي الأكرم هو البصير والشاهد على أعمال أُمَّته وما يصدر منهم ، ولقد وصفته بعض الآيات بأنه شاهد ومبشر ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا... الأحزاب ٤٥ ، والفتح ٨﴾ . فمن الممكن أن يكون المقصود من الشاهد هنا هو الشهادة على أعمال عباده يوم القيامة ؛ وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ... المزل ١٥﴾ . ذلك مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الشهادة فرع التحمّل والشهود ، أي أنّ الشهادة تتم بعد علم الشاهد بالواقعة أو الحادثة ، فالآية المباركة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾ ، دليل واضح على سَعَةِ علم النبي وشموليته للأعمال الظاهرية والباطنية للأُمَّة الإسلامية . قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ . النحل ٨٩﴾ ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُبْعَثُونَ إِلَى أُمَّهَم ، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ ، يَا مُحَمَّدُ ، ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ ، الَّذِينَ بُعِثَتْ إِلَيْهِمْ وَهُمْ أُمَّتُهُ فِي عَصْرِهِ مِنْ حَضْرِهِ وَعَاصِرِهِ ، وكذلك من غاب ومن جاء بعده من الناس ، وشهادته ذات عصمة إلهية يمتنع معها الكذب

(٦٢) التحرير والتنوير ٨ / ٣٩٨ .

والجفاف^(٦٣)، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا﴾ : بَيَانًا ، ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ، يُحْتَاجُ إِلَيْهِ من أمر الهداية ومعرفة الحق من الباطل ، مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ ، ﴿وَهَدَى﴾ ، مِنَ الضَّلَالَةِ ، ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَى﴾ ، بِشَارَةً ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ، وقد اقترن الكتاب بالشهادة ، ومثله ما جاء في قوله تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ . الزمر ٦٩﴾ ، والكتاب صحائف أعمال العباد أحضرت للحساب ، أو الكتاب كتب الشرائع التي شرعها الله للعباد على أسنة الرُّسُلِ ، ويكون إحضارها شاهدة على الأمم بتفاصيل ما بلغه الرسل إليهم لئلا يزعموا أنهم لم يُبلِّغوا ، فمجيء النبيين للشهادة على أممهم ﴿٦٤﴾ .

أما ما يخصنا أكثر من غيره في هذا من الجمع بين البيّنة والشهادة ، ففي قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ . هود ١٧﴾ ، فالذي على بيّنة من ربه هو النبي ص ، والشاهد منه أمير المؤمنين ، يشهد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو منه ، ويُقصد بتكثير ﴿شاهد﴾ أهميته ، لهذه المنقبة الفاضلة ، كونه شاهداً للرسول صلى الله عليه وآله وسلم على رسالته ، وأنه من الرسول ، وأنه تال له ﴿٦٥﴾ ، ﴿يتلوه هنا بمعنى يتبعه ، والشاهد يريد القرآن الكريم ،

(٦٣) الميزان ١٢ / ٢٦٤ .

(٦٤) التحرير والتنوير ٢٣ / ١٣٤ .

(٦٥) مصباح الهداية ٧٥ .

فالمعنى يتبع ذلك البرهان شاهد من الله وهو القرآن فيزيد وضوحه وتعظم دلالاته ،
وقيل : إنَّ الشاهد المذكور هنا هو عليّ بن أبي طالب ، "وَمَنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى" ،
أي ومن قبل ذلك الكتاب الشاهد كتاب موسى ، وهو أيضًا دليل آخر متقدم ، وقد
قيل أقوال كثيرة في معنى هذه الآية ...^(٦٦) ، وسنتوسّع في هذا إن شاء الله

ثانيًا : دلالة تكرار (على بيّنة) في القرآن الكريم

تكرّرت عبارة (على بيّنة) سبع مرّات في القرآن الكريم ، وقد اجتمعت أربع من هذه
المرّات في سورة هود ع ، وكانت ثلاث من آيات سورة هود في خطاب الأنبياء
لأقوامهم : نوح وصالح وشعيب ع ، وقبل الثلاثة الخطاب الرابع خطاب النبيّ
ص ، وهذه هي آيات (على بيّنة) ، بحسب تسلسل السور :

١ . ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ
إِلَّا لِلَّهِ الأنعام ٥٧﴾ ، وهذا على لسان النبي ص أنّه على بيّنة واضحة من ربّه
ومعرفة تامّة ، وهم على جهل وضلال وتابعون لأهوائهم ، قل يا محمد لهؤلاء الكفّار
(إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي) أي على أمر بيّن لا مُتَّبِع لهوى ... وقال الحسن : البيّنة
النبوّة أي على نبوّة من جهة ربي وقيل على حجة من معجزة دالة على نبوّتي وهي
القرآن ... (ما عندي) أي ليس عندي (مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) ، من الذي تطلبونه من
العذاب ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ... إنّ ذلك عند ربي ... ليس الفصل بين الحق

(٦٦) التسهيل لعلوم التنزيل ٢ / ٧٣٥ .

والباطل وفي إنزال الآيات إلا الله... (٦٧) ، عبارة (عَلَى بَيِّنَةٍ) أتبعته بتهديد من الله عز وجل .

٢ . ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ . هود ١٧﴾ ، أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ... كمن لا بينة له ، وكتاب موسى (أي التوراة) عُطِفَ عَلَى قَوْلِهِ (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ) ، أي وكان يتلو كتاب موسى من قبله ، والبيِّنة هنا عَزَّزَتْ بِشَاهِدٍ مِنْهُ ، يشهد بصحَّته ، على اختلاف في هذا الشاهد ، أهو : النبي ص ، أو علي بن أبي طالب ، أو القرآن أو غير ذلك (٦٨) ، ويتلوه شاهدٌ ، تجلب النظر والتأمل ، لأنها عرضت بعد استفهام يُراد به التقرير ، وبصيغة المضارع الدال على الحال والاستقبال ، وتقديره : هل الذي كان على برهان وحجة من الله كمن لا بينة له ، فالشاهد منه يثبت البيِّنة ويشهد لها ، ويبدو أنَّ الشاهد يمكن أن يكون كلَّ ما دُكِرَ مِنَ الْمُحْتَمَلَاتِ أو المسلمين أو كلَّ منصف يتأمل القرآن المعجز وبيِّناته وفي المقدمة النبي ص والإمام وغيرهما فيما يرجح كثير من المفسرين ، لكن يتميز شاهد من شاهد ، من حيث الدرجة والثوق والهداية ، وما يبذل من جهود مشهودة .

(٦٧) مجمع البيان ٣٨٧/٤ .

(٦٨) المصدر نفسه ١٩١ - ١٩٢ ، وتفسير الكشاف ٤٧٩ .

وتفسير قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ . هود ١٧﴾ ،
 و(إنَّ الرُّسُلَ كُلَّهُمْ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ مِنْهُمْ كَانَ يَحْتَجُّ عَلَى قَوْمِهِ بِآثَرِهِ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، وَإِنَّهُ جَاءَهُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ ... وكان نبينا ص يطلق البينة تارة على الحجة والبرهان ، وتارة على آيته الكبرى الجامعة للبراهين الكثيرة وهي القرآن الكريم ... وإنَّ البينة هي نور البصيرة الفطرية والحجة العقلية التي يُمَيِّزُ بِهَا الْإِنْسَانَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ ، والمعنى : أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ وَبصيرة في دينه من ربِّه ...)(٦٩) ، كمن لا بَيِّنَةَ لَهُ .

مع أَنَّ كُلَّ الْآيَاتِ الَّتِي حَوَتْ عِبَارَةَ : (عَلَىٰ بَيِّنَةٍ) فِي سُورَةِ هُودٍ ، أَتَبَعَتْ بِالْإِزْمِ ، عَلَى كَرِهٍ فِي قِصَّةِ نُوحٍ ، أَوْ بِتَهْدِيدٍ فِي قِصَّةِ صَالِحٍ ، أَوْ بِالنَّصَحِ فِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ .

٣ . ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . هود ٢٨﴾ ، فالبينة في خطاب نوح ع ، قد عُمِّيَتْ عَلَيْهِمْ ، وَهِيَ رَحْمَةُ اللَّهِ بِالْإِيمَانِ ، وَكَانَتْ حُجَّتَهُمْ مَبْنِيَّةً عَلَى الْحَسِّ وَنَفِي مَا وَرَاءَهُ ، أَيْ أَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَهُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَهُمْ ، وَالرَّسَالَةَ الْآيَةَ الْمَعْجِزَةَ الدَّالَّةَ عَلَى صِدْقِ نُوحٍ ع ، لَكِنَّهُمْ اسْتَنْتَجَوْا عَدَمَ الدَّلِيلِ عَلَى وَجُوبِ طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِهِ ، فَرَدَّ حُجَّتَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مَا لَا ، وَلَا يَطْرُدُ مَنْ يَنْصُرُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَيَقُولُ إِذَا كُنْتَ بَشَرًا فَمَاذَا

(٦٩) تفسير المنار ١٢/٥٠ - ٥١ .

تقولون إذا أتيتكم بحجة دالة على صدقي ألا تصدقوني ، أو تريدون أن أكرهكم على المعرفة ، وقد خفيت عليكم لقلة تدبركم (٧٠) .

٤ . ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ . هود ٦٣﴾ ، وقبلها : ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مريب ...﴾ وبعدها ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةٌ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ . هود ٦٢ . ٦٥﴾ ، والبيّنة : الآية المعجزة والرحمة النبوة ، أخبروني إن كنت مؤيدًا بأية معجزة عن صحة دعوتي وأعطاني الله الرسالة فمن ينصرني إن أطعتم ، وقد أتعت عبارة (عَلَىٰ بَيِّنَةٍ) بالتهديد بالعذاب القريب ، ومن ثمّ الهلاك ، لأنهم عقروا الناقة الآية التي جعلها الله المعجزة (٧١) .

٥ . ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . هود ٨٨﴾ ، وقبلها ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ . هود ٨٧﴾ . على بيّنة من ربّه ، آية النبوة والمعجزة الدالة على صدق دعواه ، أخبروني

(٧٠) مجمع البيان /٥ / ١٩٩ .

(٧١) مجمع البيان /٥ / ٢٢٤ .

إن كنت رسولاً من الله إليكم وخصني بوحى المعارف والشرائع وأيدني بآية بيّنة تدل على صدق دعواي فهل أنا سفيه في رأيي؟ وهل ما أدعوكم إليه دعوة سفهية (٧٢)؛ وأتبع عبارة (عَلَى بَيِّنَةٍ)، بالنصيحة لقومه والدعوة إلى الإصلاح وأما الحكم فله.

٦ . ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا . فاطر ٤٠﴾ ، وفي (أرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) تعجيز المشركين من المخاطبين أن يخلقوا شيئاً، وعبارة (عَلَى بَيِّنَةٍ) بعد نفي وإنكار أن يكون للمشركين بيّنة أو كتاب ، فلا خالقيّة لهم ولا بيّنة ، وضمير الغائب من ﴿آتيناهم﴾ و(فهم على بيّنة) يعود على المشركين (٧٣) .

٧ . ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . محمد ١٤﴾ ، أفمن كان على بيّنة ويقين من ربه كمن لا بيّنة له؟ وجاءت عبارة (عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) ، بعد قوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ . محمد ١٣﴾ ، وفيها تهديد لأهل مكة وتحقير لأمرهم بموازاة غيرهم من المذكورين في الآية ، وفيها تقوية لقلب الرسول ص (٧٤) .

(٧٢) الميزان ١٠ / ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٧٣) المصدر نفسه ١٧ / ٤٥ .

(٧٤) المصدر نفسه ١٨ / ١٩٠ .

ويُلحظُ ممَّا تقدّم في هذا المبحث أنّ تكرر بيّنة الأنبياء في سورة هود كان بالعبارة نفسها، ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ ، وقد تشابه اللفظ والنظم لتشابه القصص، عدا بيّنة النبي ص ، وعلى النحو الآتي :

نوح ع يقول لقومه .. ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بيّنة من ربّي﴾ .

صالح ع ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بيّنة من ربّي﴾ .

شعيب ع ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بيّنة من ربّي﴾ .

محمد ص ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه ويتلوه شاهد منه﴾ .

فبيّنة خطاب النبي ﷺ قد أتبعته بـ (يتلوه شاهد منه) ، في صياغة مختلفة ، وتوجّه آخر على الرّغم من التشابه العام بين هذه الآيات ، ويبدو أنّ اختصاص الشاهد به ، أو يوثقه على رأي آخر ، وربما لتعيين من يتلوه ، بشهادة عود ضمير الغائب (الهاء : ربه ، ويتلوه ، ومنه) على الموصول (من) ، وهذا ما سنعود إليه إن شاء الله .

أمّا في خطاب المشركين في سورة فاطر فكان على لسان النبي ﷺ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ ... أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ ، الشركاء أصنام لا حوار معهم ، بمقابل (أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) ، على لسان الأنبياء ع وهم يخاطبون أقوامهم البشر؛ فالمخاطبون في سورة فاطر أصنام لا بيّنة لهم ، فالتقابل بين: (قال يا قوم

أرأيتم إن كنت على بينة) على لسان الأنبياء ؛ وفي خطاب النبي ص ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ ، عن الله ليرد دعاوى المخاطبين في الشرك ، وهل لهذه الأصنام بينة أو كتاب من الله ، مع أنّ المخاطبين ليسوا على بينة أيضًا ، و﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ ، (يعني : إن كنتم رأيتموهم فلا سبيل لكم إلا الإقرار بأنهم لم يخلقوا شيئاً)(٧٥) .

فسياق تكرار (على بينة ...) في خطاب النبي ص في القرآن الكريم كالآتي :

١ . ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ ، في سورة هود .

٢ . ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ ، في سورة محمد .

٣ . ﴿أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ وبصيغة السؤال في سورة فاطر .

فليس المشركون على بينة ، والبيّنة القرآن ، الذي به حاجة إلى شهادة، وإلى تثبيت من النبي ﷺ ولمن بعده. ولم ينته الحوار في خطابه ص بما انتهى به خطاب الأنبياء (نوح وصالح وشعيب) في سورة هود ، فالحوار العقلي والتمييز في خطاب النبي ص . والله أعلم . على النحو الآتي :

(٧٥) التحرير والتنوير ٢٢ / ١٧٥ .

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ... كغيره ؟

أفمن كان هذا شأنه كمن كان ليس كذلك ؟ أفمن كان هذا شأنه كمن استحوز عليه الشيطان فجعله لا يريد إلا الحياة الدنيا وزينتها ؟ كلا إنهما لا يستويان .

أفمن كان على برهان جليٍّ من ربّه يدلّ على حقيقة الإسلام وهو القرآن ... شاهد من الله ...

﴿ويتلوه شاهد منه﴾ ، يتلوه : كلمة يتنازعها معنيان : الأوّل : يقرأ عليهم آياتنا ، والثاني : يتبع ويُعَقَّب ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّاهَا . الشمس ٢﴾ ، (وهذا التنازع في المعنى جعل النَّص من المتشابه ، وهو هنا في المعنى الثاني : يتبع ، فمعنى "يتلوه" أي يتبعه ويلحق به ، والشاهد والدليل ، والمراد هنا دليل الوحي ، "منه" أي من جنس دليل الفطرة في سكون النَّفس إليه ، إذ كلاهما يشهد بصدق محمد في البلاغ عن الله ! والمعنى : لما اطمأن قلبه بدليل الفطرة راح يتبعه بما يزيد اطمئنانه من خلال أدلة الوحي وشواهد التي هي شواهد فطرية لا تكلف فيها ولا تعسف ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآزْتَابِ الْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ . العنكبوت ٤٨ . ٤٩﴾ ؛ فلما أتى بشاهد من القرآن راح يبحث عن شاهد من التوراة "ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمة" ... ومعنى "ومن قبله" أي : من قبل القرآن ... فالضمير عائد على مفهوم وليس على مذكور ؛ وهذا يشتهه على كثيرين ، كما أنّ الضمائر مذكورة : "ومن قبله ... ويتلوه شاهد منه" مع أنّ المذكور الذي يعود عليه

الضمير مؤنث : "على بيّنة" ... فراعى معنى اللفظ فيها وهو الدليل ، وأعاد الضمائر على المعنى لا على اللفظ ... وهذا اشتباه آخر! ... ثم يأتي الاشتباه الثالث في "يتلوه" في تنازع معنييه ... ثم يأتي الاشتباه الرابع في "وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً" ... أي ومن قبل شاهد القرآن شهادة التوراة بذلك . وإن كتموا آياتها ؛ فاللصّ يترك أثرًا . . . إمامًا ورحمة ... فهو إمام ... من الكتب السماوية ... وإذا كان الإمام رحمة ؛ فكيف لا يقتدي به من جعله الله رحمة للعالمين؟ ... ولئن ضاقت صدور قوم بهذه الحقيقة فحسبك يا محمد إيمان المهاجرين والأنصار وعبد الله بن سلام^(٧٦) .

وعلى هذا فقله : ﴿يتلوه﴾ من التلّو لا من التلاوة ، والضمير فيه راجع إلى ﴿من﴾ أو إلى ﴿بيّنة﴾ باعتبار أنه نور أو دليل ، ومآل الوجهين واحد فإن الشاهد الذي يلي صاحب البيّنة يلي بيّنته كما يلي نفسه والضمير في قوله: ﴿منه﴾ راجع إلى (من) دون قوله : (ربه) وعدم رجوعه إلى البيّنة ظاهر ومحصل المعنى : (من كان على بصيرة إلهية من أمر ولحق به من هو نفسه على صحة أمره واستقامته)^(٧٧) ، فقد (رُوي عن عليّ أنّه قال : ما من رجلٍ من قريش إلّا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان، فقال رجلٌ : أيّ شيء نزل فيك ؟ فقال

(٧٦) متشابه القرآن ٥٦ .

(٧٧) الميزان ١٠/١٤٣ .

عليّ : ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾^(٧٨) ، والمراد تشریف هذا الشاهد بأنه بعض من محمد ﷺ^(٧٩).

وتلوت الرجل أتلوه تُلُوًّا : تَبِعْتَهُ ، ومنه تلاوة القرآن تلاوةً إذا قرأته ، كأنك اتَّبَعْتَ قراءته آية في إثر آية ، فأنا له تالٍ^(٨٠) ، وقد تكون المتابعة على سبيل الاقتداء أو المرتبة ، أمّا قوله تعالى : ﴿وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا . الشمس ٢﴾ ، فعلى معنى إذا تبع الشمس وطلع بعد غروبها ، واقتبس من نورها ، وتلُو الناقة : ولدها الذي يتلوها أي يتبعها، وعن أمير المؤمنين ع : (ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه ... وضعني في حجره وأنا ولد)^(٨١) ، والفصيل ولد الناقة ، (أراد أن يقول للناس إنه الإنسان الذي عاش مع الرسول ص منذ أوحى الله إليه ... وإنّ عليكم أن تدرسوا الشخصيات التي تقتدون بها وتمنحونها الشرعية ، لأنّ هناك فرقاً بين الإنسان الذي عاش عقل الرسول ص وقلبه وعاطفته وأخلاقه ، وكان معه في الليل والنهار قبل أن يبعثه الله بالرسالة وبعدها ، وكان من خواصه أنه لم يسجد لصنم قط ، ولهذا قيل عنه : كرم الله وجهه ... وإن كانت لا تمنعه من الإخلاص للإسلام ، إلا أنّها تمنعه من أن يكون ممثلاً للإسلام بكله في صفاته ... كان من نعمة الله على عليّ بن أبي طالب وما صنع الله له وأراد به ... أنّ قریشاً أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ص للعباس عمّه ... إنّ

(٧٨) الجامع لأحكام القرآن ٩ / ١٦ ، والدر المنثور ٣ / ٣٢٤ .

(٧٩) التفسير الكبير ١٧ / ٢٠٠ ، وروح المعاني ١٢ / ٢٥ .

(٨٠) معجم مقاييس اللغة ٣٥١/١ .

(٨١) نهج البلاغة الخطبة: ١٩٢ ، ١٩٦ / ٢ - ١٩٧ .

أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ... فأخذ رسول الله ص علياً وضمه إليه ... فلم يزل علي بن أبي طالب مع رسول الله حتى بعثه الله نبياً، فاتبه علي فآمن به وصدقته(٨٢) .

فأمير المؤمنين (يتلوه ويتبعه) ، وهو الذي قال : (قد علمتم موضعي من رسول الله ص بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا ولدٌ يضمني إلى صدره ، ويكفني في فراشه، ويمسني جسده ، ويشمني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمني ، وما وجد لي كذبة في قول ، ولا خطلة في فعلٍ ، ولقد قرن الله به ، صلى الله عليه وآله ... ولقد كنت أتبعه اتِّباعَ الفصيل إثر أمه ، يرفع لي في كلِّ يوم من أخلاقه علماً ، ويأمرني الاقتداء به ، ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء ، فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخديجة ، وأنا ثالثهما ، أرى نور الوحي والرَّسالة ، وأشمُّ ريح النبوة ...) (٨٣) .

لكنَّ بعض رواة التراث لم يُسَلِّموا لتعيين هذا الشاهد الذي صرَّح بنفسه في ذكره سبب نزول الآية، فاضطر هذا البعض إلى تشتيت النسبة إلى الإمام ، حتى أنَّ بعضهم نفى هذه النسبة منسوبة إلى الإمام نفسه ، وادَّعوا أنَّ المراد بالشاهد :

(٨٢) السيرة ابن هشام ١/١٦٢ ، وبيِّنات ، السيّد محمد حسين فضل الله ٢٠٠٣ .

(٨٣) نهج البلاغة ٢/١٨٢ .

١ . أنه جبريل ، يُنسب إلى ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وآخرين؛ وقال بعض المفسرين : إن المقصود بالشاهد هو جبرئيل، أمين وحي الله.

٢ . أنه لسان رسول الله الذي كان يتلو القرآن ، قاله علي بن أبي طالب ، والحسن، وقتادة في آخرين ، ومنهم من قال: إنَّ معناه لسان النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم في حالة فهم معنى (يتلو) من التلاوة أي القراءة، لا بمعنى التلو الذي معناه مجيء شخص بعد آخر.

٣ . أنه علي بن أبي طالب . و (يتلوه) بمعنى يتبعه ، رواه جماعة عن علي بن أبي طالب ، وبه قال محمد بن علي الباقر وزيد بن علي ، والكثير من كبار المفسرين فسروا (شاهد) بالإمام علي ع ، ففي روايات كثيرة وصلتنا عن الأئمة المعصومين، وفي بعض كتب تفسير أهل السنة . أيضًا . هناك تأكيد على أنَّ المقصود من "الشاهد" في الآية هو الإمام علي أول من آمن بالنبي والقرآن الكريم، وكان معه في جميع المراحل ولم يقصر لحظة في التضحية دونه وحمايته إلى آخر نفس ، وفي حديث منقول عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: ﴿ما من رجل من قريش إلا وقد أنزل فيه آية أو آيتان من كتاب الله، فقال له رجل من القوم: وماذا أنزل فيك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أما تقرأ الآية التي في هود ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ محمد صلى الله عليه وآله وسلم على بينة من ربه وكنت أنا الشاهد﴾ .

٤ . أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو شاهد من الله عز وجل يُنسب إلى الحسين بن علي .

٥ . أنه ملك يحفظه ويسدده ، عن مجاهد .

٦ . أنه الإنجيل يتلو القرآن بالتصديق ، وإن كان قد أنزل قبله ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم بشرت به التوراة ، قاله الفراء ، فالكتب السماوية سبقت نبوته وأشارت إلى صفاته إشارة دقيقة ، وأتباع هذه الكتب السماوية في عصر النبي كانوا يعرفونه حقاً ، ولهذا السبب كانوا ينتظرونه .

٧ . أنه القرآن ونظمه وإعجازه ، قاله الحسين بن الفضل . فالقرآن الكريم بيّنة ودليل واضح .

٨ . أنه صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخايله ، لأن كل عاقل نظر إليه علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٩ . أتباعه وأنصاره المؤمنون المضحون الذين كانوا يبيّنون دعوته ويتحدثون عنه ، لأن واحداً من علائم حقانية مذهب ما هو إخلاص اتباعه وتضحيتهم ودرابتهم وإيمانهم وعقلهم ، إذ إنّ كلّ مذهب يُعرف بأتباعه وأنصاره ، فطلاب الحقّ والباحثين عن الحقيقة ، يدعوهم إلى الإيمان دعوة ضمنية فيقول : ﴿أولئك يؤمنون به﴾ أي النبي الذي لديه هذه الدلائل الواضحة^(٨٤).

ثالثاً : الشهادة البيّنة لحفظ القرآن والنبوة

إنّ مصدر رسالات التوحيد واحد ، وشهادة بعضها لبعض مؤكّدة ، وقد وثّقها النصّ الكريم :

(٨٤) مصباح الهداية ٦٨ - ٦٩ .

١ . في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . آل عمران ٨١﴾ ، أي أخذ الله الميثاق والعهد من موسى أن يؤمن بعيسى ، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ص ، أو أخذ الميثاق من النبيين أن يؤمنوا بمحمد ص إذا أدركوه وأن يأمرؤا أقوامهم باتباعه ، وعن أمير المؤمنين ع : (لم يبعث الله نبياً ، آدم فمن بعده ، إلا عليه العهد في محمد ص ، لئن بُعثَ وهو حيٌّ ليمُنَّ به ولينصرنَّه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، ثم تلا "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ" الآية) ﴿٨٥﴾ . الآية قرّرت حقيقة من الحقائق ، وهي الشهادة لأخذ المواثيق والعهود من الأنبياء وأتباعهم ، ودعوة كلّ نبيٍّ سابق إلى نبيٍّ لاحق ، للانقياد لله تعالى وطاعته ، وبهذا تقطع أعذار المعاندين ، وتبطل ادعاءات أهل الكتاب الذين ينكرون نبوة الخاتم ، ويُرَاد بهذا العهد المشدّد أو الميثاق أن يبشّر النبيّ السابق بالنبيّ اللاحق ، والشهادة لصدق دعوته الإيمان بنبوته ، لأنه لا ينطق عن الهوى ، لاتصاله بالحيّ القيوم ، المعبود الواحد . والميثاق هو الجعل والإلزام ثم القبول بالإيمان بالله وتوحيده ونصرة نبيّه ، وقدّم ميثاق النبيين أوّلاً لأنه هو الأصل في كلّ ميثاق ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا . الأحزاب ٧﴾ ، أخذنا ميثاقهم

بتقوى الله وبنبذ طاعة الكافرين والمنافقين ، وبتأباع ما أوحى الله به ، فشان الرسل واحد ، وإن سنة الله فيهم متحدة^(٨٦) .

٢ . قال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . آل عمران ٨٦ ﴾ ، نزلت في اليهود لأنهم كانوا يبشرون بالنبى ص ويستفتحون على الذين كفروا ؛ فلما بعث عاندوا وكفروا ، فيجازون بلعن الله وملاتكته والناس ، وكيف : استفهام ومعناه الاستبعاد والجد والإنكار ، أي لا يهديهم الله ، فهم آمنوا بمحمد قبل مبعثه ، وتراجعوا بعد ظهور دعوته ، وشهادتهم مشاهدتهم آيات النبوة ودلائلها الواضحة ، أقرّوا صورياً ثم تراجعوا ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ لِمَا تَعْمَلُونَ . آل عمران ٩٩ ﴾ ، الخطاب لليهود الذين يصدّون ، ويمنعون من اتّباع النبي ص ، ويكتمون الشهادة بخلاف لما يجدونه من صفاته في كتبهم .

٣ . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الزخرف ٨٦ ﴾ ، شهد بالحق ، شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ، أمّا الذين يدعون من دون الله ، فلا يملكون شفاعته تشفع لهم .

٤ . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِضُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوْنَ اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ . المائدة ٤٤ ﴾ . بما استودعوا وحفظوا من كتاب الله ليظهره ويعملوا به ،

(٨٦) التحرير والتنوير ٢١ / ١٩٩ ، ومواهب الرحمن ١١٩ - ١٢٠ .

وكانوا عليه شهداء ، لكنهم خانوا الأمانة ولم يحفظوها ، وتعمدوا تضييعها ، وتولّى
الباري عز وجل حفظه .

أخبر الله عز وجل ما يكتُم أهل الكتاب في أنفسهم ، ويظهرون غيره ، وفيه إخبار
معجز من الغيب ، فهم يشهدون إعجاز القرآن لكنهم ينكرونه بألسنتهم ، في قوله
تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . آل عمران ٧٠﴾ ،
الاستفهام إنكاري ، والنداء للتوبيخ ، لأنهم يلبسون الحقّ بالباطل ويدخلون الخرافات
والأكاذيب والتأويلات الباطلة ، ويكتمون الحقّ ولا يشهدون به^(٨٧) ؛ إذ ينكرون نبوة
محمد ص ، وهم يشهدون شهادة حضورية وبالمحسوس ، من العلامات والدلالات ،
لما يطابق ما عندهم ، من التوراة والإنجيل ، والكفر بآيات الله غير الكفر بالله
تعالى^(٨٨) .

٥ . قال تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . الحجر ٩﴾ ، أطلق الذّكر
وأطلق الحفظ فالقرآن محفوظ بحفظ الله عن كلّ زيادة ونقيصة أو تغيير ، مصون
بصيانة الإهيّة ، وفي الروايات الواردة عن أمير المؤمنين وسائر الأئمة من ذريّته
في أنّ ما بأيدي الناس قرآن نازل من عند الله سبحانه ، ومن هذا الباب قولهم
لشيعتهم : إقرؤوا كما يقرأ الناس ، فلو كان القرآن الدائر بين الناس مخالفاً لما ألفه
عليّ ع في شيء فإنّما يخالفه في ترتيب السور أو في ترتيب بعض الآيات ، التي
لا يؤثّر اختلال ترتيبها في مدلولها شيئاً ، ولا في الأوصاف التي وصف الله سبحانه

(٨٧) التحرير والتنوير ١٢٦/٣ .

(٨٨) الميزان ٢٢٢/٣ .

بها القرآن النازل من عنده ما يختلّ به آثارها ، فمجموع الروايات على اختلاف أصنافها يدل دلالة قاطعة على أنّ الذي بين أيدينا هو القرآن النازل على النبي ص (٨٩) .

٦ . أمّا شهادة الأمة وشهادة الرسول ص ففي مثل قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ . البقرة ١٤٣ ﴾ ، الشهادة هنا التحمّل في الدنيا ، وفي مقام الأداء في الآخرة ، وهذا يستلزم إحاطة الشاهد إحاطة معنويّة من الله ، وهي درجة تختصّ بالبعض أو في الأقلّ من أمّة محمد ص ، وفي سياق عرض قصة إبراهيم ع ، ويظهر الاختصاص في قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً ... البقرة ١٢٨ ﴾ ، فالآية المباركة لا تشمل جميع الأمة ، بل الأمة المتّبعة لشريعة الرسول ص ، وليس كلّ من ينتحل ؛ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . الحج ٧٨ ﴾ . فالأنبياء شهداء على أممهم والنبيّ شاهد على أمته ، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا . النساء ٤١ . ٤٢ ﴾ ، فالنبيّ الشهيد على الشهداء ، وعلى (الشاهد منه) مثلما سنعرض إن شاء الله .

والشهداء هم الرُّسل ، فعن عبد الله ابن مسعود ﴿قال : قلتُ : أقرأُ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إنِّي أحبُّ أن أسمعهُ من غيري ، قال فقرأتُ عليه حتى إذا انتهيت إلى قوله "فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا" ، فرفعت رأسي فإذا عيناه تهملان﴾ حديث صحيح^(٩٠) ؛ ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . الزمر ٦٩﴾ .

أما شهادة عرض جبرائيل القرآن على رسول الله ص ، فعن عائشة ، قالت : أقبلت فاطمة تمشي ، كأنَّ مشيتها مشية رسول الله ص فقال : مرحبًا بابنتي ، ثمَّ أجلسها عن يمينه ، أو عن شماله ، ثمَّ إنَّه أسرَّ إليها حديثًا فبكت ، فقلتُ لها : استخصك رسول الله ص ، بحديث ثم تبكين ؟ ثمَّ إنَّه أسرَّ إليها حديثًا فضحكت ، فقلتُ : ما رأيتُ كالיום فرحًا أقرب من حزن ، فسألتهَا عما قال ؟ فقالت : ما كنتُ لأفشي سرَّ رسول الله ص ، حتَّى إذا قبضَ النبي ص ، سألتها ، فقالت إنَّه أسرَّ إليَّ ، فقال : إنَّ جبريلَ ع كان يُعارضني بالقرآن في كلِّ عامٍ مرَّةً ، وإنَّه عارضني به العام مرتين ، ولا أراه إلاَّ قد حضر أجلي ...) حديث صحيح رجاله ثقات^(٩١) ، حديث تثبیت القرآن بين جبرائيل والنبي ص ، الذي يمنع من التغيير والتعدّد .

٧ . إنَّ النبيَّ الكريم جمع القرآن قبل وفاته ، ولم يتركه حتى يجمعه أصحابه ، قال أبو القاسم البلخي المعتزلي : (وإنِّي لأعجب من أن يقبل المؤمنون قول من زعم أنَّ رسول الله ص ترك القرآن الذي هو حجته على أمته ، والذي تقوم به دعوته ، والفرائض التي جاء بها من عند ربِّه ، وبه يصحَّ دينه الذي بعثه الله داعيًا إليه ،

(٩٠) المحرر الوجيز ٥٥/٢ ، والتحرير والتنوير ١٣١/٤ .

(٩١) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ٣١١ .

مفترقا في قطع الخرق ، ولم يجمعه ولم يصنعه ، ولم يحفظه ، ولم يحكم الأمر في قراءته ، وما يجوز من الاختلاف فيها ، وما لا يجوز ، وفي إعرابه وفي مقداره ، وتأليف سوره وآيه ، هذا لا يتوهم على رجل من عامّة المسلمين ، فكيف برسول ربّ العالمين) (٩٢) ، وفي هذا إنكار البلخي ادّعاء الزيادة والنقصان .

لقد أوضحت الآيات أنّ النبي الأكرم شاهد على أعمال أمّته وما يصدر منهم ؛ فلقد وصفت بعض الآيات الرسول الأكرم ص بأنّه شاهد ومبشر ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا... الأحراب ٤٥ ، الفتح ٨﴾ ؛ المقصود بالشاهد هنا هو الشهادة على أعمال العباد ، الشهادة لهم أو عليهم يوم القيامة (٩٣) .

رابعًا : اختلاف المفسرين في البيّنة والشاهد منه

ربما كان ابن عطية الأندلسي أفضل من جمع ما عرّض من الاختلاف في توجيه دلالة (الشاهد منه) ، في قوله : (اختلف المتأولون في المراد بقوله "أفمن" ، فقالت فرقة : المراد بذلك المؤمنون بمحمد ص ، وقالت فرقة : المراد محمد ص خاصّة؛ وقال عليّ بن أبي طالب والحسن وقتادة ومجاهد والضّحّاك وابن عباس : المراد بذلك محمد ص والمؤمنون جميعًا ؛ وكذلك اختلف في المراد بـ"البيّنة" ، فقالت فرقة: المراد بذلك القرآن ... وقالت فرقة : المراد بذلك محمد ص ... وكذلك اختلف في المراد بـ "الشاهد" فقال ابن عباس وإبراهيم النخعي ومجاهد والضّحّاك وأبو صالح وعكرمة : هو جبريل ؛ وقال الحسين بن عليّ : هو محمد ص ، وقال

(٩٢) سعد السعود ٤٦٥ - ٤٦٦ .

(٩٣) مجمع البيان ٨ / ٤٧٠ .

مجاهد أيضًا هو ملك وكنه الله بحفظ القرآن ... وقال علي بن أبي طالب والحسن وقتادة : هو لسان النبي ص ، وقالت فرقة : هو علي بن أبي طالب رض ، ورؤي ذلك عنه ، وقالت فرقة : هو الإنجيل ، وقالت فرقة : هو القرآن ، وقالت فرقة : هو إعجاز القرآن ... (٩٤).

فيعرض ابن عطية الروايات على النحو الآتي :

ب يُقصدُ
(أفمن) :

١ . المؤمنون بمحمد ص .

٢ . محمد ص نفسه .

٣ . المؤمنون ومحمد ص .

و(البينة) ١ . القرآن .

٢ . محمد ص .

والشاهد ١ . جبريل .

٢ . محمد ص .

٣ . ملك وكنه بحفظ القرآن .

(٩٤) المحرر الوجيز ٣ / ١٥٧ .

٤ . جبريل .

٥ . لسان النبيّ ص .

٦ . عليّ بن أبي طالب .

٧ . الإنجيل .

٨ . القرآن .

ونفيدُ من هذا أنّ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كان من بين الشهود في كتب غير الشيعة ، هذا هو الأمر الأوّل ، والأمر الثاني التوكيل بحفظ القرآن المنسوب للملك ، هو في الجانب العمليّ لأمير المؤمنين مثلما سنعرض ، والأمر الثالث رواية لسان النبيّ ص ، الذي نُسبَ إلى محمد بن عليّ أي ابن الحنفية ، إذ يجدُ البهبهاني أنّ ابن الحنفية أجلُّ شأنًا (من أن يصدر منه مثله ، ولعله عبّر عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بلسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما وقع ذلك في خبر حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس ، قال : (أفمن كان على بينة من ربه ﴿رسول الله﴾ و(يتلوه شاهد منه) هو علي بن أبي طالب عليه السلام ، كان والله لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فوهم الراوي ولم يفهم مراده ؛ وأما تفسيره بالنبي فمع تفسير الموصول بالمؤمنين من أصحابه قد ظهر لك فساده)^(٩٥).

وحاول ابن عطية الأندلسي نفسه البحث في توجيه هذا الاختلاف ، في قوله : (وإذا جعلنا "أفمن" للنبيّ ص، كانت "البينة" القرآن ، وترتّب "الشاهد" لسان محمد

(٩٥) مصباح الهداية ٧٤ .

ص ، وترتّب الإنجيل ، وترتّب جبريل والملك ، وترتّب عليّ بن أبي طالب رض عنه ، وترتّب الإعجاز . ويتأوّل "ويتلوه" بحسب "الشاهد" ... ولكن هذا القول يضعفه قوله "أولئك" ؛ فإنّا إذا جعلنا قوله : "أفمن" للنبيّ ص وحده لم نجد في الآية مذكورين يُشار إليهم بذلك ... والأصحّ في الآية أن يكون قوله : "أفمن" للمؤمنين ، أو للمؤمنين والنبيّ معهم بأن لا يترتّب "الشاهد" بعد ذلك يراد به النبيّ إذا قدرناه داخلاً في قوله : "أفمن" ... (٩٦) .

وربما اقترب في توجيهه الأوّل مما يوافق ما عرضناه من أنّ (مَن) للنبيّ ص ، و﴿البينة﴾ القرآن، والشاهد الإمام ، لكنّه اضطرب فيما بعد .

ويصل ابن السّمين الحلبيّ إلى اضطراب هذه الروايات : ﴿وقيل : الضّمير في "يتلوه" للقرآن ، وفي "منه" لـ "محمد" ع ، وقيل : لجبريل ، والتقدير: ويتلو القرآن شاهد من محمد وهو لسانه أو من جبريل ، والهاء في "قبله" أيضاً للقرآن ، فالضمائر الثلاثة للقرآن ... ووراء ذلك أقوال مضطربة غالبها ...﴾ (٩٧) .

وكان للبههاني رأيّ في تأويل اللسان . آلة التلاوة . لكننا سنعود لعرض الردود على هذا الاضطراب في المباحث اللاحقة إن شاء الله .

(٩٦) المحرّر الوجيز ٣/ ١٥٧ - ١٥٨ .

(٩٧) الدرّ المصون ٤/ ٨٦ .

خامسًا : شهادة موسى وأتباعه

الشاهد في قوله تعالى : ﴿شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ ، يُنسب في بعض الروايات إلى موسى ع ، أنه هو الشاهد الذي شهد على مثله ، أي على مثل القرآن وهو التوراة ، وإيمانه هو تصديقه بأمر محمد ص وتبشيره بكتابه الشاهد عليه(٩٨) .

أما من أتباع موسى ع فهم الذين وجدهم النبي ص في المدينة المنورة ، وقد عانى من هذا الوجود ، ولم يُسلم منهم إلا ما ندر ، وكانت روايات معظم المسلمين قد اعتنت بإسلام عبد الله بن سلام (ت ٤٣ هـ)(٩٩) ، أكثر من غيره ، وكأته وحده الذي أسلم من اليهود ، فقيل : إنه كان من علماء اليهود وأحبارهم ، حتى أنهم نسبوا سبب نزول الكثير من آيات القرآن الكريم له ، ومنها الآية ١٤٦ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ، والآية ٢٠٨ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ من سورة البقرة ، والآية ٧٥ ﴿وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعِقْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ ، والآية ١١٣ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ...﴾ من سورة آل عمران ، والآية ١٣٦ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ...﴾ من سورة النساء ، والآية ٥٦ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا...﴾ من سورة المائدة ، والآية ٤٠ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ

(٩٨) التحرير والتنوير ١١ / ٢٢٥ .

(٩٩) سير إعلام النبلاء ٢ / ٤٢٤ .

لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿﴾ من سورة يونس ، والآية ١٩٧ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ من سورة الشعراء ، وغيرها ، هذا فضلاً عما قيل من أنّ عبد الله بن سلام هو الذي أنزل الله فيه قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الأحقاف ١٠﴾ ، وهو نفسه كان يقول : نزلت فيّ هذه الآية ، فيكون الضمير في آمن يعود عليه ؛ وينسبون أيضاً نزول قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ . الرعد ٤٣﴾ ، أنه هو من "مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ" (١٠٠) ؛ وادّعى ابن عبد الله بن سلام أنّ أباه هو الذي يقول الله فيه : ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ الآية (١٠١) ، وكان من نتائج اعتنائهم أن نُسبت بعض فضائل أمير المؤمنين له ، وربما تقديمه عليه .

وربما كان وراء هذا الاعتناء ما اتخذته ابن سلام من مواقف سياسيّة بعد رحيل النبي ص ، لكن لا يجد الباحثُ ذكراً له قبل السنة الثامنة من الهجرة النبويّة الشريفة، أي قبل وفاة النبي ص بسنتين ، أمّا بعد ذلك فيذكرُ أنّه (جاء عبد الله بن سلام بعد أن صلّى الناس على عُمرَ ، فقال : إن كنتم سبقتموني بالصلاة عليه فلا تسبقوني بالثناء عليه ، ثم قال : نعم أخو الإسلام كنت يا عُمرُ! جواداً بالحقّ بخيلاً بالباطل ، ترضى حين الرضا ، وتسخط حين السخط ، لم تكن مدّاحاً ولا

(١٠٠) جامع البيان في تفسير القرآن ٧/٢٦ ، والدر المنثور ٤ / ٦٩ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ٣ / ١٣٧٨ .

(١٠١) الميزان ١١ / ٣١٨ .

مِعْيَابًا ، طَيِّبَ الطَّرْفِ ، عَفِيفَ الطَّرْفِ) (١٠٢) ؛ وَيُرْوَى أَنَّ ابْنَ سَلَامٍ نَفَسَهُ كَانُ مِنَ
أَنْصَارِ عَثْمَانَ وَمُؤَيِّدِيهِ ، فَلَمَّا (لَقِيَ الَّذِينَ أَرَادُوا قَتْلَ عَثْمَانَ رَضَ فَنَاشَدَهُمْ بِاللَّهِ
فِيْمَنْ تَعْلَمُونَ نَزَلَ : قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ؟ قَالُوا
فِيكَ) (١٠٣) ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ وَعَيَّرُوهُ بِأَصْلِهِ الْيَهُودِيِّ ، فَهَذَا هُوَ مَوْقِفُهُ مِنَ
الْخَلِيفَتَيْنِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يَبَايِعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي النَّفَرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ
لَمْ يُبَايِعُوهُ ، وَقِيلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع (أَلَا تَتَّبِعُونَ إِلَى حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَكَعْبِ بْنِ
مَالِكٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ! فَقَالَ : لَا حَاجَةَ لَنَا فِيْمَنْ لَا حَاجَةَ لَهُ فِيْنَا) (١٠٤) ؛
وَكَانَ ابْنُ سَلَامٍ قَدْ اعْتَزَلَ أَيَّامَ عَصِيَانَ مَعَاوِيَةَ وَتَمَرَّدَهُ عَلَى الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَجَلَسَ فِي بَيْتِهِ .

أَمَّا مَخِيرِيقُ فَكَانَ صَنُوهُ فِي الْيَهُودِيَّةِ ، الَّذِي لَهُ السَّبْقُ فِي الدَّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، فَ
(لَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، نَزَلَ بِقَبَاءِ أَوَّلِ الْأَمْرِ قَبْلَ دُخُولِهِ
الْمَدِينَةَ ، يَنْتَظِرُ قُدُومَ ابْنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ع بِالْفَوَاطِمِ مِنَ مَكَّةَ ، فَأَتَى
إِلَيْهِ مَخِيرِيقٌ وَأَسْلَمَ ، وَحَسَّنَ إِسْلَامَهُ ؛ وَكَانَ مَخِيرِيقٌ قَدْ نَصَحَ قَوْمَهُ بِاتِّبَاعِ رَسُولِ
اللَّهِ وَتَصَدِيقِهِ ، وَأَعْلَمَهُمْ بِأَنَّهُ نَبِيُّ آخِرِ الزَّمَانِ الَّذِي كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ ، وَأَنَّهُ الَّذِي
بَشَّرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ع وَالْكَتَبُ السَّمَاوِيَّةُ ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ ، وَمَوْصُوفًا فِيهِمَا . قَالَ الْمَجْلِسِيُّ : فَقَالَ مَخِيرِيقٌ لِقَوْمِهِ : إِنَّهُ النَّبِيُّ
الْمَبْعُوثُ ! فَهَلَمُوا نُؤْمِنُ بِهِ ، وَنَكُونُ قَدْ أَدْرَكْنَا الْكُتَابِينَ . أَيِ التَّوْرَةِ وَالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ .

(١٠٢) شرح نهج البلاغة ١٢ / ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(١٠٣) الدر المنثور ٤ / ٦٩ .

(١٠٤) شرح نهج البلاغة ٥ / ٢٤٧ .

فلم يجبه قينقاع إلى ذلك وقال أيضًا : نقل الذهبي عن الواقدي أنه قال : كان مخيريق حبرًا عالمًا من بني النضير، آمن بالنبي ، ولذا عدّه الذهبي من الصحابة(١٠٥) .

وأجمع المؤرّخون أنّ مخيريق اليهودي أسلم عام الهجرة على يدي رسول الله ، وحسّن إسلامه ، وكان أوّل من آمن من اليهود ، وهو أحد الحبرين اليهوديين اللذين أسلما على يدي رسول الله في المدينة المنورة ، أثر المناظرات التي أقامها رسول الله ص مع علماء اليهود وأحبارهم ، وحينها حدثت اليقظة بين بعض علماء اليهود، فكان ممّن أسلم : عبد الله بن سلام ، علماء اليهود وأحبارهم ، أسلم بعد سلسلة من المناظرات والمجادلات المطوّلة مع رسول الله ص وكان قد سبقه عالم آخر من اليهود وحبر من أحبارهم ، وهو مخيريق الذي كان من أيسرهم و أثراهم ؛ وكان مخيريق يعلم بغضب اليهود عليه إذا علموا بإسلامه ، فطلب من النبي أن يكتّم عن الناس إسلامه ريثما يحصل على اعتراف من قومه بتقواه وصلاحه وسيادته ، قال : يا رسول الله إنّ اليهود قوم بهت . أي يرمون الناس بالبهتان . وإنّي أحبُّ أن تدخلني في بعض بيوتك ، وتغيّيني عنهم ، ثمّ تسألهم عني إذا أحضرتهم حتّى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنّهم إن علموا به بهتوني ، فأدخله رسول الله بعض بيوته ، وأخفاه عن الأنظار، ثمّ قال لليهود الداخلين عليه : أي رجل المخيريق فيكم؟! قالوا : سيّدنا وابن سيّدنا وحبرنا وعالمنا ، فخرج عليهم مخيريق من مخبئه وقال لهم : يا معشر اليهود اتّقوا الله وأقبلوا ما جاءكم به ، فوالله

(١٠٥) فدك والعوالي ١ / ٥٩ .

إنكم لتعلمون أنه رسول الله ص تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته ،
وإنني أشهد الله أنه رسول الله وأؤمن به وأصدقّه وأعرفه ، فغضب اليهود من مقالته،
وقالوا له : كذبت ، ووقعوا فيه ، وعابوه ، وبهتوه^(١٠٦) ، ومثل هذه الرواية تنسب
إلى عبد الله بن سلام . قال ابن هشام في مخيريق : (كان حبرًا عالمًا ، وكان رجلا
غنيًا كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته،
وما يجد في علمه ، وغلب عليه إلف دينه ، فلم يزل على ذلك ، حتى إذا كان يوم
أحد ، وكان يوم أحد يوم السبت ، قال : يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن
نصر محمد عليكم لحق . قالوا : إن اليوم يوم السبت ؛ قال : لا سبت لكم . ثم
أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وعهد إليه من
وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم ، فأموالي لمحمد صلى الله عليه وسلم يصنع
فيها ما أراه الله . فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ؛ فكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم . فيما بلغني . يقول : مخيريق خير يهود . وقبض رسول الله صلى الله عليه
وسلم أمواله ، فعامة صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها . وقال
ابن إسحاق : عن مخيريق : وكان ممن قتل يوم أحد ، قال : يا معشر يهود ، والله
لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق ، قالوا : إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت
لكم ، فأخذ سيفه وعدته ، وقال : إذا أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء ، ثم

(١٠٦) فدك والعوالي / ١ / ٥٨ .

غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ . فيما بلغنا . مخيريق خير يهود(١٠٧) .

وجاء في أنساب الأشراف للبلاذري : (كان مخيريق حبراً عالمًا فقال يوم أحد: والله إنكم لتعلمون أنّ محمدًا نبي وأنّ نصره حق عليكم ؛ فقالوا : إنّ اليوم يوم سبت ، فقال : لا سبت ، وأخذ سلاحه وقاتل مع رسول الله ص فقتل ؛ وكان حين خرج للقتال ، قال : إن أصبت فأموالي لمحمد يضعها حيث أراه الله فجعلها رسول الله ص صدقة ، وكان مخيريق من بني قينقاع ، ويُقال من بني النضير ، ويقال من الفطيون)(١٠٨) .

وفي السيرة النبوية عند أهل البيت (كان الحاخام مخيريق رح أغنى اليهود ، وقد وفقه الله للإسلام فقصّد النبي ص عند وصوله إلى قباء وأسلم على يده ، ودعا قومه إلى الإسلام وأن ينصروه في أحد فأبوا ، فذهب إلى أحد بعد أن أوصى للنبي ص بكل أمواله وكانت بساتين كبيرة وقاتل واستشهد في أحد رض) (١٠٩) .

لكن ربما ادّعي على مخيريق أنه قُتل في معركة أحد ولم يُسلم ، ذلك الادّعاء الذي ربما أريد منه الغضّ من مكانته لمصلحة الصنو الآخر عبد الله بن سلام ، لكنّه كان الرجل الذي جاد بنفسه وماله ومكانته ، فمخيريق (يهوديّ يحفظ التوراة ، وطالما ناقش أعمامه في صدق رسالة محمد ص ، وأنّه النبيّ المذكور في التوراة،

(١٠٧) السيرة النبويّة ٢ / ٨٩، والروض الأنف ٦ / ١٢، والأوقاف النبوية ١٢ - ١٣ .

(١٠٨) ١ / ٣٢٥ .

(١٠٩) ١ / ١٤٦ .

ويوم أحد جاء مخيريق إلى أعمامه وقومه ، وقال لهم : تعلمون والله أنّ محمداً هذا هو الرسول المذكور في التوراة ، والذي يلزمكم اتّباعه ، فقالوا : يا مخيريق على رسلك ، إنّ بيننا وبين الرجل عهداً فننتظره حتى تضعفه الحرب فنحسن من شروطنا ، فقال مخيريق : إذا الأمر عناد ومكابرة ، فأشهدكم أنّي أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ؛ ثمّ نادى نفرًا من الأنصار ، وكتب وصيّته ، بجميع ماله لرسول الله ص ... ثم ذهب مخيريق إلى المعركة وقاتل حتى قُتِل شهيداً ، ولم يُصلِّ ولم يصم فدخل الجنّة أيضًا(١١٠) .

لذلك يجدُّ الباحثُ في هذا المضمار توجهين مختلفين في علماء بني إسرائيل من المعاصرين للنبي ص، لكنّ السيّد سامي البدريّ من المعاصرين يقدم مخيريق اليهودي على عبد الله بن سلام وهو عنده ممن شرح الله صدره للتصديق بالنبي ص ، مثلما سنعرض تفصيل ذلك في المباحث اللاحقة .

الخلاصة

أُتِيعَتْ عبارة (على بيّنة) بالشهادة منه في خطاب النبيّ ص في سورة هود ، في حين لم تذكر الشهادة في خطاب الأنبياء : نوح وصالح وشعيب ع مثلما عرضنا ، فعلى لسانهم قال تعالى بالعبارة نفسها : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي . . . هود الآيات : ٢٨ ، ٦٣ ، ٨٨﴾ .

(١١٠) الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين ١٩٦ - ١٩٧ .

ففي خطاب النبي ص ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ . هود ١٧ ﴿ ، في حين كان خطاب الأنبياء بضمير المتكلم ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ ، أي أن : (مَنْ كَانَ) للنبي ص : بمقابل ﴿إِنْ كُنْتُ﴾ للأنبياء ع . لاختلاف حال المخاطبين ، ﴿مَنْ كَانَ﴾ على سبيل الفرض والحوار ، في حين (إِنْ كُنْتُ) لأمر كان قد انتهى .

أما التعزيز بشاهد منه ، أي يتبعه أو يتلوه ، فتجلب النظر والتأمل ، مع أن كل الآيات التي حوت عبارة : (عَلَىٰ بَيِّنَةٍ) في سورة هود في خطاب الأنبياء أتبعته إمّا بـ(وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ) مع نوح ع ، أو (وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً) مع صالح ع ، أو (وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا) مع شعيب ع ، والرحمة كانت حالاً مع ما جاء في قوله تعالى : (... كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً) في سورة هود مع النبي .

والعبرة لأتباع النبي مما جاء على لسان الأنبياء ، في قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ . هود ٢٨ ﴿ ، إذ الإلزام على كره في قصة نوح ع ، أو ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَأَتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ . هود ٦٣ ﴿ ، وبتهديد بالعذاب في قصة صالح ع ، أو ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ . هود ٨٨ ﴿ ، وقبلها ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا﴾ . هود ٨٧ ﴿ ، أو بالنصيحة والإصلاح والحكم لله في قصة شعيب .

فهل يمكن أن نعدَّ بيّنات الأنبياء كبيّنة النبيّ في ترجيح أن يكون الإمام رحمة نفروا منها؟! بترجيح أنّها عمّيت عليهم ، ولم يلزموها ، وكانوا لها كارهين ، أو بالتهديد بالعذاب في رفضها ... إلخ .

لكن يمكن الموازنة أو الربط بين دلالة :

قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ هود ١٧﴾ ، كتاب موسى شاهد على صدق محمد ص ، ولم يذكر أهل ذلك الكتاب وهم اليهود ، لأنّهم لم يكونوا على بيّنة كاملة من ربّهم من جهة عدم تصديقهم بعيسى ع ؛ وهذا قريب من معنى الآية في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الأحقاف ١٠﴾ ، فالذين يؤمنون به هم الذين كانوا على بيّنة من ربّهم (١١١) .

فشاهد منه : من النبيّ على القرآن ، بمقابل شاهدٍ من بني إسرائيل على مثله ، هذا الشاهد هو مخيريق وعبد الله بن سلام ، شاهد على مثله ، (فأمن هو واستكبرتم أنتم أستم في ضلال ؟ فإنّ الله لا يهدي القوم الظالمين ؛ والذي شهد على مثله فأمن على ما في بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود ...) (١١٢)؛

(١١١) التحرير والتنوير ١١ / ٢٢٦ .

(١١٢) الميزان ١٨ / ١٦٠ .

لكنّ السيّد البدريّ كغيره من العلماء يرى بأنّ السورة مكيّة فشهادة ابن سلام غير معقولة ، فهذا الشاهد من بني إسرائيل قد آمن بنبيّ الإسلام ص ، فيبحث السيّد البدريّ عن الذي آمن من بني إسرائيل الذي آمن في الوقت الذي استكبر فيه المشركون ولم يؤمنوا ؛ لأنّ ظاهر الجملة يوحي بأنّ هذا الشاهد كان موجودًا في عصر نبيّ الإسلام وآمن به ، في حين اختار الآخرون من المخاطبين طريق الاستكبار والكفر . ويتحقق السيّد البدريّ من أن الشاهد في الآية هو موسى وإنّ الذي آمن بالنبي عند بعثته هو من علماء بني إسرائيل الذين أدركوا النبي ، وكان من أبرزهم مخيريقي ؛ الذي استشهد مدافعًا عن النبيّ في معركة أحد ، وسنعود لتفصيل هذا الأمر في المباحث اللاحقة .

الفصل الثالث : عود ضمير (الشاهد منه)

الضمير لغةً : ما تضمه في قلبك ، و(ضم: الضاد والميم والراء أصلان صحيحان : أحدهما يدلُّ على دِقَّة في الشيء ، والآخر يدلُّ على غيبة وتستر) (١١٣)، فالضمير: هو السِرّ، وداخل خاطر، والجمع ضمائر، وأضمه أخفاه ، والضمّار: هو المال الغائب الذي لا يُرجى ، وكلّ شيء غاب عنك فهو ضمّار، وأضمرت الشيء إذا غيّبته ، وضمير: على وزن (فعليل) بمعنى مفعول ، من أضمرت الشيء في نفسي إن أخفيته بحيث يصعب الوقوف عليه ، وأخفيته : سترته ، فهو مضمّر كالحكيم بمعنى المحكم ، وأضمرت في ضميري شيئاً غيّبته في قلبي وصدري (١١٤).

والضمير عند النحاة : اسم يفتقر إلى اسم يفسره ، وهو علامة على اسم معروف متروك إظهاره اختصاراً أو بياناً ، والضمير واسطة بين العلامة والاسم الظاهر، بمعنى أنّ العلامة ، باعتبار صورتها الصوتية ، توصل الفعل إلى الضمير المطابق لاسم ظاهر، فالمضمّر: (ما وضع لمتكلم ، أو مخاطب ، أو غائب تقدّم ذكره لفظاً أو معنى أو حكماً) (١١٥) ، فالضمير: أداة من الأدوات الرابطة لأجزاء النّصّ ، يقوم مقام اللفظ الظاهر، فيُعني عن تكراره ، ويصل الجملَ بعضها ببعض ، ويحيل ما هو لاحق على ما هو سابق فيربط آخر الكلام بأوله .

(١١٣) معجم مقاييس اللغة ٣/ ٣٧١ .

(١١٤) المصدر نفسه ٣/ ٣٧١ ، وتاج العروس ١٢/ ٤٠١ - ٤٠٥ .

(١١٥) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب ٣/ ١٣٧ .

أولاً : دلالة الضمير

دلالة الضمائر وأثرها في ربط أجزاء النصّ والتفكير في مراجعها جعل اللغويين يضعونها من ضمن الأحداث أو المكونات التي ينتظم بعضها مع بعض تبعاً للمباني النحوية ، ويجعلونها مع الألفاظ الكنائية : أسماء الإشارة والأسماء الموصولة ، والأدوات والروابط كالتعريف [أل الدالة على العهد الذكري أو الذهني... أو غيرها] ، أو الإعادة لفظاً أو معنًى (١١٦) .

و(ضمير المتكلم والمخاطب يفسرهما المشاهدة ، وأمّا ضمير الغائب فعارٍ عن المشاهدة ، فاحتيج إلى ما يفسره ، وأصل المفسر الذي يعود عليه أن يكون مقدّمًا، ليعلم المعنى بالضمير عند ذكره بعد مفسره ، وأن يكون الأقرب ، نحو: لقيت زيدًا وعمراً يضحك، فضمير يضحك عائد على عمرو ، ولا يعود على زيد إلا بدليل ، لكن في قوله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ . العنكبوت ٢٧﴾ ، فضمير "ذريته" عائد على "إبراهيم" وهو غير الأقرب ، لأنه المحدث عنه من أول القصة إلى آخرها ... وقد يُستغنى عنه [العائد] بما يدلّ عليه حسًا ، نحو : ﴿قَالَ هِيَ رَأودَتِّي عَنْ نَفْسِي . يوسف ٢٦﴾ ، و﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ . القصص ٢٦﴾ ، إذ لم يتقدّم التصريح بلفظ : "زليخا" و"يوسف" ، لكونهما كانا حاضرين ، أو

(١١٦) مقالات في اللغة والأدب ٢٤٦/١ .

علمًا نحو: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ . القدر ٢ ، أي القرآن أو جزئه ، أو كليهما (١١٧) .

وصاحب ضمير الغائب غير معروف ، لأنه غير حاضر ، فيجوز إلى مرجع يرفع الالتباس ، (ولو كُرِّرَ لفظ المذكور مكان ضمير الغائب فربما تُوهَمَ أنه غير الأول) (١١٨) .

وللتمييز بين الضمير وغيره ، يقول الرضي : (اعلم أنّ المقصود من وضع المضمرات رفع الالتباس ، فإنّ "أنا" و"أنت" لا يصلحان إلاّ للمعنيين ، وكذا ضمير الغائب نصّ في أنّ المراد هو المذكور بعينه ، في نحو : جاءني زيد وإياه ضربت ، وفي المتّصل يحصل مع رفع الالتباس الاختصار) (١١٩) ، وليس كذا في الأسماء الظاهرة ، فإنّه لو سمّي المتكلم والمخاطب بعلميهما فربما التبس ، ولو كُرِّرَ لفظ المذكور مكان ضمير الغائب فربما تُوهَمَ أنه غير الأول) (١٢٠) .

وضمير الغائب الذي يخصنا . في هذا البحث . أكثر الضمائر غموضًا والتباسًا وأحوجها إلى مرجع يفسّر المراد بها ، ولهذا كُثرت الروايات والاحتمالات ، فكان بهذا الضمير في بعض المواضع حاجة إلى مراجعة وإدانة نظر وتأمل . وضمير

(١١٧) همع الهوامع ١/٢٢٧ - ٢٢٨ .

(١١٨) شرح الرضي على كافية ابن الحاجب ٣/١٣٨ .

(١١٩) المصدر نفسه ٣/١٣٨ .

(١٢٠) المصدر نفسه ٣/١٣٨ .

الغائب الذي نبحث فيما يخصنا منه، صيغته مبنية على حرف الهاء ، ويتميز الغائب من المتكلم والمخاطب ، أن الغائب يُفسره ما تقدم ذكره ، في حين حضور المتكلم والمخاطب هو الذي يميزهما(١٢١) .

فللغياب الضمير (هـ) ؛ لكن هذه الهاء تلحق الاسم أو الفعل أو الحرف ، للدلالة على : الغائب ، أو الغائبة، أو الغائبين ، أو الغائبتين ، أو الغائبات، مثل : منه ، ومنها ، ومنهم ، ومنهما ، ومنهن ، فتتبع الاسم أو الفعل أو الحرف في الضمائر المتصلة .

أما الإحالة بضمير الغائب إلى غير مذكور سابق ، فيستند إلى الموقف الاتصالي، والقدرة الخطابية الإقناعية المؤثرة ، المستندة إلى قوة السبك ، فنعرض على سبيل المثال الخطاب في بعض آيات سورة الحاقة (الآيات ٣٨ . ٥٢) ، ولنرصد ما تعرضه هذه السورة من ضمائر في قوله تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ [الضمير عائد على الله جلّ وعلا] بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ إِنَّهُ [أي القرآن] لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ [أي جبريل أو النبي ص] وَمَا هُوَ [أي القرآن الكريم] بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ [أي محمد ص] عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ [لأخذنا بيمينه ص] بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ [لقطعنا وتينه ص] الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ [أي المخاطبون] مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ وَإِنَّهُ [أي القرآن الكريم] لَتَذَكُّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ [أي المخاطبون] مُكْذِبِينَ وَإِنَّهُ [أي القرآن] لَحَسْرَةٌ

(١٢١) مرجع الضمير في القرآن الكريم ٩ .

عَلَى الْكَافِرِينَ وَإِنَّهُ [أَي الْقُرْآن] لَحَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ [أَيُّهَا النَّبِيُّ] بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ؛
فالقسم بما يشاهدونه وما غاب عنهم^(١٢٢) . والواضح من الإحالة فيما تقدم على
غير المذكور سابق ، ضمن خطاب تنتظمه وحدة بنيوية خاصة ، ونظام فكري
ولغويّ رصين ، يمتاز بالترابط والانسجام والتناسق ، خطاب متدفق يشدُّ بعضه
بعضاً ، ويسوِّدُهُ تفاعلٌ متبادلٌ ، بين اللغة وأدواتها ، والموقف ومن يتلقَّى
الخطاب^(١٢٣) .

فبضمير الغائب في هذا النَّصِّ حاجة إلى النظر خارج النَّصِّ القرآنيّ ، ليتبين ما
يعود عليه ، فضلاً عن معرفة المقام والسِّيَاق وسبب النزول ، وقد تكرر في هذا
النَّصِّ ضمير الغائب :

للدلالة على القرآن في نصنا هذا ب : إِنَّهُ أُرْبَعُ مَرَّاتٍ ، هُوَ : مَرَّةً وَاحِدَةً ..

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ ..

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ..

وَإِنَّهُ لَتَذْكَرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ..

(١٢٢) الميزان ١٩ / ٣٥٦ - ٣٥٧ ، ونحو النَّصِّ بين الأصالة والحدائثة ١٠٦ .

(١٢٣) النَّصِّ والخطاب والإجراء مقدّمة د . تمام المترجم ٣٤ ، وجماليّات الخطاب في النَّصِّ القرآنيّ ٩٥ .

وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ..

وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ..

وللدلالة على النبيّ : مِنْهُ : مرتين ..

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ..

فالضمائر ضَمَّتِ الكلمات بعضها إلى بعض ، واتسقت المعاني ، وتبيّنت نيابة هذه الضمائر عما تفنقر إليه من مراجع ، واتضحت بتلازمها مع ما تدور بمداره، واستقام الكلام بالترابط المفهومي المناسب والمطابق لما يُرادُ منه ، وتكرار الضمير بهذا العدد المقصود في نصّ قصيرٍ جدًّا يحيل على أهميّة ما يعود عليه ، ليجعل (أجزاء الكلام بعضها آخذًا بأعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المُحكّم المتلائم الأجزاء ... ومن محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض لئلا يكون منقطعًا ... ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر مُتَّحدٍ مرتبطٍ أوّله بآخره) (١٢٤) .

وهذه هي سمات الخطاب القرآني التبليغيّ المرسل من الله عز وجل ، إلى المرسل إليهم جميع الناس ، وإلى حامل الخطاب الرسول الكريم ص ، ببنية لغوية دقيقة ،

(١٢٤) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٦ - ٣٧ .

ونظم منسجم ، اخترق حدود الزمان والمكان والبيئة^(١٢٥) ، وليس محصورًا في دعوة المخاطبين وحدهم إلى الإيمان ، بل يمتدُّ مع امتداد الزمن .

وهذا ما يُهيئُ للتفكير فيما يخصنا من الضمائر المتصلة في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . هود ١٧ ﴾ ، فمن ضمن ما اختلفوا في عود ضمائره : (يتلوه : فعل مضارع وضمير غائب) ، و (منه : حرف جرٍّ وضمير غائب) ، و (قبله : اسم وضمير غائب) ، فقليل كلها تعود إلى القرآن أو النبيِّ أو غيرهما .

وقد (قيل : الضمير في " يتلوه" للقرآن ، و"منه" لـ"محمد ع" ، وقيل لجبريل ، والتقدير: ويتلو القرآن شاهد من محمد وهو لسانه أو من جبريل ، والهاء في "قبله" أيضًا للقرآن .. ووراء ذلك أقوال مضطربة ... والهاء في "به" يجوز أن تعود على "كتاب موسى" وهو أقرب مذكور، وقيل بالقرآن ، وقيل بمحمد ...)^(١٢٦) . ويتيح هذا الاضطراب التفكير الواسع في توجيه دلالة هذا الضمير الذي سنعرضه لاحقًا إن شاء الله .

أمَّا عود الضمير (عليه) ، في قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . سورة ص ٨٦ ﴾ ، فيعود على (على القرآن ، وهو مفهوم من خطاب الباري تعالى للنبيِّ ص بقوله (قُلْ) ... ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا

(١٢٥) جمالية الخطاب في النص القرآني ٢٤٠ .

(١٢٦) الدر المصون ٤ / ٨٦ .

عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . الشعراء ١٠٩ ﴿﴾ ، (عليه) يعود على التبليغ ، وليس مذكورًا في الكلام ... مفهوم من السياق ...) (١٢٧) .

ومثل ما تقدّم الاختلاف في عود الضمير ، من قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . الشورى ٢٣﴾ ، فهاء (عليه) تعود على تبليغ الرسالة واستجابة الدعوة ، لكنهم يختلفون في المقصودين من (المَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ، أهما عامّة قريش في (مودتهم للنبي ص لقربته) ، لكنهم كانوا يكذبونه ويبغضونه لتعرّضه لألّهم ، وهم كفّار ومشركون ، فكيف يطلب المودّة منهم ، فالمودّة لاستجابة الدعوة ، فالمعنى لا يُقاربُ هذا التوجيه ، فضلاً عن أنّ نزول الآية قي المدينة لا مكّة ، وكذلك توجيه الخطاب للأنصار أو مودّة الناس بعضهم لبعض ، وكلّ هذا من التشنيت والابتعاد عن المراد بالمودّة في القربى ، قال الزمخشري : ﴿إِنهَا لَمَّا نَزَلَتْ ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : مَنْ قَرَابَتِكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَجِبَتْ عَلَيْنَا مَوَدَّتَهُمْ ؟ قَالَ : عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا ...﴾ (١٢٨) ، ﴿وقيل : المراد بالحسنة مودّة قربي النبي ص ، ويؤيّدّه ما في روايات أئمة أهل البيت ع أنّ قوله : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ، إلى تمام أربع آيات نزلت في مودّة قربي النبي ص ، ولازم ذلك كون الآيات مدنيّة ، وأنها ذات سياق واحد ...﴾ (١٢٩) .

(١٢٧) مرجع الضمير في القرآن الكريم ١٥ ، ١٩ .

(١٢٨) تفسير الكشاف ٩٧٧ .

(١٢٩) الميزان ١٨ / ٣٩ - ٤٠ .

فهل عودُ هذه الضمائرِ محصورٌ في زمانِ المخاطبينِ وبيئتهِ ومكانهمِ؟!؟

ألا يمكنُ أن يمتدَّ إلى المُستقبلِ بالعبرةِ مثلما امتدَّ بالنصِّ إلى الماضيِ (كتابِ موسى)؟!؟

وحين نقابل (شَاهِدٌ مِنْهُ) في سورةِ هودِ بـ : (لَأَخَذْنَا مِنْهُ) .. (لَقَطَعْنَا مِنْهُ) في سورةِ الحاقَّةِ نجدُ المدارَ هو النبيِ ص .

وسنعود لاحقاً لعرضِ تفصيلِ دلالةِ ما يَخَصُّنا (شَاهِدٌ مِنْهُ) في المباحثِ اللاحقةِ إن شاء الله .

ثانياً : مشكلةِ عودِ ضميرِ الغائبِ

الإضمارُ يضمنُ استمراريَّةَ النصِّ ونموّه ، ووسيلةَ اختصارِ الكلامِ ، والعودُ على أقربِ مذكورٍ هو الأصلُ في اللغةِ ، إذا تعدَّدَ المرجعُ ليزول الإبهامُ ، قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ . الْإِنْعَامِ ١١٢﴾ ، يعودُ الضميرُ في (بعضهم) على أقربِ مذكورٍ وهو ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ ؛ وقوله تعالى : ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ . الْاِنْعَامِ ١٤١﴾ ، الضميرُ في ﴿أَكُلَهُ﴾ يعودُ على الزرعِ لأنه أقربُ مذكورٍ (١٣٠) .

(١٣٠) البحر المحيط ١٣٦/٤ ، مرجع الضمير في القرآن الكريم ٢٨ .

لكنّ المفسرين اختلفوا في عود ضمير الغائب في القرآن الكريم ، لأسباب كثيرة منها : التزام بعضهم بعود الضمير بحسب القاعدة اللغوية العامة إلى أقرب مذكور مثلما عرضنا ، أو ربما إلى غير مذكور ، أو إلى أكثر من مذكور ، أو نظر بعضهم إلى السياق في تحديد عود الضمير ، أو الترجيح بحسب الأحاديث أو السيرة النبوية ، أو مرجحات أخرى .

وأهميّة هذا الخلاف أنّه يدخل في اختلاف معاني علوم القرآن ، تغايرًا أو تضادًا ، استنادًا إلى وجوه احتمال النّصّ وتعدّد معاني الكلمات ، أو بحسب موقع هذه الضمائر من الجمل ، ما يؤدي إلى اختلاف المفسرين ، وتفاوت آرائهم بشأنها . فالعودُ في مثل قال تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ . الأفعال ٢١ ﴾ ، اختلفوا في عود ضمير الغائب [عنه] ، على الأبعد وهو الأمر بالطاعة ، أو على الله ، والأقرب أن يعود على الرسول لأنّ طاعته من طاعة الله^(١٣١) ، و(الضمير يعود على ما يفيد السياق راجع إلى الرسول ص و[كذلك] المعنى) (١٣٢) .

وقد يعود الضمير على أكثر من مذكور ، فلا مانع من حمله على الجميع ، إلا أن يوجد دليل يمنع من ذلك، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ . الانشقاق ٦ ﴾ ، فملاقيه ، فملاقٍ ربك ، وقيل فملاقٍ

(١٣١) الدرّ المصون ٤١٠/٣ .

(١٣٢) الميزان ٣٢ / ٩ .

عملك ، فالضمير إمّا للربِّ وإمّا للكح ، أي ملاقٍ جزاء كدحك^(١٣٣) ، والمعنيان صحيحان ، لأنَّ العبد ملاقٍ ربِّه وعمله .

وقد يعود على المعطوف أو المعطوف عليه ، في مثل قوله تعالى : ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ . النقرة ٤٥﴾ ، الهاء في (إنَّها) تعود على الصَّلَاة ، وإنَّما قال : وإنَّها ، ولم يُقَلْ : وإنَّهما ، وإن تقدّم ذكر الصبر لأنَّ العرب ربّما تذكر اسمين وتُكْنِي عن أحدهما ، فالضمير يعود على مثني (الصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)^(١٣٤) ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا . الجمعة ١١﴾ ، كَتَى عن أحدهما (تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا) دون الآخر للعلم بأنَّه داخل في حكمه^(١٣٥) ، أو ضمير الغائب من (إليها) يعود على التجارة وهي الأبعد ، والدليل المطابقة بين الضمير ومرجعه^(١٣٦) ، ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا . النساء ١١٢﴾ ، لم يُقَلْ : بها ، أو بهما ، لأنَّ معنى قوله : ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ، ومن يكسب أحد هذين الشئيين ثم يرمي به ، لأنَّ (أو) لأحد الشئيين^(١٣٧) .

وقد يعود الضمير على ملفوظ أو مفهوم ، ومنه العود على أحد اللفظين ، في مثل قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . التوبة ٣٤﴾ ،

(١٣٣) الدر المصون ٤٩٨/٦ .

(١٣٤) البيان في غريب إعراب القرآن ٧٩ / ١ .

(١٣٥) المصدر نفسه ٤٣٩/٢ .

(١٣٦) مرجع الضمير في القرآن الكريم ٢٩ .

(١٣٧) البيان في غريب إعراب القرآن ٢٦٧/١ .

(يُنْفِقُونَهَا) الضمير للمفرد المؤنث ولم يقل ينفقونها ، للذهاب إلى المعنى دون اللفظ ، بتقدير ولا ينفقونه أي الكنز ، أو المكنوزات من الذهب والفضة ، على معنى العطف لمجرد القرن بين اللّظين ، أو ما يسمّى عطف التفسير (١٣٨) .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا . الحرات ٩﴾ ، باعتبار المعنى لا اللفظ ، لأنّ طائفة ذات جمع ، والطائفة الجماعة (١٣٩) ، اقتتلوا : عائد على أفراد الطائفتين ، كقوله : ﴿هَذَا خِطْمَانِ اخْتَصَمُوا . الحج ١٩﴾ ، وبعائد الضمير في هذه الآية حاجة إلى تفسير المقصود ، وتوضيح العموم ، ومعرفة سبب النزول ، (عن أبي ذر : أنه كان يُسَمُّ أَنَّ هذه الآية "هَذَا خِطْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ" نزلت في حمزة وصاحبيه عليّ بن أبي طالب وعتبة بن الحارث الذين بارزوا يوم بدر شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ؛ وفي صحيح البخاري عن عليّ بن أبي طالب قال : أنا أوّل من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة ، قال قيس بن عباد : وفيهم نزلت "هَذَا خِطْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ" قال : هم الذين بارزوا يوم بدر ... والأظهر أنّ أبا ذر عنى بنزول الآية في هؤلاء أنّ أولئك النّفر الستّة هم أبرز مثال وأشهر فرد في هذا العموم ، فعبر بالنزول وهو يريد أنّهم ممّن يُقصدُ من معنى الآية) (١٤٠) ، (لما كان كلّ خصم فريقيًا يجمع طائفة قال

(١٣٨) التحرير والتنوير ٧٧/١٠ .

(١٣٩) التحرير والتنوير ١٩٩/٢٦ .

(١٤٠) المصدر نفسه ١٧ / ١٦٥ - ١٦٦ .

اختصموا بصيغة الجمع ... إنما جُمِعَ حملاً على المعنى لأنَّ كلَّ خَصْمٍ تحته أشخاصٍ (...)(١٤١).

وقد (يعود الضمير على غير مذكور ، ونجد في التركيب كلمة أو أكثر تدلّ على المرجع ... وقد يتقدّم الضمير على ما يعود عليه ، في مثل قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا إِنِّي هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . الأنعام ٢٩﴾ ، هي : ضمير مبهم تقدم على ما يعود عليه ، وما بعده المتأخر يفسّره ، أو (هي) كناية عن الحياة ، على شدة تعلقهم بالدنيا ، واهتمامهم بإنكار البعث ، وإنّ ذلك يرجع إلى إنكارهم لما وراء الحسّ ، أو لركونهم لدار ما في الدنيا وملاذّها وافتنانهم بها ، فاستولت على مشاعرهم فاقتصروا على ما في الدنيا ، أو الضمير المنفصل (هي) يرجع إلى هذه الحياة الدنيا ، ولا بأس بالرجوع إلى المتأخّر لفظاً ومعنى ، أي ما الحياة إلا الحياة الدنيا فلا حياة بعدها(١٤٢) عندهم .

وللذمّ قوله تعالى : ﴿إِنَّهٗ عَدُوٌّ لِّكُمْ . البقرة ١٦٨﴾ ، يعني الشيطان ، ﴿إِنَّهٗ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ... الأعراف ٢٧﴾ ، وهذا كثير من باب التحقير ، فإنّه لا يرى إلا نفسه من غير أن يشعر أنّ وراءه من يأمر بالشرّ ويهديه للشقوة(١٤٣) .

(١٤١) الدر المصون ١٣٤/٥ .

(١٤٢) مواهب الرحمن ١٣ / ١٨٨ .

(١٤٣) الميزان ٨ / ٥٩ .

ومنه قوله تعالى : ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ . النحل ٦١ ، عليها : يرجع إلى غير
مذكور وهو الأرض ، لأنّ قوله : (مِنْ دَابَّةٍ) يدل عليه ، لأنّ المعلوم أنّ الدواب
إنما تدب على الأرض، ونظيره قوله تعالى : ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ . فاطر
٤٥ ﴿الضمير في (عليها) عائد على الأرض وإن لم يجر لها ذكر (١٤٤)﴾ .

ومن عود الضمير على كتاب الله الذي تكرر كثيراً في القرآن الكريم ، قوله تعالى :
﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ . المائدة ١٦ ، وقوله : ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ
يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ . الزمر ٢٣ ، الضمير (به) يعود على كتاب
الله ، أو على الرسول ص ، أو على الإسلام (١٤٥) . ومثله قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ هُدَى
اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . الأنعام
٨٨ ، الإشارة ب(ذلك) إشارة بالبعيد لبيان علو هذه الهداية وسموها فإنها حق
الهدى، وقد تشرّفت بكونها من الله تعالى ، و(به) بالقرآن الكريم الذي نزل لإثبات
التوحيد وتثبيت العبوديّة المحضة لله تعالى ، وتشخيص العبد الصالح المطيع عن
غيره ، فلا كرامة لأحدٍ عليه عزٌّ اسمه إلا بالتوحيد الخالص من الشرك (١٤٦) .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ . البقرة ٩٧ ، فالهاء من (إنه) تعود على
جبرائيل، و(نزّله) يُرادُ بها القرآن، وإنّما جاز ذلك وإن لم يجر له ذكرٌ لدلالة الحال

(١٤٤) المحرّر الوجيز ٤٠٢/٣ .

(١٤٥) البحر المحيط ١٤٤٨/٣ .

(١٤٦) مواهب الرحمن ١٢٥/١٤ .

عليه ، لأنه قد عُلم أنه يعنيه كقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ﴾ . الدخان ٣ ،
فالهاء يُراد بها القرآن وإن لم يجر له نكراً (١٤٧) .

ومنه قوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَبْتَنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينٍ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ . هود ٥ ، لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ : فقبل من رسول الله ص ،
وقيل ليستخفوا من الله تعالى (١٤٨) .

وما بين القرآن وما أنزل إلى النبي ص متلازمة تفضي إلى قبول أكثر من مرجح،
من دون منافاة أو تقديم مرجح على آخر ، كقوله تعالى : ﴿وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ
﴾ . البقرة ٤١ ، ولا تكونوا أول كافر بمحمد أو بالقرآن وكلا القولين صحيح لأنهما
متلازمان ، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ص ، ومن كفر به من بني إسرائيل ،
فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم يستلزم أنهم أول من كفر
به أي بالقرآن عائداً على (ما أنزلت) لأنه ذكر في مقابل الإيمان به ، أو على ما
معكم من التوراة ، فإن كذبوا بذلك فقد كفروا بصحة ما في التوراة (١٤٩) ؛ ولأن هذه
الدعوة تشتمل على ما عندهم من هدى وتوحيد وأمر بالفضائل واجتناب الرذائل
 وإقامة العدل والمواعظ والقصاص ، وهو المذكور عندهم ، والمتوقع أن يكونوا أول
من يؤمن به ، فنهاهم من (أن يكونوا أول كافر بالقرآن يصدق بمعانٍ بعضها

(١٤٧) البيان في غريب إعراب القرآن ١/١١١ .

(١٤٨) المحرر الوجيز ٣/١٥١ ، الدر المصون ٤/٧٩ .

(١٤٩) التحرير والتنوير ١/٤٤٧ .

يستفاد من حقّ التركيب ، وبعضها من لوازمه ، وبعضها من مستتبعاته ، وكلها تحتملها الآية ... فالنهي عن الكفر بالقرآن ... والمقصود من النهي توبيخهم على تأخّرهم في اتباع دعوة الإسلام فيكون الكلام كناية اجتمع فيها الملزوم واللازم معاً... وهذا كلّه على جعل الضمير المجرور بالباء في قوله : "كافر به" عائداً على ما "أنزلت به" أي القرآن وهو الظاهر لأنه ذكر في مقابل الإيمان به ؛ وقيل: عائد على ما معكم وهو التوراة ... ولا يخفى أنّ هذا التوجّه تكلف (...)^(١) ؛ (أول كافر به) الهاء في (به) تعود على (ما أنزلت) ، وهو الظاهر ، وقيل : على (ما معكم) ، وقيل : على الرسول عليه السلام ، لأنّ التنزيل يستدعي مُنَزَّلًا إليه ، وقيل: على النعمة ذهاباً بها إلى معنى الإحسان)^(١٥٠) ؛ يقول : (وَلَا تَكُونُوا أَوْلَ كَافِرٍ بِهِ) : كافر بمحمد ص ، أو عود الضمير على القرآن ، وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان ، لأنّ من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ص ، ومن كفر بمحمد ص فقد كفر بالقرآن ، فعوّذ الضمير في مثل هذا من مثل ما نحن فيه من عود الضمير في موضوعنا (القرآن الكريم والشاهد منه) مثلما سنعرض إن شاء الله .

ونلاحظ مقابلة الكفران بالهداية ، بالتكرار بالفعل المضارع (يَهْدِي بِهِ) متبوع بحرف جر اتصل به ضمير الغائب بالعدد نفسه : الجار والمجرور اتصل بضمير الغائب العائد على القرآن أو النبي ص :

١ . ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ . البقرة ٢٦ ﴿ .

(١٥٠) الدرّ المصون ١ / ٢٠٦ .

٢ . ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ . المائدة ١٥﴾ ، (به) يعود على كتاب الله أو على الرسول أو الإسلام (١٥١) .

٣ . ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . الأنعام ٨٨﴾ . وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ . الأنعام ٩٢﴾ ، (به) يعود على الكتاب ، أو على رسول الله ، أي يؤمنون بالقرآن ويصدقون بحقيقته (١٥٢) .

٤ . ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . الزمر ٢٣﴾ .

٥ . ﴿نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . الشورى ٥٢﴾ .

وأتبع الفعل المضارع الدال على الكفر بالجار والمجرور متبوعين بضمير الغائب:

١ . ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ . البقرة ٩٩﴾ .

٢ . ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . البقرة ١٢١﴾ الضمير يعود على النبي وقيل: يعود على الله تعالى ، وقيل على الهدى (١٥٣) .

٣ . ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْدُوا مَعَهُمْ . النساء ١٤٠﴾ .

(١٥١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٧٢/٨ ، مواهب الرحمن ١١ / ١٠١ .

(١٥٢) المحرر الوجيز ٢ / ٣٢٢ .

(١٥٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٧٢/٨ .

٤ . ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ . الأنعام ٨٩ ﴿ .

٥ . ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ . هود ١٧ ﴿ .

والآية الأخيرة هي من ضمن مواضع بحثنا ، إذ إنَّ التهديد لمن يكفر بالقرآن .

وبصيغة اسم الفاعل (كافر به) ، في قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ... وَلَا تَكُونُوا
أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْنُرُوا بِآيَاتِي تَمَنَّا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ . البقرة ٤١ ﴿ ، نهاهم أن يكونوا
أول كافر به بعد أن بشرهم بزمان ظهوره واستفتحوا على الذين كفروا به (١٥٤) ،
والمقصود من النهي التوبيخ على التأخير في اتباعهم دعوة الإسلام ، ولأنَّ ذلك
(أشدُّ خزيًا ومنقصة) عليهم لأنهم أعرف بحقيقة هذا الدين بعد أن كان الإيمان
بالنبي ص مذكورًا في التوراة (١٥٥) ، وضمير الغائب من (به) يعود على التنزيل أو
المُنزل عليه لأنَّ التنزيل يستدعي منزلًا إليه . وصلاحيّة ضمير الغائب لأنَّ يعود
على أشياء سبقته ، فالضمير من (به) للقرآن ، أو لما معكم ، أو لمحمد ص ، أو
للنعمة التي بمعنى الإحسان ، لأنه الأقرب ، والمنطوق به (١٥٦) .

(١٥٤) تفسير الكشاف ٧٣ .

(١٥٥) مواهب الرحمن ٢٨٤/١ .

(١٥٦) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٧٢/٨ ، والتحرير والتنوير ٤٤٧/١ .

ثالثاً : عود الضمير على القرآن أو النبي

منعت قواعد النحاة عود الضمير على غير موجود ، أو على متأخر لفظاً ورتبة ، لكن لا تَطَّرِدُ هذه القاعدة في القرآن الكريم ، إذ نجد على سبيل المثال :

١ . العود على غير موجود في قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ . يونس ٣٨ ، هود ١٣ ، ٣٥ ، السجدة ٣ ، الأحقاف ٨﴾ ، إذ تكرر خمس مرّات في القرآن الكريم ، فالواو من (يقولون) ضمير جماعة المشركين من أهل مكّة ولم يذكرها ، وفاعل افتري راجع إلى النبي ص ولم يذكر ، والمفعول (الهاء) يعود على القرآن ولم يذكر العائد أيضاً ، فالمعنى قل للذين يقولون معاندين : إنّ محمّداً افتري القرآن . حاشاه . إن كنتم صادقين .

٢ . العود على متأخر لفظاً قوله تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ . البقرة ١٢٤﴾ ، قدّم المفعول على الفاعل ، واتصل بالفاعل ضمير المفعول ، وهذا التقديم يخالف ما قرره النحاة ، فقد قدّم مضمون ابتلاء إبراهيم ع ، وهو المراد من الآية الشريفة ، ولإضافة الرب إلى إبراهيم تشریف له ، وكذلك للإيجاز ، إذ إنّ الجملة الأصل خارج القرآن الكريم ، ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٥٧) . ومثله قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ . طه ٦٧﴾ ، فعود الضمير على متأخر لفظاً ، ومثلهما قوله تعالى : ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ . القصص ٧٨﴾ .

(١٥٧) التحرير والتنوير ٦٨٤/١ .

٣ . وضع المضممر موضع المظهر لاشتهاره ووضوح أمره، كقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . الْقَدْرِ ١﴾ ، أي القرآن ، أو لأنه بلغ من عظم شأنه صار متعلق الأذهان : نحو قوله تعالى : ﴿هُوَ الْحَيُّ الْبَاقِي . فَاطِر ١٤﴾ .

٤ . دلالة السياق على الاسم الذي رجع عليه الضمير ، في مثل قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُومَ . الْوَاقِعَةَ ٨٣﴾ ، فقد أضمرت (الروح) لدلالة الحلقوم عليها ، ومثله قوله تعالى : ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . سُورَةَ ص ٣٢﴾ ، أي الشمس لدلالة الحجاب . ﴿وَلَا بُوَيْهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ . النِّسَاءُ ١١﴾ ، فالضمير يعود على الميِّت ، ولم يتقدّم له ذكر .

٥ . المطابقة بين الضمير وما يعود عليه ، في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ . التَّوْبَةُ ٦٢﴾ ، أفراد الضمير في "يرضوه" ، ولم يقل "يرضوهما" صوتاً لمقامه تعالى من أن يعدل به أحد ﴿١٥٨﴾ .

ومن هذا عود الضمير على الموصول (مَنْ) بمراعاة اللفظ وهو الأكثر، ثم يلي ذلك مراعاة المعنى ، قال تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ... وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ . يُونُسَ ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣﴾ .. ﴿منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به﴾ ، الضمير عائد على قریش ، ويستمعون : على معنى (مَنْ) الذين يستمعون لوجود الواو ضمير الجمع لا على معنى (مَنْ) المفرد ، و(من ينظر) ضمير المفرد ، ومعروف

(١٥٨) الميزان ٢٦٤/٩ - ٢٦٥ .

أَنَّ الإِسْمَاعَ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ ، وَالنَّظَرَ مِنَ الْجِهَةِ الْمَقَابِلَةِ ، أَوْ لِأَنَّهُ ابْتَدَأَ بِالْجَمْعِ فِي صَلَاةِ (مَنْ) ثُمَّ عَدَلَ إِلَى الْمَفْرَدِ ذَلِكَ لِكِرَاهَةِ إِعَادَةِ صِيغَةِ الْجَمْعِ ، لَكِنَّ الْمَخَاطِبِينَ لَا يَسْمَعُونَ سَمْعَ قَلْبٍ فَلَا يَفِيدُونَ مِنَ السَّمَاعِ ، فَهَمَّ بِمَنْزِلَةِ الصُّمِّ (١٥٩) .

وقوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . البقرة ٨١﴾ ، (بِهِ خَطِيئَتُهُ) : رُوِعِيَ لَفْظُ (مَنْ) الْمَفْرَدِ ، وَ(هَمَّ فِيهَا) : رُوِعِيَ الْمَعْنَى ، أَوْ لِأَنَّ (مَنْ) صِيغَ الْعَمُومِ .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ . الأنبياء ٨٢﴾ ، ﴿يَغُوصُونَ﴾ حَمَلًا عَلَى الْمَعْنَى ، وَسَوَّغَ ذَلِكَ تَقَدَّمَ الْجَمْعُ قَبْلَهُ ، وَ(مَنْ) نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ .

وقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . الشمس ٩﴾ ، الضمير يعود على (مَنْ) ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ضَمِيرَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَفِي الْحَدِيثِ مَا يَشْهَدُ لِمَعْنَى (نَفْسٍ) مِنْ مَرَاعَاةِ التَّأْنِيثِ ، كَانَ صَ إِذَا قُرَأَ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ : اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي نِقْوَاهَا ، وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرٌ مِنْ زَكَّاهَا ، وَأَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا (١٦٠) .

أَمَّا عَوْدُ ضَمِيرِ (شَاهِدٌ مِنْهُ) مَوْضُوعَنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ

(١٥٩) الْمُحَرَّرُ الْوَجِيزُ ٣ / ١٢١ - ١٢٢ .

(١٦٠) دَرَسَاتُ لِأَسْلُوبِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ٢٤٨ ، وَتَفْسِيرُ الْكَشَافِ ٤ / ٢١٦ .

يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالْتَأَرُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَّةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ . هود ١٧ ﴿ ١٧ ﴾ ؛ فنذكر آراء بعض علماء اللغة والتفسير :

قال أبو زكريا الفراء : (الذي على البينة من ربه محمد ص ، ويتلوه شاهد منه ، يعني جبريل ع يتلو القرآن ، الهاء للقرآن ، وتبيان ذلك : ويتلو القرآن شاهد من الله ... وقد قيل في قوله "وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ" يعني الإنجيل يتلو القرآن ، وإن كان قد أنزل قبله . يذهب إلى أنه يتلوه بالتصديق ...) (١٦١) .

قال أبو البركات : (الهاء في "يتلوه" للقرآن ؛ والشاهد الإنجيل [كذا] ، والهاء في "منه" لله تعالى ، والهاء في "قبله" للإنجيل) (١٦٢) .

قال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَّا وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الأحقاف ١٠﴾ ، مثله أي مثل التوراة وزبر الأولين ، فيكون هذا الشاهد قد شهد على الكتب السابقة ، وأقرّ بأنّها مطابقة للقرآن وما جاء فيه من التوحيد والوعد والوعيد ، وغير ذلك ، من كون شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله وإيمانه ، ما يردّ استكبارهم عنه ، وعن الإيمان به ، أستم حينئذٍ أضلّ الناس وأظلمهم للقرآن (١٦٣) .

(١٦١) معاني القرآن للفراء ٦/٢ .

(١٦٢) البيان في غريب إعراب القرآن ٩/٢ .

(١٦٣) تفسير الكشاف ١٠١١ .

وربما نجد في تفسير القرطبي أغلب الروايات التي تخص موضوعنا ، الذي يقول: (... أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ، في أتباع النبي ص ، ومعه من الفضل ما يتبين به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟! عن علي بن الحسين والحسن بن أبي الحسن ، وكذلك قال ابن زيد : إن الذي على بينة هو من أتبع النبي محمداً ص ؛ "ويتلوه شاهد منه" من الله ، وهو النبي ص ، وقيل المراد بقوله : "أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ" النبي ص ، والكلام راجع إلى قوله : "وَصَائِقُ بِهِ صَدْرُكَ" ، أي أفمن كان معه بيان من الله ومعجزة كالقرآن ، ومعه شاهد كجبريل . على ما يأتي . وقد بشرت به الكتب السابقة يضيق صدره بالإبلاغ ، وهو يعلم أن الله لا يسلمه . والهاء في "رَبِّهِ" تعود عليه ، وقوله : "ويتلوه شاهد منه" ؛ وَرَوَى عَكْرَمَةَ عن ابن عباس أنه جبريل ، وهو قول مجاهد ، والنُّخَعِيُّ ، والهاء في "منه" لله عزَّوجل وقال مجاهد: الشاهد ملكٌ من الله عز وجل يحفظه ويسدده ، وقال الحسن البصري وقتادة : الشاهد لسان الله ص ، قال محمد بن علي بن الحنفية : قلت لأبي أنت الشاهد ؟ فقال وددت أن أكون هو ، ولكنه لسان رسول الله ص . وقيل : هو علي بن أبي طالب ، رُوِيَ عن ابن عباس أن قال : هو علي بن أبي طالب ، ورُوِيَ عن علي أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه الآية والآيتان ، فقال رجل : أي شيء نزل فيك ؟ فقال علي : "وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ" ، وقيل الشاهد صورة رسول الله ص ووجهه ومخائله ، لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى النبي ص ؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبي ص ، على قول ابن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد ، قاله الحسين بن الفضل ، فالهاء في "منه" للقرآن . وقال الفراء قال بعضهم : وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ"

الإنجيل ، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق ؛ والهاء في "منه" لله عز وجل ، وقيل : البيّنة معرفة الله التي أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذي يتلوه العقل الذي رُكِبَ في دماغه وأشرق صدره بنوره . "ومن قبله" أي من قبل الإنجيل "كِتَابُ مُوسَى" رُفِعَ بالابتداء ، قال أبو إسحاق الزجاج : والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأنَّ النبيَّ ص موصوف في كتاب موسى "يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي النَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ . الأعراف ١٥٧" (...)(١٦٤) ؛ وقد حشد القرطبي هذه الآراء .

ومن المُحدّثين عرض صاحب مرجع الضمير في القرآن الكريم ، أنّ (الضمير في "من ربّه" يعود على لفظ "من" ، والمراد بالبيّنة البرهان وهو القرآن ؛ والضمائر في "يتلوه وقبله" ، و"به" في الموضعين ، ومنه الثانية ، وإنّه تعود على "القرآن" والضمائر في "منه" الأولى يعود على "من" في "ومن يكفر") (١٦٥) .

أمّا ابن تيميّة فلا يرى أنّ أمير المؤمنين هو المقصود بضمير الغائب "منه" ، لضعف الشاهد من نفس النبيّ . والغريب فيما يذكره . أن لا يكون الشاهد صادقاً ، فيقول : (إنّ هذا الضمير عائد إلى الله تعالى ، أي : ويتلو هذا الذي على بيّنة من ربّه شاهد من الله ، والشاهد من الله كما أنّ البيّنة التي هو عليها المذكورة من الله أيضاً ؛ وأمّا قول من قال : "الشاهد" من نفس المذكور وفسّر بلسانه ، أو بعليّ بن أبي طالب ، فهذا ضعيف ؛ لأنّ كون شاهد الإنسان منه لا يقتضي أن يكون

(١٦٤) الجامع لأحكام القرآن ٦ / ١٦ - ١٧ .

(١٦٥) ٣١٧/١ .

الشاهد صادقاً ، فإنه مثل شهادة الإنسان لنفسه ، بخلاف ما إذا كان الشاهد من الله ، فإنَّ الله يكون هو الشَّاهد ؛ كما قيل في قوله : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ . الرعد ٤٣﴾ ، إنه "عليّ" فهذا ضعيف لأنَّ شهادة قريب له قد اتَّبعه على دينه ولم يهتد إلَّا به لا تكون برهانًا للصدق ولا حجة على الكفر ، بخلاف شهادة من عنده علم الكتاب الأوَّل فإنَّ هؤلاء شهادتهم برهان ورحمة ، كما قال : ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً . هود ١٧ ، والأحقاف ١٢﴾ ، "وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ . الأحقاف ١٠" ، وقال : ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ . يونس ٩٤﴾ ، وقال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنَّا هُمْ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ . الأنعام ١١٤﴾ ، وهذا الشاهد من الله هو القرآن ، ومن قال هو جبريل (...)(١٦٦) .

أمَّا اعتراض ابن تيمية على شهادة النبي ص للإمام ، استنادًا إلى قوله : (إنَّ كَوْنَ شَاهِدِ الْإِنْسَانِ مِنْهُ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدَ صَادِقًا) ، فإنه مثل شهادة الإنسان لنفسه ، فهو يساوي بين شهادته وشهادة الآخرين ، ويمكن أن يُرَدَّ بمكانة شهادته ص ، بمثل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . الأحزاب ٤٥﴾ ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . الفتح ٨﴾ ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا . المزمل ١٥﴾ ... إلخ ، فهل شهادته ص كأبي شهادة !؟

(١٦٦) التفسير الكبير لابن تيمية ٨/٥ - ٩ .

الخلاصة

الخلاف في عود ضمير الغائب يدخل في اختلاف تفسير معاني القرآن ، استنادًا إلى وجوه احتمال النصّ وتعدّد المعاني ، أو بحسب موقع هذه الضمائر من الجمل، ما يؤدي إلى اختلاف المفسرين ، وتفاوت آرائهم بشأن هذه الضمائر؛ ولاسيما ما بين القرآن المنزّل والمنزّل عليه ص ، والأمران متلازمان ، وهذا ما فتح آفاق الخلاف والترجيح بتقديم مرجح على آخر؛ لكنّ من كفر بالقرآن على سبيل المثال فقد كفر بمحمد ص ، ومن كفر بمحمد ص فقد كفر بالقرآن ، لأنّ التنزيل يستدعي مُنزلاً إليه ، فعوّذ الضمير في مثل ما نحن فيه ، يوجب النظر إلى ما حصل لهذا المنزّل ، أعني القرآن الكريم ، وإلى ما وُكِّل به الإمام من العناية ، بجمعه وتدوينه وتدارس الحاجة مع أبي الأسود الدؤلي إلى ضبطه والتفكير في قواعد لغته ، كلّ ذلك بعد تسلّمه من المبعوث ص قبل وفاته ، فكان الإمام من لوازم صيانة نصّ القرآن ، والمحافظة عليه .

وهذا التلازم يُبعّد بعض المُرجّحات ، للتلازم بين اللازم والملزوم وما يتعلّق بهما ، فالمتعلّق بالقرآن أو ما يتصلّ به ممّا رُوِيَ في كتب التفسير: جبريل الملك الذي وُكِّل بحفظه (مثلما ورد) ، أمّا المتعلّق بالنبيّ ص من هذه الروايات : فمحمّد نفسه ص ، أو لسانه أو وصيّيه عليّ بن أبي طالب ، وقيل : إنّ اللسان هو لسان الوصيّ، بقريّة أنّه نفسه ، أو المبلّغ عنه ، مثلما ذُكر في تبليغ سورة التوبة .

وربما توسعوا في الافتراضِ وحشد الآراء ، حتى أدخلوا غير اللسان من مثل صورة رسول الله ص ووجهه ومخائله ، أو القرآن في نظمه وبلاغته ، والمعاني الكثيرة منه .

لكن هل عودُ هذه الضمائرِ محصورٌ في زمان المخاطبين وبيئتهم ومكانهم؟!؟

ألا يمكن أن يمتدَّ . المحفوظ من الباري . إلى المُستقبل بمن وُكِّلوا بحفظه؟!؟

هل يحقّ للمنصف أن يقول : إنّ القرآن الذي بين أيدينا هو من جمع الإمام الذي أخذه من النبي ص ، ومن النبي الذي أخذه من ربّ العزة عن طريق جبريل؟!؟

الفصل الرابع : شهادة أهل العلم والذكر والكتاب

خَصَّ اللهُ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالشَّهَادَةِ وَالْبَيَانِ لغيرهم ، لأنهم القدوة ، وبهم الأسوة ، لا يشهدون إلا بالحق ولا يقولون غير الصدق ، لأنهم الذين يعلمون حقيقة الله سبحانه ، وقاربوا ذروة المعارف وإدراك الحقائق ، قال تعالى في شأنهم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ . فَاطِر ٢٨ ﴾ ، (وإنما خص العلماء بذلك ، وإن كان غيرهم يخشى الله سبحانه ، لأنهم أعرف به تعالى من غيرهم ، فخشيتهم له على قدر معرفتهم... لأن الشهادة لا تحسن إلا مع المعرفة بما تتضمنه ، وإلا كانت قبيحة ، إذا كان المؤدّي لها لا يؤمن ، أن يكون كاذباً فيها) ^(١٦٧) . ونلاحظ في هذا الفصل ، التناسب في تكرار (آتيناهم الكتاب) في القرآن الكريم : بالتكرار تسع مرّات ، و(أوتوا الكتاب) بصيغة المبني للمجهول : ثماني عشرة مرّة ، أي ضعف (آتيناهم الكتاب) ، و(أوتوا العلم) تسع مرّات ، و(التذكرة) : تسع مرّات أيضاً ، ولم نقصد عرض هذا التكرار بهذا العدد قصداً ، بل وقع في أيدينا هذا الانسجام العددي ، وهذا ما يدعو إلى التفكير والتفسير ؛ ولاسيما ما ورد في القرآن الكريم من تكرار العدد تسعة نفسه ، في آيات موسى ع ومعجزاته ، في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا . الإسراء ١٠١ ﴾ ؛ وقوله تعالى : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . النمل ١٢ ﴾ ؛ وآيات موسى

(١٦٧) حقائق التأويل في متشابه التنزيل ٥ / ٥٧ ، ٦٠ .

ع التسع التي أتى بها فرعون . على خلافِ بين المفسرين . هي : العصا ، واليد ، والطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدَّم ، وانفلاق البحر ، والسنون^(١٦٨).

أما (التسع) من السنين في قوله تعالى : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا . الكهف ٢٥﴾ ، فهي للفرق ما بين الحسابين الشمسي بحساب أهل الكهف ، والقمرّي بحساب العرب والمسلمين ، وهذا من علم القرآن وإعجازه العلمي الذي لم يكن لعموم العرب علم به^(١٦٩) .

وأما قوله تعالى : ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ . النمل ٤٨﴾ ، فهؤلاء التسعة هم الذين حلفوا بالله (لبيتته) يغدرونه في المبيت ، قال تعالى : ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . النمل ٤٩﴾ ؛ على أن يأتوا دار صالح ليقتلوه وأهله ، وذلك بعد عقر الناقة وقد أخبرهم بمجيء العذاب بعد ثلاثة أيام ، قالوا : إن كان كاذبًا في وعيده أوقعنا به ، وإن كان صادقًا كنا قد عجلناه قبلنا وشفينا نفوسنا ، وكان هذا مكرًا عزموا عليه ، فاندردت عليهم صخرة طبقت عليهم فهلكوا في حين هلك قومهم لاحقًا ، وكلّ فريق لا يعلم ما جرى على الآخر^(١٧٠) ، وربط ابن عاشور تأمر التسعة رهط من قصة ثمود بمكر قريش ، في قوله : (وأحسبُ أنّ سبب ذكره ، أنّ نزول هذه السورة كان في وقتٍ تأمر فيه المشركون على الإيقاع بالنبي ص ، وهو التآمر

(١٦٨) الميزان ١٣ / ١٧٦ .

(١٦٩) التحرير والتنوير ١٥ / ٥١ - ٥٢ .

(١٧٠) المحرر الوجيز ٤ / ٢٦٤ .

الذي حكاه الله في قوله : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْنُوكَ أَوْ يُقَتِّلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . الأَنْفَال ٣٠﴾ ؛ فضرب الله لهم مثلاً بتأمر الرهط من قوم صالح عليه ومكرهم ، وكيف كان عاقبة مكرهم ، وترى بين الآيتين تشابهاً وترى تكرير مكرهم ومكر الله بهم ، وذكر أنّ في قصّتهم آية لقوم يعلمون^(١٧١) ؛ فكانت قريش قد أخذت برأي أبي جهل بأن يجتمع من كلّ بطنٍ رجلٌ فيضربون بأسياهم النبي ص ضربة رجلٍ واحد ، فإذا قتلوه تفرّق دمه في القبائل ، لكنّه ص لم يبيّت في مضجعه ، الذي كان يبيّت فيه ، فدعا عليّ بن أبي طالب ، (فأمره أن يبيّت على فراشه ، فلما أصبحوا وفتشوا عن الفراش وجدوا علياً ، وقد ردّ الله مكرهم ، فقالوا أين محمد ؟ فقال لا أدري)^(١٧٢) ؛ فخاب مكر كفّار قريش ، في مبيّت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب على فراش النبيّ ، ذلك من التوجيه النبويّ والتدبير الربّاني ، في قوله تعالى : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ، وفي غدر ثمود : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . النمل ٥٠﴾ .

ونعرض فيما يأتي انتظام التكرار بالعدد تسعة أو ضعفه ، وما يدور مضمونه بمدار إتيان الكتاب والعلم والتذكّرة :

(١٧١) التحرير والتنوير ١٩ / ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(١٧٢) مجمع البيان ٤ / ٦٦٥ .

أولاً : إتيان الكتاب

تكررت (آتيانهم الكتاب أو آتيانها) بهذا النظم تسع مرّات :

١ . ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ . الْبَقَرَةُ ١٢١﴾ ، حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَي تَرْتِيلَ آيَاتِهِ ، وَفَهَمَهُ ، وَالْعَلِمَ بِهِ ، وَاتَّبَعَ أَحْكَامَهُ ، ذَلِكَ لِلَّذِينَ يَرْجُونَ وَعْدَهُ وَيَخَافُونَ وَعِيدَهُ ، وَيَعْتَبِرُونَ بِقِصَصِهِ ، وَيَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهِ ، وَيَنْتَهُونَ بِنَوَاهِيهِ ، وَمَا هُوَ . وَاللَّهُ . مَجْرَدَ حِفْظِ آيَاتِهِ وَدِرْسِ حُرُوفِهِ وَتِلَاوَةِ سُورِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ التَّدْبِيرُ فِي آيَاتِهِ وَالْعَمَلُ بِأَحْكَامِهِ (١٧٣) .

٢ ، ٣ . ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . الْبَقَرَةُ ١٤٦ ، وَالْأَنْعَامُ ٢٠﴾ ، وَمَعْرِفَتُهُ مِنْ مَصْدَرِ الدَّعْوَةِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ص ، لِأَنَّهُ مَذْكُورٌ بِأَوْصَافِهِ وَنَعْوَتِهِ وَحَالَاتِهِ ، وَيَشْهَدُ لَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) ، وَنَشَأُوا عَلَى مَعْرِفَةِ النَّبِيِّ ، كَمَا يَنْشَأُ الْأَبُ عَلَى مَعْرِفَةِ ابْنِهِ إِنْ كَانَ مَعَ الْغُلَّامَانِ ، أَوْ غَابَ عَنْ أَبِيهِ مَدَّةً طَوِيلَةً ، وَهُوَ مُقْتَضَى إِيْتِمَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ (١٧٤) . وَالضَّمِيرُ فِي (آتَيْنَاهُمْ) يَرْجِعُ إِلَى أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَعْرِفَةٌ غَايَةٌ فِي الْوُضُوحِ كَمَعْرِفَةِ أَبْنَائِهِمْ مِنْ دُونِ شَبْهَةٍ أَوْ التَّبَاسِ ، مَعْرِفَةُ الْحَقِّ فِي جَمِيعِ مَظَاهِرِهِ : التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ وَالرَّسُولِ الدَّالِّ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلِ مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ ، الَّتِي لَا يُمْكِنُ إِنْكَارُهَا (١٧٥) .

(١٧٣) مواهب الرحمن ٢ / ٥٨٢ .

(١٧٤) المصدر نفسه ٢ / ١٥١ .

(١٧٥) المصدر نفسه ١٣ / ١٦٧ .

٤ . ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُسُوًّا بِهَا بِكَاْفِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . الأنعام ٨٩ . ٩٠ ﴾ ، أما الكتاب فكل ما يُنسب إليه تبارك وتعالى ، النازل مع الأنبياء ع لهداية الناس ، فيشمل الصُحف والتشريعات والمعارف والأخلاقِيَات التي تَمَسُّ حياة الإنسان عامّة ، وقد أشار ب (أُولَئِكَ) إلى الأنبياء المذكورين في الآيات السابقة ، وتتويه بعلو شأنهم ورفعة مقامهم ، وبالكتب التي أنزلت عليهم وفيها الهداية الإلهية التي عليها جميع الأنبياء واحدًا بعد واحد ، وأنها واحدة عند الجميع ، وأشار ب ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى المخاطبين من قومه ص ، من الذين جحدوا النبوة ، وكفروا بهذه الهداية ، (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) ، فلا عِوَضَ على الهداية بأمر دنيويّة زائلة ، وفي سورة الشورى استثنى القربى من عدم السؤال على الأجر ، في قوله : ﴿... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى . الشورى ٢٣﴾ ، فَإِنَّ حُبَّهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، وبغضهم من الكفر والنفاق ، والاستثناء منقطع ، والخطابُ خطابُ سيّد الخلق رسول الله (١٧٦) ، (وروي أنّها لما نزلت قيل : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم ، قال : عليّ وفاطمة وأبناهما ، ويدلّ عليه ما روى عن عليّ رض شكوت إلى رسول الله ص حسد الناس لي فقال : أما ترضى أن تكون رابع أربعة أوّل من يدخل الجنّة أنا وأنت والحسن والحسين (...)(١٧٧) .

(١٧٦) مواهب الرحمن ١٤ / ١٣٨ - ١٣٩ .

(١٧٧) تفسير الكشاف ٩٧٧ .

وتخصيص هذه المودّة في رسول الله والإمام وولديه ، شهادة لما يدلي به الإمام من شهادة للقرآن نفسه ، فمن شرفه الله بهذه المنزلة منزلة طلب مودّته ، تقدّمه على غيره في التقرب إلى الله تعالى وترفع مقام شهادته .

لكن الغريب ما ذكره صاحب تفسير المنار من أنّ (الرسول لم يطلب من الأمة بأمر الله أن تجعل هذا أجرًا له على تبليغ الدعوة والقيام بأعباء الرسالة لأجره في ذلك على الله تعالى وحده كغيره من أخوانه الرسل كما صرح في آيات أخرى)^(١٧٨).

٥ . ﴿... وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ . الأنعام ١١٤ ﴾ .

٦ . ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٍ . الرعد ٣٦ ﴾ .

٧ . ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . القصص ٥٢ . ٥٤ ﴾ .

٨ . ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . العنكبوت ٤٧ . ٤٨ ﴾ .

٩ . ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَنَجَّيَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . الصافات ١١٤ . ١١٧ ﴾ .
وضمير التثنية من (آتَيْنَاهُمَا) يعود على موسى وهارون المتقدم ذكرهما ، والذي أُوتِيَ التوراة هو موسى ، كما قال تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) ، وقد تكرر ذكره بهذه العبارة نفسها سبع مرّات في القرآن الكريم (البقرة ٨٧ ، هود ١١٠ ، المؤمنون ٤٩ ، المؤمنون ٣٥ ، القصص ٤٣ ، السجدة ٢٣ ، فصلت ٤٥) ، وضمير التثنية في آية الصافات لأنّ هارون كان قد عاضد موسى في رسالته ، فكان له حظ من إيتاء التوراة كما قال الله في آية أخرى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُنْتَفِينَ . الأنبياء ٤٨﴾ (١٧٩) .

ويمكن أن يفاد من هذه الثنائيّة (ثنائيّة موسى وهارون) ، أي المعاضدة بين موسى وهارون في الربط بين النبيّ والإمام في حمل القرآن ولاسيّما بعده والشهادة له ، استنادًا إلى حديث المنزلة ، (أنت منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي ...) حديث صحيح رجاله ثقات ، والمودّة هي التي عرضنا لها قبل قليل .
ثانيًا : تكرار (آتينا) في نظم آخر ودلالات أخرى تسع مرّات :

(١٧٩) التحرير والتنوير ٧٦ / ٢٣ .

١ ، ٢ . ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . النساء ٥٤﴾ ، (ما أطلق عليه الناس من آل
إبراهيم هو رسول الله ص ؛ ويمكن شمول الآية المباركة المؤمنين أيضًا ، لأنَّ
رسول الله كان واسطة الفيض عليهم بما آتاه الله تعالى من الفضل العظيم ، وهو
الكتاب والمعارف الربوبية والكمالات المعنوية ، وحسدهم عليهم لمنعهم من ذلك
الفضل وحصره فيهم غرورًا وبخلًا به) (١٨٠) .

٣ . ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ .
الحجر ٨٠ . ٨١﴾ ، وآتينا أصحاب الحجر الحجج والمعجزات والدلالات الدالة على
صدق الأنبياء وقيل آتينا الرسل الآيات ، (فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) أعرضوا عن
التفكر فيها والاستدلال بها (١٨١) .

٤ . ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ
إِمَّا آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ . الزخرف ٢٠ . ٢١﴾ .

٥ . ﴿بَلْ آتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . المؤمنون ٩٠﴾ ، ﴿إِضْرَابٍ عَنِ النَّفْيِ الْمَفْهُومِ
مِنَ الْحَجِّ الَّتِي أُقِيمَتْ ... فَإِذَا كَانَتْ الْحَجَّ الْمَبْنِيَّةَ تَدَلُّ عَلَى الْبَعْثِ وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ
بِصَحَّتِهَا فَلَيْسَ مَا وَعَدَهُمْ رَسَلْنَا بِاطِّلًا بَلْ جِئْنَاهُمْ بِلِسَانِ الرَّسْلِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِي

(١٨٠) مواهب الرحمن ٨ / ٣١٧ .

(١٨١) مجمع البيان ٦ / ٤٤٥ .

دعواهم كذبهم ونفيهم للبعث (...)^(١٨٢)؛ أي ليس الأمر كما يقولون من نسبتهم إلى الله تعالى ما لا يليق به ، و(لكاذبون) يُراد فيما ذكروا الله تعالى به^(١٨٣) .

٦ . ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعْدُو الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ . فاطر ٤٠ ، أي أم أنزلنا عليهم كتابًا يصدّق دعواهم فيما عليه من الشرك ، (فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ) أي فهم على دلالات واضحات؟!^(١٨٤) .

٧ . ﴿وَأَتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ . الجاثية ١٧ ، أي وأعطيناهم دلالات وبراهين واضحات من العلم بمبعث محمد ص وما بين لهم من أمره وقيل يريد بالأمر إحكام التوراة^(١٨٥) .

٨ . ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ . الدخان ٣٣ ، أي أوتوا من الآيات المعجزات ، ما لم يعهد في غيرهم من الأمم ، وابتلوا بذلك ابتلاء مبينا^(١٨٦) ، (وَأَتَيْنَاهُمْ) أي وأعطيناهم من الآيات يعني الدلالات والمعجزات ، والبلاء بالشدة

(١٨٢) التحرير والتنوير ١٥ / ٥١ .

(١٨٣) المُحرّر الوجيز ٤ / ١٥٤ .

(١٨٤) مجمع البيان ٨ / ٥٣٠ .

(١٨٥) المصدر نفسه ٩ / ٩٧ .

(١٨٦) الميزان ١٨ / ١١٦ .

والرخاء فيكون في الآيات نعمة على الأنبياء وقومهم وشدة على الكفار المكذبين بهم (١٨٧) .

٩ . ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ . سبأ ٤٤ . ٤٥﴾ ، (لم يكونوا على هدى ولا دين منسوب إلى الله تعالى حتى يكون تمسكهم به وخشية الوقوع في الضلالة إن فرطوا فيه يحملهم على التردد في الحق ، الذي جاءهم وصدق الرسول الذي أتاهم به ، فيكون لهم في الصدِّ عنهما بعض العذر: فيكون المعنى : التعجب من رفضهم الحق حين لا مانع يصدِّهم) (١٨٨) ؛ لم نرسل إليهم قبلك من رسول ينذرهم ، ويبين لهم ذلك فيقولوا استناداً إلى الكتاب الإلهي أو إلى قول الرسول النذير : إنه حقّ أو باطل (١٨٩) .

رابعاً : التكرار بعبارة (أوتوا الكتاب) بضعف العدد تسعة نفسه :

استعمل القرآن (الذين أوتوا الكتاب) في مقام ذم اليهود والنصارى وربما غيرهم معهم ، وجاء الفعل بصيغة (أوتوا) لما لم يُسمَّ فاعله ، فأخفى الفاعل (اسمه جلّ وعلا) إذلالاً لهم ، لأنهم بدّلوا وغيروا وكفروا وكان هذا هو جزاؤهم ، ولأنّ العربية

(١٨٧) مجمع البيان ٩ / ٨٥ .

(١٨٨) التحرير والتنوير ٢٢ / ٩٠ .

(١٨٩) الميزان ١٦ / ٣١٢ .

تخفي الفاعل لغاية منها تجنّب ذكره ، في جميع ما ورد من هذه الآيات ؛ في حين (وأَتيناهم الكتاب) عامّةً في مقام الثناء والمدح .

١ . ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . البقرة ١٠١﴾ ، يعني : أنكم أيها المخاطبون مع علمكم بأنّه الحقّ فنبتذتموه وراء ظهوركم ، والنبتذ إلقاء الشيء من اليد ، استعارة لنقض العهد عهد التوراة ، أن يؤمنوا برسول الله المصدق للتوراة ، من وراء الظهر تمثيلاً للإعراض ، كأنهم لا يعلمون التوراة وما فيها من البشارة ببعثة الرسول من ولد إسماعيل (١٩٠) .

٢ . ﴿... وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِعَاقِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . البقرة ١٤٤﴾ ، وهذا الخبر كناية عن الوعيد جزائهم عن سوء صنعهم ، بعد توكيد علمهم بمؤكدين (وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ) إنّ واللام ، لإنكارهم استقبال الكعبة قبله مع علمهم الأكيد (١٩١) .

٣ . ﴿وَلَيْنِ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . البقرة ١٤٥﴾ ، وتكرار (الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ) بالإظهار آية بعد آية مع إمكان الإضمار لمذمتهم وحتى تكون هذه الجملة صريحة في تناولهم لزيادة

(١٩٠) التحرير والتنوير ٦٠٨/١ .

(١٩١) المصدر نفسه ٣٤/٢ .

العناية والتمكين في الذهن ، لأنَّ إنكارهم أحقيّة الكعبة بالاستقبال ليس عن شبهة حتى تزيله الحجة ، لكنّه مكابرة وعناد ، فلا جدوى من التوسع في الاحتجاج عليهم (١٩٢) .

٤ . ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ . آل عمران ١٩ ، هذا الاختلاف لم يكن عن عذر بل عن بغي وظلم بينهم ، فتمردوا على الحقّ وحرّفوا الكتاب وألوه ، والإسلام التسليم لله تبارك وتعالى بمبدئه ومنتهاه (١٩٣) .

٥ . ﴿... وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ . آل عمران ٢٠ .

٦ . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ . آل عمران ١٠٠ .

٧ . ﴿لَتَبْلُؤُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَدَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَرْمِ الْأُمُورِ﴾ . آل عمران ١٨٦ .

(١٩٢) التحرير والتنوير ٣٥/٢ .

(١٩٣) مواهب الرحمن ٥/ ١٧٢ ، ١٧٩ .

٨ . ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ . آل عمران ١٨٧﴾ .

٩ . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا . النساء ٤٧﴾ .

١٠ . ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا . النساء ١٣١﴾ .

١١ ، ١٢ . ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ . المائدة ٥﴾ .

١٣ . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ . المائدة ٥٧﴾ .

١٤ . ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ . التوبة ٢٩﴾ .

١٥ . ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ . الحديد ١٦ ﴿ .

١٦ ، ١٧ . ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ . المَدَّثَر ٣١ ﴿ .

١٨ . ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ . البَيِّنَةُ ٤ ﴿ ، تفرَّقوا في شأن نبوة محمد ص ، وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، والإنكار والجحود ، ولا يأتي هذا الاختلاف إلا من جهول وحسود ولا يعرض عن هذه البينة إلا من طغى وآثر الدنيا .

رابعًا : التكرار ب (الذين أوتوا العلم) للبناء للمجهول تسع مرّات :

١ . ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ . النحل ٢٧﴾ ، أوتوا العلم أي رزقوه ، وانكشفت لهم حقيقة التوحيد ، قوم لا يرون إلا الحق ولا يفعلون غيره ولا ينطقون إلا به (١٩٤) .

٢ . ﴿قُلْ أَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . الإسراء ١٠٧﴾ ، الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ من قبله هم الذين تحقّقوا بالعلم بالله وآياته من قبل نزول القرآن سواء أكانوا من اليهود أو النصارى أو غيرهم ، واستعدوا لفهم كلمة الحق وقبولها لتجهزهم بالعلم بحقيقة معناه فيزيدهم القرآن خشوعًا (١٩٥) ، وإيمان المخاطبين بالقرآن وعدمه سواء لأنه مُستغنٍ عن إيمانهم بإيمان الذين أوتوا العلم ، يسمعونه ويُؤمنون به (١٩٦) .

٣ . ﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . الحج ٥٤﴾ .

٤ . ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . القصص ٨٠﴾ .

(١٩٤) الميزان ١٢ / ١٩٠ .

(١٩٥) المصدر نفسه ١٣ / ١٧٩ .

(١٩٦) التحرير والتنوير ١٤ / ١٨٢ .

٥ . ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكُمْ كُنُتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . الروم ٥٦﴾ .

٦ . ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . سبأ ٦﴾ .

٧ . ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . محمد ١٦﴾ .

٨ . ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . المجادلة ١١﴾ .

٩ . ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ . العنكبوت ٤٩﴾ ، القرآن آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ، وليس بكتاب مؤلف مخطوط ، بل هو آيات في صدور الذين أوتوا العلم محفوظ في صدور أصحاب محمد ص ، فالمؤمنون به يقرؤونه ويحفظونه ، هي ك (أناجيل أمتي في صدورها) ، ووصفهم بالعلم لأنهم ميّزوا بين كلام الله وكلام البشر والشياطين ، فيما اختلط عند بعضهم ما جاء من حديث الغرائق المُفْتَرَى الذي رُوج له (١٩٧) .

(١٩٧) تلخيص التمهيد ٥٤/١ .

وقيل الَّذِينَ (أَوْثُوا الْعِلْمَ) : (هم الأئمة ع من آل محمد ع ، وقيل إنه كناية عن النبي ص أي أنه في كونه لا يقرأ ولا يكتب آيات بيّنات في صدور العلماء من أهل الكتاب لأنه منعت في كتبهم بهذه الصفة عن الضحّاك وقال قتادة المراد به القرآن وأعطى هذه الأمة الحفظ ومن كان قبلها لا يقرؤون إلا نظراً فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا اليسير) (١٩٨).

ويمكن بهذا ربط الذين (أَوْثُوا الْعِلْمَ) ، بحديث : (مدينة العلم) ، لكن لا بُدَّ من فرز السياسي من الواقع وحقيقة الحدث ، والتي اختلفَ فيها بين الاتجاهين الإسلاميين الكبيرين ، ولاسيما حديث : (أنا مدينة العلم وعلي بابها) ، فالشيعة تجمع على تواتره ، وعندهم أنه (جاء بطرق كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين وأثبتته الأئمة والحفّاظ في معاجمهم ومسانيدهم ، موثّقين رجال سنده مصحّحين طرقه العديدة ، وقد بلغ من الشهرة والتواتر ووضوح الدلالة على إمامة أمير المؤمنين وعلوّ منزلته وهو باب مدينة علم الرسول مما جعل لبعض الحاقدين والمعاندين أن يحرف بعض فقراته ويتأولها بشتّى التأويلات أو يلحق به زيادة تقلل من الامتياز الذي اختصّ به أمير المؤمنين وعرف به وقد راج سوق هذه الافتراءات في زمن معاوية وخلفه ... الحديث غير مفيد ... أنا مدينة العلم وأبو بكر أساسها وعمر حيطانها وعثمان سقفاها وعلي بابها ...) (١٩٩).

(١٩٨) مجمع البيان ٨ / ٣٧٢ .

(١٩٩) تاريخ مدينة دمشق ٣٣١/٤٥ حديث رقم ٥٢٦٥ .

وورد : (أنا مدينة العلم وعليّ بابها ، فمن أراد العلم فليأتِ باب المدينة)(٢٠٠) . وفي حلية الأولياء : (أنا دار الحكمة وعليّ بابها ، رواه الأصمغ بن نباتة)(٢٠١) .

قال تعالى : ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . البقرة ١٨٩﴾ ، (فيها وجوه "أحدها" أنّه كان المُحْرِمون لا يدخلون بيوتهم من أبوابها ، ولكنهم كانوا ينقّبون في ظهر بيوتهم ، أي في مؤخرها نقبًا يدخلون منه ، فنُهِوا عن التدنّين بذلك ... وثانيها : إنّ معناه ليس البرّ أن تأتوا من غير جهاتها ، وينبغي أن تأتوا الأمور من جهاتها ، أي الأمور ، وهو المروي عن جابر عن أبي جعفر ، وثالثها : إنّ معناه ليس البرّ طلب المعروف من غير أهله ، وإنّما البرّ طلب المعروف من أهله، ولكن البرّ من اتقى ... وقال أبو جعفر آل محمد أبواب الله وسبله والدّعاة إلى الجنّة والقادة إليها والأدلاء عليها إلى يوم القيامة ، وقال النبيّ ص : أنا مدينة العلم وعليّ بابها ، ولا تؤتى المدينة إلّا من بابها ، ويروى أنا مدينة الحكمة ، "وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ . البقرة ١٨٩ ، آل عمران ١٣٠ ، ٢٠٠ ، والحجرات ١٠" ، معناه واتقوا ما نهاكم الله عنه وزهدكم فيه لكي تفلحوا بالوصول إلى ثوابه الذي ضمنه للمتّقين)(٢٠٢) .

ويسند ما تقدّم ولاسيما ما يتّصل بالقرآن ما ذكره السيوطيّ : (أمّا الخلفاء فأكثر ما رُوي عنه منهم عليّ بن أبي طالب ع ، والرواية من الثلاثة نزرة جدًّا ، فأما عليّ ع فرُوي عنه الكثير، وقد روى معمر عن وهب بن عبد الله ، عن أبي الطّفيل قال

(٢٠٠) الحاكم النيسابوري ٣ / ١٢٦ ، وينايع المودة ١ / ٧٧ .

(٢٠١) ٦٤ .

(٢٠٢) مجمع البيان ١ / ٣٦٧ - ٣٦٨ .

شهدت عليًا يخطبُ ، فيقولُ : "فوالله لا تسألوني عن شيءٍ إلا أخبرتكم ، وسلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آيةٍ إلا وأنا أعلمُ أبليلٍ نزلت أم بنهارٍ ، في سهل أم في جبل" (٢٠٣) .

لكن ربما يجرون على لسان الإمام في هذا الموضع وغيره ، منقولًا عن ابن الحنفية ما يخالف ما تقدّم : (أنه قال : خير الناس بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر ، ثم عمر ، ثم رجل آخر ، فقال له ابنه محمد بن الحنفية : ثم أنت يا أبت . فكان يقول : ما أبوك إلا رجل من المسلمين) (٢٠٤) .

وهذا التهوين مما يثير الشفقة ، ومثل هذا التهوين فيما يخصنا منقولًا عن محمد بن الحنفية نفسه عن أبيه : (إنّ الناس يزعمون في قول الله جل ذكره : ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أنك أنت التالي ، فقال : وددت أنني أنا هو ، ولكنه لسان محمد ص) (٢٠٥) . وسنعرض لاحقًا رأي السيّد البديري في هذا الشأن .

(٢٠٣) الإتيان ٤ / ٢٠٤ .

(٢٠٤) أخرجه البخاري 5/7 .

(٢٠٥) الطبراني الأوسط ٥٣/٧ ، ومجمع الزوائد ٣٧/٧ .

خامساً : التذكرة

تكرار (التذكرة) تسع مرّات ، بمعنى ما يُتذكَّرُ به الشيء ، أو تُستذكرُ به الحاجة من الدلالة والإمارة^(٢٠٦) ، قال تعالى : ﴿فَتَذَكِّرِ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى . البقرة ٢٨٢﴾ ، تذكر الأخرى بعد التشاور والتحاور بينهما .

١ . ﴿طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكِّرَةً لِمَنْ يَخْشَى . طه ٣﴾ ، تذكرة لمن يخشى الله ، فما أنزلنا عليك القرآن في حال من الأحوال إلا تذكرة ، والتذكرة تذكير لما في الفطرة^(٢٠٧) .

٢ . ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكِّرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ . الواقعة ٧٣﴾ ، التذكرة : تذكير لحاضرة الناس ، فيذكرون ما أوعدوا به ، أو جعلناها تذكرة وأنموذجاً^(٢٠٨) ، فالتذكرة : للاعتبار بما خلق الله جل وعلا .

٣ . ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكِّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا . المزمّل ١٩﴾ ، عظة لمن أنصف من نفسه^(٢٠٩) ، أي لنجعل نجاتكم من إغراق قوم نوح تذكرة وموعظة تتذكرون بها نِعَمَ الله تعالى وتشكرونه عليها وتتفكرون فيها فتعرفون كمال قدرته .

(٢٠٦) مجمع البيان ٧ / ٧ .

(٢٠٧) التحرير والتنوير ٩٥ / ١٦ .

(٢٠٨) تفسير الكشاف ١٠٧٩ .

(٢٠٩) مجمع البيان ٤٨٢ / ١٠ .

٤ . ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ... المدثر
٤٩﴾ ، لم أعرضوا وتولوا عن القرآن والتذكرة التذكير بمواعظ القرآن ، لكن كان
المشركون (كأنهم حمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ) ، هي تذكرة وعظة لمن يتقول كذبا على الله من
عند نفسه ، ويخلق أقاويل ويدعي من رب العالمين ، فعقابه قطع الوتين^(٢١٠) .

٥ . ﴿... كَلَّا إِنَّهُ تَذَكِّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ المدثر
٥٦﴾ ، حقا ليس الأمر على ما قالوا .. إن القرآن تذكير وموعظة ، فمن شاء اتعظ
، والتذكرة : الموعظة ، لمن اتخذ إلى ربه سبيلا^(٢١١) .

٦ . ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكِّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا . الإنسان ٢٩﴾ ، (هذه) إشارة إلى
السورة تذكرة وعظة فمن (أراد اتعظ واختار الخير لنفسه)^(٢١٢) ، أي : أي شيء
منعهم من أن يؤمنوا به ، إذ لا شيء يمنعهم^(٢١٣) .

٧ . ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكِّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . عبس ١١﴾ ، موعظة يجب الاتعاظ بها ، والعمل
بموجبها لمن كان يدعو النبي ولا يستجيب ولا يصدق بالبعث^(٢١٤) . والذكر

(٢١٠) مجمع البيان ٤٤٢/١٠ .

(٢١١) المصدر نفسه ٤٨٢/١٠ .

(٢١٢) تفسير الكشاف ١١٦٧ ، ومجمع البيان ٥٢٦/١٠ .

(٢١٣) مجمع البيان ٤٩٨/١٠ .

(٢١٤) تفسير الكشاف ١١٧٩ ، التحرير والتنوير ١٠١ / ٣٠ .

الاستحضار بالقلب أو اللسان ، قال تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا . الجمعة ١٠﴾ ، إنَّ القرآن تذكرة وموعظة .

٨ . ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُنْزُ وَأَعِيَّةً . الحاقّة ١٢﴾ ، لنجعل نجات المؤمنين وإغراق الكافرين تذكرة وعظة وعبرة^(٢١٥) ، التذكير بنعم الله ، وهي إنجاؤكم وإنجاء آبائكم من الغرق ، وغير هذا في سورة الحاقّة قوله تعالى : ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ . الحاقّة ٤٢﴾ ، أي سريعًا ما تتراجعون عن الإيمان بعد أن يتسلل إليكم ما يدعوكم إلى الشرك^(٢١٦) . (وَتَعِيَهَا أُنْزُ وَأَعِيَّةً) : تحفظها حافظة ، فتكون عظة لمن يأتي بعد ، فلما نزلت هذه الآية قال النبي ص : "اللهم اجعلها أنز علي^(٢١٧) ، وسنعود لهذه الآية في الفصل السادس إن شاء الله .

٩ . ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُنْتَقِينَ . الحاقّة ٤٨﴾ ، وهي من سورة الحاقّة نفسها ، والمعنى : إنّه لعظة لمن اتقى العقاب^(٢١٨) ، فالقرآن تذكرة لمن يريد أن يتذكّر في الماضي والحاضر والمستقبل ، سواءً تذكّر أم لم يتذكّر ، لأنّ المصدر غير مقيد بزمن كالفعل^(٢١٩) ، إنَّ آيات القرآن تذكرة وموعظة ، والإنسان مُخَيَّر ، وهذه التذكرة في

(٢١٥) تفسير الكشاف ١١٣٥ .

(٢١٦) أنظار لسانية في آيات وسور قرآنيّة ١٧٧ .

(٢١٧) مجمع البيان ٤٣٧/١٠ .

(٢١٨) المصدر نفسه ٤٤٢/١٠ .

(٢١٩) التحرير والتنوير ١٣٨ / ٢٩ .

كتب معظمة عند الله وهي اللوح المحفوظ ، أو كتب الأنبياء المنزلة عليهم، كقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . الْأَعْلَى ١٨﴾ (٢٢٠) .

فالذكر والتذكرة من الجذر (نكر) ، بمعنى حفظ الشيء وإحرازه واستحضاره ، أو الشيء الذي يجري على اللسان ، أو أن أصل الذكر التنبه على الشيء فمن ذكرته فقد نبهته ، والذكر حضور المعنى للنفس وقد يكون بالقلب وهو التفكير وقد يكون باللسان ، والذكر: القرآن ، لأنه ذكر فيه الدلائل والأحكام ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . فَصَلت ٤١﴾ ، فالذكر هو القرآن الذي جحدوه حين جاءهم، وهو عزيز إذ جعله الله على أتم صفات الأحكام ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه أي من الكتب التي قبله ، ولا من خلفه أي لا يجيء من بعده كتاب يبطله أي ينسخه .

وذكرت لفلان حديث كذا وكذا : أي قلته له ، قال تعالى : ﴿وَأذْكُرُوا مَا فِيهِ . البقرة ٦٣ ، والأعراف ١٧١﴾ : معناه تدارسوا ما فيه واحفظوه ، والذكر: الحفظ والاستحضار ، وحضور الشيء في القلب ، ومن الذكر بالقلب واللسان (٢٢١) ، قوله تعالى : ﴿فَأذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا . البقرة ٢٠٠﴾ ، ومن الحفظ بالقلب ما يوافق تفسير قوله تعالى : (وَتَعْبَهَا أَنْتُمْ وَعَائِيَّتُ) ، ودعاء النبي لأمر المؤمنين ع بالحفظ والتذكير ، وهو من أولي الألباب ، وأهل التذكير المُنبيين (٢٢٢) .

(٢٢٠) مجمع البيان ١٠/٥٥٨ .

(٢٢١) مفردات الراغب الأصفهاني ٣٢٥ .

(٢٢٢) ملاحظات العاملي على مفردات الراغب الأصفهاني ٣٢٦ .

والذِّكْر : الكتاب الذي فيه تفصيل الدين ووضع المِلل ، وكلُّ كتاب من الأنبياء ذِكْرٌ ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . الحجر ٩﴾ ، حُمِلَ على خصوص القرآن .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . الأحزاب ٤١﴾ ، (الذِّكْر نقيضه النسيان ، ﴿وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ . الكهف ٦٣﴾ ، والنسيان محلّه القلب ، فكذا الذِّكْر ، لأنّ الضدّين يجب اتّحاد محلّهما)(٢٢٣) .

أما الذِّكْر أو أهل الذِّكْر من قوله تعالى : ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ . الأنبياء ٦ . ٨﴾ ، فبحسب (الخطاب في الآية على ما يفيد السياق للمشركين من الوثنيين المحيلين للرسالة أمروا أن يسألوا أهل الذِّكْر وهم أهل الكتب السماوية : هل بعث الله للرسالة رجالاً من البشر يوحى إليهم ؟ ومن المعلوم أنّ المشركين لما كانوا لا يقبلون من النبي ص لم يكن معنى لإرجاعهم إلى غيره من أهل القرآن لأنهم لم يكونوا يقرّون للقرآن أنه ذكر من الله فتعيّن أن يكون المسؤول عنه بالنظر إلى مورد الآية هم أهل الكتاب وخاصة اليهود)(٢٢٤) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

(٢٢٣) تاج العروس ١١ / ٣٧٧ .

(٢٢٤) الميزان ١٢ / ٢٣٣ .

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . النحل ٤٣ . ٤٤ ﴿﴾ ، ذلك لبيان (كيفية إرسال الرسل وإنزال الكتب حتى يتضح للمشركين أنه لم تكن الدعوة الدينية إلا دعوة عادية من رجال يُوحى إليهم من البشر يُندبون إلى ما فيه صلاح الناس في دنياهم وعقباهم ... الآية مسوقة لرد المشركين من قريش حيث كانوا يزعمون أنّ البشر لا يصلحون للرسالة (...)(٢٢٥) .

فالخطابُ للمشركين المنكرين ليسألوا ، لكن (لما كان أهل الشيء وخاصته أعرفُ بحاله ، وأبصرُ بأخباره ، كان على من يريد التبصّر في أمره أن يرجع إلى أهله... وقال بعضهم : المراد بأهل الذكر أهل القرآن لأنّ الله سمّاه ذكراً ، وأهله النبيّ ص وأصحابه وخاصّ المؤمنين ... لكن إرادة ذلك من الآية خاصّة لا تلائم تمام الحجة فإنّ الحجة ، فإنّ أولئك لم يكونوا مسلمين لنبوّة محمد ص فكيف يقبلون من أتباعه من المؤمنين؟ .. فالآية إرشاد إلى أصل عام عقلائي وهو وجوب رجوع الجاهل إلى أهل الخبرة ، وليس ما تتضمنه من الحكم حكماً تعبدياً ، ولا أمر الجاهل بالسؤال عن العالم ولا بالسؤال عن خصوص أهل الذكر أمراً مولوياً تشريعياً...)(٢٢٦).

وأهل الذكر هم أهل بيت رسول الله ، فقد روى المحدثون و المفسرون من الفريقين أن الآيتين نزلتا في أهل البيت ع ، فعن أبي جعفر ع في قول الله عزّ و جلّ : ﴿فَسأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .. النحل ٤٣ . الأنبياء ٧﴾ ، قال رسول الله ص :

(٢٢٥) الميزان ٢٠٨ .

(٢٢٦) المصدر نفسه ١٢ / ٢١١ .

"الذِّكْرُ أَنَا ، وَالْأَيْمَةُ أَهْلُ الذِّكْرِ" ، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ . الزخرف ٤٤﴾ ، قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ع : (نَحْنُ قَوْمُهُ ، وَنَحْنُ الْمَسْئُولُونَ) (٢٢٧) .
 وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ع نَفْسَهُ قَالَ : (إِنَّ مَنْ عِنْدَنَا يَزْعُمُونَ أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُمُ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى ؟ قَالَ . أَيُّ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ الْبَاقِرِ ع ، خَامِسِ أَيْمَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ ع : (إِذَا يَدْعُونَكُمْ إِلَى دِينِهِمْ) ، قَالَ أَيُّ الرَّوَايِ : أَيُّ الْإِمَامِ ع . بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ [أَيُّ أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ "نَحْنُ أَهْلُ الذِّكْرِ" ، وَنَحْنُ الْمَسْئُولُونَ] (٢٢٨) .

وفيما ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا ع في كتاب (عيون أخبار الرضا ع):
 أَنَّ عُلَمَاءَ فِي مَجْلِسِ الْمَأْمُونِ قَالُوا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : إِنَّمَا عَنَى بِذَلِكَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ، فَقَالَ الرُّضَا ع : سُبْحَانَ اللَّهِ وَهَلْ يَجُوزُ ذَلِكَ ، إِذَا يَدْعُونَا إِلَى دِينِهِمْ وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الْإِسْلَامِ ... ثُمَّ قَالَ : "الذِّكْرُ رَسُولُ اللَّهِ وَنَحْنُ أَهْلُهُ . وَتَتَلَخَّصُ الْإِجَابَةُ بِقَوْلِنَا : إِنْ الْإِمَامُ قَالَ ذَلِكَ لِمَنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ تَفْسِيرَ الْآيَةِ مَنَحْصَرٌ بِمَعْنَى الرَّجُوعِ إِلَى عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي كُلِّ عَصْرِ وَزَمَانٍ ، وَبِدُونَ شَكِّ إِنَّهُ خِلَافُ الْوَاقِعِ ، فَلَيْسَ الْمَقْصُودُ بِالرَّجُوعِ إِلَيْهِمْ عَلَى مَرِّ الْعُصُورِ وَالْأَيَّامِ ، بَلْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ ، فَفِي عَصْرِ الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرُّضَا ع لَا بَدَّ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ عَلَى أَسَاسٍ أَنَّهُ مَرْجِعُ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَرَأْسِهِمْ" (٢٢٩) .

(٢٢٧) روح المعاني ١٤ / ١٣٤ .

(٢٢٨) جامع النيان ١٤ / ٢٧٢ ، وروح المعاني ١٤ / ١٣٤ ، وإحقاق الحق للتستري ٣ / ٤٨٢ .

(٢٢٩) الأمتل ٨ / ١٩٧-٢٠١ .

قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . الأَنْبِيَاءُ ٧ ... وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ . الأَنْبِيَاءُ ٢٥﴾ ، أهل الذكر أهل الكتب الماضية ، فلا تتكروا أن يكون محمد ص رسولا ، وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى . يوسف ١٠٩﴾ ؛ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . النحل ٤٣﴾ ، وكذا قول أبي جعفر الباقر نحن أهل الذكر ، (ومرادُه أن هذه الأمة أهل الذكر ، فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة ، وعلماء أهل بيت الرسول ع من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة ، كعليّ ، وابن عباس ، وبني علي : الحسن والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، وعلي بن الحسين زين العابدين ، وعلي بن عبد الله بن عباس ، وأبي جعفر الباقر ، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ، ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم ، وعرف كل ذي حق حقه ، ونزل كل المنزل الذي أعطاه الله ورسوله واجتمع إليه قلوب عباده المؤمنين . والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن الرسل الماضين قبل محمد ص كانوا بشرًا كما هو بشر ، قال تعالى : ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا . الإسراء ٩٣ . ٩٤﴾ ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا . الفرقان ٢٠﴾ ، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ . مريم ١١٠ ، وفصلت ٦﴾ .

قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي : القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة ، ﴿لِنُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ، وهذا

شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه .

قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . النحل ٤٣﴾ ، ما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى أمة من الأمم ، إلا رجالات نوحى إليهم وحينئذ لا ملائكة فلم نرسل إلى قومك إلا مثل ما كنا نرسل إلى من قبلهم من الأمم ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ ، يعني أهل الكتب الماضية ، أبشراً كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتهم ، وإن كانوا بشرا فلا تتكروا أن يكون محمد رسولا قال : ثم قال وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وعن جابر عن أبي جعفر ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال : نحن أهل الذكر، ونحن أولو العلم (٢٣٠) ، (وقد صحَّ عن النبي ص أنه قال في آخر خطبة خطبها : إني تارك فيكم الثقلين ، الثقل الأكبر والثقل الأصغر ، فأما الأكبر فكتاب ربي ، وأما الأصغر فعترتي أهل بيتي فاحفظوني فيهما ، فلن تضلوا ما تمسكتم بهما ، رواه الفريقان بطرق متواترة عن جم غفير من أصحاب رسول الله ص ... والحديث دالٌّ على حُجِّيَّة قول أهل البيت ع في القرآن ووجوب اتباع ما ورد عنهم في تفسيره والاقتصار على ذلك وإلا لزم التفرقة بينهم وبينه) (٢٣١) . فالحجِّيَّة لهما معًا ولن يفترقا .

(٢٣٠) مختصر بصائر الدرجات ، للقمي ٢٥٠ ، ٤٦٢ .

(٢٣١) الميزان ٧٦ / ٣ ، وكنز العمال ٤٤ / ١ .

وفي قوله : ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿إيماء إلى أنهم يعلمون ذلك ، ولكنهم قصدوا المكابرة والتمويه لتضليل الدهماء ، فلذلك جيء في الشرط بحرف "إن" التي ترد في الشرط المظنون عدم وجوده ... وأشهد على المشركين بشواهد الأمم الماضية وأقبل عليهم بالخطاب توبيخاً لهم التوبيخ يناسبه الخطاب لكونه أوقع في نفس المُوَبَّخ ، فاحتج عليهم بقوله ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ إـخ ، فهذا احتجاج بأهل الأديان السابقين أهل الكتاب اليهود والنصارى والصابئة(٢٣٢) .

الخلاصة

الشهادة المستفادة من أهل العلم والكتاب والتذكرة ، بما يفيد في الدلالة على (الشاهد منه) ولاسيما مَنْ :

١ . أُشير إليه (المقدم من أهل العلم الذي ميّزه النبي ص في قوله : أنا مدينة العلم وعليّ بابها) ، والمعروف أنّ شهادة أهل العلم والذكر في المضامين القرآنية تسهم في التفكير في ترجيح مَنْ يكون (الشاهد منه) .

٢ . مضمون إتيان الكتاب لموسى وهارون في قوله تعالى : ﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ . الصافات ١١٤ . ١١٧﴾ ، ثنائية يمكن أن تناظر النبي والإمام ، أي المعاوضة بينهما في أداء القرآن والمحافظة عليه ، وتستند هذه الثنائية إلى حديث المنزلة ، (أنت منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبيّ بعدي ...) حديث صحيح رجاله ثقات(٢٣٣) ؛ فضمير التنبيه من (أَتَيْنَاهُمَا) الآية ، يعود على موسى وهارون، والذي أُوتِيَ التوراة هو موسى ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ ، وقد

(٢٣٢) التحرير والتنوير ١٢٩/١٣ - ١٣٠ .

(٢٣٣) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ١٣٨ .

تكرّر ذكره بهذه العبارة نفسها سبع مرّات في القرآن الكريم (البقرة ٨٧ ، هود ١١٠ ، المؤمنون ٤٩ ، المؤمنون ٣٥ ، القصص ٤٣ ، السجدة ٢٣ ، فصلت ٤٥) ، وضمير التثنية في آية الصافات لأنّ هارون كان قد عاضد موسى في رسالته ، فكان له حظ في أداء إيتاء التوراة كما قال الله في آية أخرى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُنْتَهِينَ . الأَنْبِيَاء ٤٨﴾ (٢٣٤) .

٣ . الربط بين آل إبراهيم وآل رسول الله في إتيان الكتاب ، في قوله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ... . النساء ٥٤﴾ ، و(ما أطلق عليه الناس من آل إبراهيم هو رسول الله ص) مثلما عرضنا .

٤ . عبارة ﴿أهل الذكر﴾ التي قد تنصرف إلى اليهود وغيرهم من أهل الديانات الأخرى في خطاب المشركين الذين واجهوا النبي ص خاصة ، ومن بعده ﴿أهل الذكر﴾ أهل القرآن من أهل البيت الذين هم من النبي ص ، في توجيه الأئمة المعصومين ، وهذا ما جاء في قول أبي جعفر الباقر ع (نحن أهل الذكر) مثلما عرضنا . ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي : القرآن ، والقرآن نفسه أحد الثقلين ، والتلازم بين القرآن والعترة في حديث الثقلين ، في قول النبي ص "إني تارك فيكم الثقلين... لن يفترقا ، حتى يردها عليّ الحوض" ،

٥ . الذكر والتذكرة بمعنى حفظ الشيء وإحرازه واستحضاره ؛ وكان حفظ الإمام في دعاء النبي ص حين نزل قوله تعالى : ﴿وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ﴾ : تحفظها حافظة ،

(٢٣٤) التحرير والتنوير ٧٦ / ٢٣ .

فتكون عِظَة لمن يأتي بعدُ ، فلما نزلت هذه الآية قال النبي ص : "اللهم اجعلها
أذنً عليّ (٢٣٥) ، أو أن أصلَ الذكر التنبية على الشيء فمن ذكّرتَه فقد نبّهتَه ،
والذِّكر حضورُ المعنى للنفس وقد يكون بالقلب وهو التفكير وقد يكون باللسان ،
والذِّكر : القرآن حفظه والعناية بنصّه وصيانة لغته ، لأنّ فيه الدلائل والأحكام .

(٢٣٥) مجمع البيان ٤٣٧/١٠ .

الفصل الخامس : الشهادات المؤهلة لجمع القرآن وحفظه

أولاً : جمع القرآن وحفظه

حاولت نقلَ ما نُسِبَ إلى النبيِّ ص وغيره من الشهادات ، متجنِّباً ما استطعت الخلاف المذهبي ، وبعيداً عن الاتِّهام بالميل إلى وجهة من الوجهات أو مذهب من المذاهب ، في تعيين (الشاهد منه) ، لأنَّ الشهادة لجمع القرآن لا بُدَّ أن تُؤخِّدَ المسلمين ، وترتفع عن التعصُّب والتوظيف ، استناداً إلى أنَّ القرآن المتداول بين المسلمين واحدٌ ، وأنَّ أكثرَ ما أضرَّ بالجمع الموصوف بالرسْميِّ القول : إنَّ القرآن لم يجمع في عهد النبيِّ ص ، على الرغم من وجود الشاهد والشهود له ومنه على هذا الجمع ، ووجود أجزاء المكتوب بين أيدي المسلمين من ذلك العهد ، وبإشرافه وتوجيهه ، (وقد سنَّ ص جمع القرآن وكتابته وأمر بذلك وأملاه على كتبته ، وإنَّه ص لم يَمُتَ حتى حَفِظَ جميع القرآن جماعة من الصحابة ، وحفظ الباقي منه جميعه متفرِّقاً ، أو عرفوه وعَلِموا مواقعه ومواضعه على وجه ما يعرف ذلك اليوم من ليس من الحُقَاط لجميع القرآن)(٢٣٦) .

أما حُقَاطُ القرآن فكان في مقدِّمهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ع ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وأبيّ بن كعب ، وابن مسعود ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وسعيد بن عبيد ، ومجمع بن جارية ، وعبد الله بن عمرو بن

(٢٣٦) جامع البيان في القراءات السبع المشهورات ٣٥ .

العاص ، وأبو زيد الأنصاري ، وعبادة بن الصّامت، وأبو أيّوب الأنصاري ، وتميم الدّاريّ وغيرهم وغيرهم (٢٣٧) .

وما يُكَمِّلُ حفظَ القرآنِ في الصّدور ، الكتابة على السطور ، لأنّ (الكتابة تمام قوّة النطق والمُبلّغ به إلى أكمل غاياته ، لذلك جعلها رسول الله ص ، عقال العلوم ، فقال : "قَيِّدُوا العِلْمَ بِالكِتَابِ" ﴿٢٣٨﴾ .

(ولأجل هذا كان السّعِي دُؤوبًا للاستفادة من الصحابة ذوي العدد المحدود ممّن يعرفون القراءة والكتابة من ناحية، والعمل من ناحية أخرى على زيادة أعداد هؤلاء، وتوسيع دائرة الاستتارة والمعرفة بين الناس) (٢٣٩) .

وأقرب الكُتّاب إلى رسول الله الإمام ، فعن ابن عباس : (كاتبُ الكِتَابِ يوم الحُدَيْبِيَّةِ عليُّ بن أبي طالب) إسناده صحيح رجاله ثقات (٢٤٠) ، وهذا الحديث دليل من أدلّة كتابة الإمام للنبيّ ص في عهده .

(وكان النبيّ ص يأمر كُتّاب الوحي بكتابة ما ينزل عليه من ربّه ، وهم رجالٌ اختصّهم لهذه المهمّة وكلفهم للقيام بها ، وكان يأمرهم بعد الكتابة بقراءة ما كتبوا

(٢٣٧) جمع القرآن للشهرستاني ١ / ٤١ .

(٢٣٨) موادّ البيان لعليّ بن خلف ٢٦ .

(٢٣٩) المصحف الشريف المنسوب إلى علي بن أبي طالب ، مقدمة د طيار آلتی قولاج ٢٧ .

(٢٤٠) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهران والسبطين ٢٦٦ .

عليه ليتأكد من صحته ، فإن وجد فيه نقصاً أو خطأً أشار عليهم بتصحيحه في الحال(٢٤١) .

(وكان من الرجال الذين كُلفوا بذي المسؤولية الكبيرة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ...)(٢٤٢) . حتى (أن نص القرآن الكريم ، قرئ بالشكل الذي كتبه به كُتاب الوحي ، وظلّ محفوظاً بهذا الشكل ، حتى وصلنا دون أن يتعرّض لأي تحريف)(٢٤٣) .

والمعروف أن كتابة القرآن كانت بوصية من النبي وقد عين مكان الصُحف المكتوبة على عهده قبل وفاته ، وأنها كانت في بيته وخلف فراشه ، وأن الإمام جمع الموجود من القرآن في ثوبٍ أصفر ، ثم ختم عليه في بيته وتعهّد أن لا يخرج من بيته بغير رداءٍ حتى يجمع القرآن ؛ و(أن النبي ص قال في مرضه الذي تُوفي فيه لعلي: يا علي ، هذا كتاب الله خذهُ إليك) . فجمعه علي في ثوب ، فمضى به إلى منزله ، فلما قبض النبي جلس علي فآلفه كما أنزله الله ، وكان به عالماً ؛ وفي الأخبار أنّ الإمام جمع القرآن المنزل تارة من دون تفسير وأخرى مع تفسيره ، وأن تأليفه جاء مقروناً بأسباب نزوله ، وفيه نزل ؟ وقد بين الإمام في مصحفه الآيات المكية والمدنية ، والناسخ والمنسوخ ... إلخ(٢٤٤) .

(٢٤١) المصحف الشريف المنسوب إلى علي بن أبي طالب ، مقدمة د طيار التي قولاج ٢٧ ، وأدب الكتاب للصولي ١٦٥ .

(٢٤٢) المصدر نفسه ٢٢ .

(٢٤٣) المصدر نفسه ١٥ .

(٢٤٤) جمع القرآن للشهرستاني ٣٢١/١ .

فالذين ينفون الجمع النبوي ، يبعدون أن يكون المكتوبُ قد أُخذَ منه مباشرة ،
ويُسلّمون من حيث يقصدون أو لا يقصدون إلى الأخذِ من عامّةِ المُسلمين ، ومن
الذين يُتوقَّع منهم الوهم والسّهو والنسيان ، (وكان النسيان كالأمر الطبيعيّ ...
وحفظ المسموعات كالأمر العرضيّ) (٢٤٥) .

(وهذا يعني أنّ الكلام سوف يتأرجح بين النسيان والذكر ، بين الأصل والطارئ ،
بل إنّ الكلام نفسه ، وليد جدليّة : الذّكر / النسيان ، وذلك لأنّ الذّكر ينشأ عن
النسيان ، كما أنّ النسيان ينشأ عن الذّكر نشأة مفارقة مضادّة ، فأنا أذكر الشيء
بعد نسيانه ، وأنسى الشيء بعد ذكره ، والذّكر حفظ للشيء ، والنسيان تركُّ له) (٢٤٦) .

وبسبب إنكار الجمع النبويّ الكتابيّ سُردت القصص والروايات ، التي تسيء لمقام
القرآن وقدسيتّه ، وشاعت بعد أكثر من عقدين ، وفي أزمان الاختلاف والفتنة ،
وبعد رحيل صاحب الدعوة النبيّ الكريم ، وهذه هي الثّلثة الكبرى التي يمكن أن
توظّف فيها فضيلة الجمع لغاية من الغايات . وهي فرضيّة واقعيّة مُحتملة وتستند
إلى روايات ودلائل كثيرة . وبحسبها يُبعدُ المؤظّفون أو يقربون . من الأشخاص
والروايات . يقربون من يريدون لمصلحة من المصالح السياسيّة ، أو هوى من
الأهواء ، وبها ينفث أمداء الإسلام أبواب التشكيك بالنصّ القرآنيّ الكريم ،
لاختلاف هذه الروايات ، وضعف مضامينها ، فنُضربُ الدعوة الإسلاميّة . فيما

(٢٤٥) موادّ البيان لعليّ بن خلف الكاتب ٢٢ .

(٢٤٦) كلام الله ، الجانب الشفاهي ٣٤ .

يتمنى الأعداء . بالصميم ، وهذا هو الذي يسعون إليه ، ويبدلون من أجله الغالي والنَّفيس .

أما الشهادة للإمام أو (الشهادة منه) فتظهر اتّصاله بالقرآن الكريم ، وعنايته بنصّه، واختصاصه به ، وتهيئة النبيّ ص له للإسهام بحفظه ، وإشاعته ، وتبيان معانيه، وسأعرض في فصلنا هذا استعداد الإمام لجمع القرآن ، ومؤهلاته التي يذكُر صاحبُ الصواعق المحرقة بعضُها ناقلاً عن الإمام : (والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت ، وأين نزلت ، وعلى من نزلت ؛ إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ، ولساناً ناطقاً ، وأخرج ابن سعد وغيره عن أبي الطُّفَيْلِ قَالَ عَلِيٌّ : سلوني عن كتاب الله ، فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت أبليل نزلت أم بنهار ، أم في سهل أم جبل ، وأخرج ابن أبي داود عن مُحَمَّد بن سيرين قَالَ : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطأ عليٌّ عن بيعة أبي بكر ، فلقيه أبو بكر فقال : أكرهت إمارتي ، فقال لا ، ولكن آليت لا أردني بردائي إلا إلى الصلاة ، حتى أجمع القرآن ، فزعموا أنه كتبه على تنزيله ، قال مُحَمَّد بن سيرين : لو أصبت ذلك الكتاب كان فيه العلم...)^(٢٤٧) ؛ على تنزيله : كما هو من غير تغيير ، وعلى ترتيب نزوله في رأي آخر .

وسأعرض ما تهيأ للإمام من ظروف وإمكانات ، وما كان عليه من مواهب ، وما ثبت له من نصوص نبويّة تشهد لمنزلته ، ومن ثمّ بعض ما جرى بينه وبين من تلمذ عليه ، أو تلمذ على تلامذته ، كل ذلك لمصلحة ثبات القرآن وتأكيد نصّه ،

(٢٤٧) الصواعق المحرقة ١٧٥/٢ .

سواء أكان الجمع القرآنيّ منسوباً إليه أو إلى غيره ، جميعه أو بعضه ، لأنه يحمل القرآن الذي يمنع من تحريفه ، هذا القرآن الموثق من مصدره ، وهو الموازي لما عند غيره ، والمراقب له ، والحاكم على صحّته ، والمانع لما يخالفه .

ثانياً : نِعْمَةُ الْقُرْبِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ

إنَّ الإمام علي بن أبي طالب كان قد حَظِيَ بحضارة الرسول ص ، في سنّي عمره الأولى ، وكان قد لقي الرعاية منه ، إذ أخذه (من أبيه وهو صغير في سنّة أصابت قريشاً ، وقحط نالهم ، وأخذ حمزة جعفرًا ، وأخذ العباس طالبًا ، ليكفوا أباهم مُؤنَّتهم، ويخففوا عنه ثقلهم ، وأخذ هو عقيلًا لميل كان إليه ، فقال رسول الله ص : اخترتُ من اختار الله لي عليكم عليًّا) (٢٤٨) .

وفي شرح نهج البلاغة : (نكر أحمد بن يحيى البلاذريّ وعليّ بن الحسين الأصفهانيّ أنّ قريشًا أصابتها أزمة وقحط ، فقال رسول الله ص لِعَمِيهِ ؛ حمزة والعباس : "ألا نحمِلُ ثقلَ أبي طالب في هذا المَحَلِّ!" فجأؤوه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم ، فقال : دعوا لي عقيلًا وخذوا من شئتم . وكان شديد الحب لعقيل . فأخذ العباس طالبًا ، وأخذ الحمزة جعفرًا ، وأخذ محمد ص عليًّا ، وقد قال لهم : "قد اخترت من اختار الله لي عليكم . عليًّا" ، قالوا : فكان عليّ ع في حجر رسول الله ، منذ كان عمره ستّ سنين ... وكان عمره يوم إظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة ، وتسليمه إلى رسول الله ص من أبيه وهو ابن ستّ ، فقد صحّ أنّه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين ؛ وابن ستّ تصحّ منه العبادة إذا كان

(٢٤٨) مقاتل الطالبين ٤١ .

ذا تمييز، على أن عبادة مثله هي التعظيم والإجلال وخشوع القلب ، واستخذاء الجوارح ، إذا شاهد شيئاً من الله سبحانه وآياته الباهرة ، ومثل هذا موجود في الصبيان(٢٤٩) .

والإمام نفسه يذكر هذه الملازمة ، التي تُعيد عرض نصٍّ من نصوصها لأهميته: (قَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ص بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعْنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ وَيُسْمِنُنِي عَرَفَهُ وَكَانَ يَمْضَعُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ ، وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ ... وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا وَيَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِجِرَاءٍ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَهُ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ ص وَحَدِيجَةَ وَأَنَا تَالِثُهُمَا ، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ ، وَأَشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ ص ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّنَّةُ ؟ فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى ، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ ...) (٢٥٠) .

وفي تفسير ابن كثير (لما نزلت ... ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ . الشعراء ٢١٤) ، جمع النبي ص من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا ، وقال لهم : "من يضمن عني ديني ومواعيدي ، ويكون معي في الجنة ، ويكون خليفتي في أهلي ؟ ... قال : فعرض هذا على أهل بيته ، فقال عليٌّ : أنا" (٢٥١) .

(٢٤٩) مقاتل الطالبين ٢١/١ .

(٢٥٠) نهج البلاغة ، الخطبة : ١٩٢ ، ٢ / ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢٥١) تفسير القرآن العظيم ١ / ٣٧٦ .

قال ابن كثير نفسه بعد أن عرض ما يدور من أحاديث في هذا الشأن : (فهذه طرق متعدّدة لهذا الحديث عن عليّ رض ، ومعنى سؤاله لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه في أهله ، يعني إن قُتِلَ في سبيل الله ، كأنه خشي إذا قام بأعباء الإنذار أن يُقتل ، ولما أنزل الله عزّ وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . المائدة ٦٧﴾ ، فعند ذلك أمِنَ ؛ وكان أولاً يُحرَسُ حتى نزلت هذه الآية "والله يعصمك من الناس" ولم يكن في بني هاشم إذ ذاك أشدُّ تصديقاً لرسول الله ص من عليّ رض ؛ ولهذا بدّرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ص ، ثم كان بعد هذا . والله أعلم . دعاؤه الناس جهره على الصّفا ، وإنذاره لبطنون قريش عموماً وخصوصاً ، حتى سمّى من سمّى من أعمامه ...)(٢٥٢) .

وفي تفسير الطبري : (إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جنّتكم به ، إني جنّتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنني على هذا الأمر ، على أن يكون أخي وكذا وكذا؟! قال فأحجم القوم عنها جميعاً ، وقلت [أي عليّ بن أبي طالب] ... أنا يا نبي الله ... فأخذ برقبتي ، ثم قال : إنّ هذا أخي وكذا وكذا ، فاسمعوا له وأطيعوا ، قال : فقام القوم يضحكون ، ويقولون لأبي طالب ، قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع)(٢٥٣) .

فالثابت أنّ الإمام تربّى في حجر النبيّ ص ، واتّبعه اتّباع الفصيل أثر أمّه ، ولم يفارقه منذ ولادته ، ونصّره عند إظهار دعوته ، وشهد معه المشاهد إلا غزوة تبوك ،

(٢٥٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨٧ .

(٢٥٣) جامع البيان في تفسير القرآن الحديث ٢٨٨٠٦ ، ٩/٤١٤ .

وكان أول المؤمنين به ، وأول المصلين خلفه ، إلى أن كان آخر المودعين له حين ارتفاعه إلى الله تعالى ، ومصدقاً هذا قوله في إحدى خطبه : (... لم يجمع بيتٌ واحدٌ يومئذٍ في الإسلام ، غيرَ رسولِ الله ص وخديجةَ وأنا ثالِثُهُمَا ، أرى نُورَ الوحيِّ والرِّسالةِ وأشْمُ رِيحَ النُّبُوَّةِ ...) (٢٥٤) . حتّى عُدَّ . بسبب هذا القرب وهذه الملازمة . أحد أبناء النبي ص ، (روى الفضل بن العباس قال : سألت أبي عن ولد رسول الله ص الذكور أيهم كان رسول الله له أشدُّ حبًّا فقال : علي بن أبي طالب فقلت سألتك عن بنيه ، فقال : إنه كان أحب إليه من بنيه جميعاً وأرأف ما رأيناه زائله يوماً من الدهر منذ كان طفلاً إلا أن يكون في سفر لخديجة ، وما رأينا أباً أبرُّ بابن منه بعلي ، ولا ابناً أطوع لأب من علي له) (٢٥٥) .

وفي تاريخ الطبري أيضاً : (كان أول ذكرٍ آمن برسول الله ص وصدّقه بما جاءه من عند الله ، علي بن أبي طالب ، وهو يومئذٍ ابن عشر سنين ، وكان ممّا أنعم عليه به على علي بن أبي طالب ع ، أنّه كان في حجر رسول الله ص قبل الإسلام) (٢٥٦) .

(٢٥٤) نهج البلاغة الخطبة: ١٩٢ ، ٢ / ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢٥٥) شرح نهج البلاغة ١٣ / ١٣٨ .

(٢٥٦) جامع البيان ٣ / ٥٥١ .

وقد تكون شهادة النبي ص للإمام من أهم الشهادات ، في مثل ما نحن فيه ، من مثل قوله : (إن الله أمرني أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك ولا أجفوك ، فحقيقٌ عليّ أن أعلمك وحقيقٌ عليك أن تعي) (٢٥٧) .

وقد اعتنى النبي ص به عناية أيما عناية ، منها قول عليّ ع : (كنتُ إذا سألتُ رسول الله ص أعطاني ، وإذا سكتُ ابتدأني) حديثٌ حسنٌ (٢٥٨) . وكان كثيرُ الأسئلة للنبي ص ، فإذا سأله أجاب ، وإذا سكت ابتدأه ، وقد اختصَّ به ، وعهد له ما لم يعهد لغيره ، وقد شهد النبي ص بأعلميته بالقرآن ، في قوله ص : عليّ أعلم الناس بالكتاب والسنة ، وقوله عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ (٢٥٩) .

ومن الشهادات لمقامه ما جاء عن رسول الله (عن أبي سعيد الخدري ، قال شكَا الناس علياً ، فقام رسول الله ص خطيباً فقال : يا أيها الناس لا تشكو علياً ، فوالله إنّه لأخيشنُ في ذات الله عزّ وجل) (٢٦٠) .

والأخيشنُ في ذات الله : إذا كان متشدّداً في دينه (٢٦١) ، فإذا كانت هذه هي شهادة النبي ص للإمام :

فهل يسكت الإمام على تحريف القرآن لا سمح الله !؟

ولاسيّما بعد رحيل النبي ص عن الأمة ، وتوليّ غيره أمورها !؟

(٢٥٧) التحرير والتنوير ١٢٩/١٣ - ١٣٠ .

(٢٥٨) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ٢٩١ .

(٢٥٩) المعيار والموازنة ١٠٢ ، وحلية الأولياء ٦٨/١ ، والصواعق المحرقة ١٧٥/٢ .

(٢٦٠) حلية الأولياء ١ / ٦٨ .

(٢٦١) ترتيب جمهرة اللغة ٥٢٦/١ .

ويزداد العجب والاستغراب من السكوت المفترض خطأً بعد تولّي الإمام نفسه الولاية أكثر من أربع سنوات ، إلا أن يكون القرآن الشائع المعروف هو نفسه الذي تسلّمه الإمام من تحت فراش النبي ص ، وهو نفسه القرآن الذي راجعه النبي ص مع جبرائيل قبل رحيله عن هذ الدنيا في رمضان في سنته الأخيرة ، وهو نفسه الذي كان الإمام قد قرأ منه سورة براءة على أهل مكة ، تنفيذًا لما جاء الوحي به على لسان الأمين جبرائيل : ﴿لَنْ يُؤَدِّيَ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ﴾ ، فقال النبي ص : (أُمِرْتُ أَنْ أُبْلِغَهَا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، وَلَا يُؤَدِّيَ عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنِّي ، عَلِيٌّ مِنِّي وَأَنَا مِنْ عَلِيٍّ ، وَلَا يُؤَدِّيَ عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ عَلِيٌّ) (٢٦٢) ، وهو القرآن نفسه الذي ضبط حروفه أبو الأسود الدؤلي ، وهو نفسه الذي يتداوله المسلمون في كلِّ زمان ومكان .

وقد رُوِيَ للمطابقة بين الإمام والنبي لأجل أن تطمئن الأمة إليه : (عليٌّ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ ، وَلَا يُؤَدِّيَ عَنِّي ، إِلَّا أَنَا ، أَوْ عَلِيٌّ) حديثٌ حسن (٢٦٣) ، ورُوِيَ أيضًا : (أَنَا مِنْ عَلِيٍّ وَعَلِيٌّ مِنِّي ، وَلَا يُؤَدِّيَ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ) (٢٦٤) رواه الترمذي وأحمد حديث حسن غريب صحيح (٢٦٥) .

وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، قال : (كنتُ جالسًا في المسجد ، أنا ورجلان معي ، فنلنا من عليٍّ ، فأقبل رسول الله ص غضبان ، يُعرف في

(٢٦٢) المستدرک ١٥/٣ .

(٢٦٣) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطین ١٩٥ .

(٢٦٤) التحرير والتنوير ١٣/١٢٩ - ١٣٠ .

(٢٦٥) المستدرک ١١١/٣ .

وجهه الغضب ، فتعوّذتُ بالله من غضبه ، فقال : ما لكم وما لي ؟ من آذى عليّاً
فقد آذاني ...) إسناده حسن رجاله ثقات (٢٦٦) .

و(أخرج البخاري في صحيحه في تفسير براءة ... بسنده عن حميد بن عبد الرحمن
أنّ أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مُؤدّنين بعثهم يوم النحر
يُؤدّنونَ بمنى ، أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يُطاف بالبيت عُريان ، ثم قال
حميد بن عبد الرحمن : ثم أردف رسول الله عليه وسلم بعليّ بن أبي طالب ، وأمره
أن يؤدّن ببراءة (٢٦٧) . و(... بعث النبي ص عليّاً ببراءة ، وعزل أبا بكر ، إنّما
كان بأمر من ربّه بنزول جبرئيل : "أنّه لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك" ، ولم
يقيد الحكم في شيء من الروايات ببراءة أو نقض العهد ، فلم يرد في شيء منها:
لا يؤدّي براءة أو لا ينقض العهد إلّا أنت أو رجل منك ، فلا دليل على تقييده
ببراءة ، على ما وقع في كثير من التفاسير ، ويؤيد الإطلاق ... أنّ عليّاً ع كما
كان ينادي ببراءة ؛ كذلك كان ينادي بحكم آخر ، وهو أنّ من كان له مدة فهو
إلى مدته ، ومن لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر ... لا دليل على تقييد الكلام
على إطلاقه أصلاً) (٢٦٨) .

(٢٦٦) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهاء والسبطين ٢١٧ .

(٢٦٧) صحيح البخاري ٦٧١/١ ، وفتح الباري ٣٨٨/٩ .

(٢٦٨) الميزان ١٣٥/٩ - ١٣٦ .

ثالثاً : الشهادة لمنزلة أمير المؤمنين

في رواية شائعة (عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، قال : أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً ، فقال : ما منعك أن تسبَّ أبا التُّراب ؟ فقال : أمّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنَّ له رسول الله ص ، فلن أسبّه ، لأن تكون لي واحدة منهنّ ، أحبُّ إليّ من حُمُرِ النِّعم : سمعتُ رسول الله يقولُ له ، خلفه في بعض مغازيه ، فقال له عليّ : يا رسولَ الله ، خلفتني مع النِّساء والصِّبيان ؟ فقال له رسول الله ص : أما ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى ، ألا أنّه لا نبوة بعدي ؛ وسمعتَه يقول : يومَ خيبر : لأعطينَّ الرايةَ رجلاً يُحبُّ الله ورسولَهُ ويحبُّه اللهُ ورسولُهُ ... ولمّا نزلت هذه الآية : ، دعا رسول الله ص عليّاً وفاطمة ، وحسناً وحسيناً ، فقال : اللهم هؤلاء أهلي^(٢٦٩) ؛ قال الزمخشريّ : (قدّمهم في الذكر على الأنفس ليُنَبِّه على لطفِ مكانهم وقرب منزلتهم ، وليؤدّن بأنهم مقدّمون على الأنفس مقدّمون بها ، وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحابِ الكساء عليهم السلام ...)(٢٧٠) .

(وعن عبد الرحمن بن سابط ، عن سعد بن أبي وقاص ، قال قدم معاوية في بعض حجّاته ، فدخل عليه سعد ، فذكروا عليّاً ، فنال منه ، فغضب سعد ، وقال : تقولُ هذا لرجلٍ ، سمعتُ رسولَ الله ص يقولُ : من كنتُ مولاه ، فعليّ مولاه ، وسمعتُهُ يقولُ : أنت منِّي بمنزلة هارونَ من موسى ، إلا أنّه لا نبيّ بعدي ،

(٢٦٩) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ٨٦ - ٨٧ ، وصحيح مسلم ، باب فضائل علي بن أبي طالب ٩٠٧ .

(٢٧٠) تفسير الكشاف ١٧٥ .

وسمِعْتُهُ يَقُولُ : لِأَعْطِيَنَّ الرَّايَةَ الْيَوْمَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) حديث صحيح رجاله ثقات (٢٧١) .

و(يُؤْتِرُ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ ، قَالَتْ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ص فَاسْتَدَّ ظَهْرَهُ إِلَى قَبَّةٍ ، ثُمَّ قَالَ : لِأَقُولَنَّ الْيَوْمَ كَمَا قَالَ أَخِي مُوسَى ص : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي ، وَاشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي عَلِيًّا أَخِي ، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ، كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ، وَنُذَكِّرَكَ كَثِيرًا ، إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا)(٢٧٢) .

والشهادة الأكبر هي آية التطهير : (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى النَّبِيِّ ص : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا . الأَحْزَابُ ٣٣﴾ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلْمَةَ ، فَدَعَا فَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا فَجَلَّلَهُمْ ، بِكِسَاءٍ ، وَعَلِيٌّ خَلْفَ ظَهْرِهِ ، فَجَلَّلَهُ بِكِسَاءٍ ، ثُمَّ قَالَ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَازْهَبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا...)(٢٧٣) . وكذلك حديث الثقلين عن زيد بن أرقم ، قال : (لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ص عَنْ حُجَّةِ الْوُدَّاعِ ، وَنَزَلَ غَدِيرِ خَمٍّ ، أَمَرَ بِدُوحَاتٍ فُقِّمْنَ ، ثُمَّ قَالَ : كَأَنِّي قَدْ دُعِيتُ فَأُجِبتُ ، إِنَّي تَرَكْتُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ وَعِترتي أَهْلُ بَيْتِي ، فَانظُرُوا كَيْفَ تَخْلَفُونِي فِيهِمَا ، فَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا ، حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ وَلِيٌّ كُلِّ مُؤْمِنٍ ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ ، فَقَالَ : "مَنْ كُنْتُ وَلِيًّا ، فَهَذَا وَلِيٌّ ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ" ... مَا كَانَ فِي الدُّوحَاتِ رَجُلٌ إِلَّا رَأَاهُ بَعِينَهُ ،

(٢٧١) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ١٣٨ .

(٢٧٢) المعيار والموازنة ٧١ .

(٢٧٣) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ١٠٥ .

وسمعه بأذنه ... حديث صحيح رجاله ثقات^(٢٧٤) ، ونفيد من هذا النص الملازمة بين كتاب الله . القرآن . والإمام ، اللذين لن يتفرقا .

وكان تبليغ حديث الثقلين عبر حوارٍ ، تجاوب فيه المخاطبون مع صاحب الدعوة ، بعد أن راجع معهم ما صاروا إليه ، ثم يعرض عليهم ما نزل عليه من ربه ، فيما يخص مستقبلهم بعد رحيله ، لأنه يعرف أن الناس مازالوا قريبي عهد بكفر وجاهلية وأن المبلّغ به ابن عمه ، وفي القوم تنافس وفخر ، فالخوف من أن يُفسر هذا التبليغ بالقرابة ، وفي صدور القوم عداوة ، وما منهم رجلٌ إلا وقد وتره الولي المعني بنزول هذه الآية ؛ مع أن النبي أبعد ما يكون عن العصبية ، والرسالة الإسلامية ابتدأت بـ: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) ... فدعا بني عمومته ، وكان الإمام أصق الناس بالنبي ، في حين كان بعض أقرب أقربائه قد حمل لواء معاداته وهذا معروف؛ فكان التبليغ يعني الاستحقاق لتربية المقصود وإعداده للمواقف التاريخية الفاصلة التي تَبَتَّتْ أركان الإسلام ، فناسبت هذه الخطبة حال المخاطبين وقد افْتَبَحَتْ بـ:

أوشك أن أدعى فأجيب ، ما أنتم قائلون؟

فيجيئون نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجاهدت فجزاك الله خيرا، فكان الإقرار بثوابت الإسلام .

(٢٧٤) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ١١٠ ، والطبقات الكبرى ٨٠٩٢ ، ٨٤١٠ .

وفي سؤاله : أستم تشهدون أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدًا عبده ورسوله وأنّ جنّته حقّ ، وأنّ الموت حقّ ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها ، وأنّ الله يبعث من في القبور... إلخ .

فأقرأوا بالسنتهم : بلى نشهدُ بذلك ، قال : اللهم اشهد .

ثمّ قال : أيّها الناس ألا تسمعون؟

فأقرأوا بالتهيؤ الكاملِ لما سيسمعون من أمرٍ خطير .

فيقول ص: إنّي فرطكم على الحوضِ وأنتم واردون ، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين؟

فنادى منادٍ : ما الثقلان؟

قال ص : الأكبرُ كتابُ الله ، والأصغرُ : عترتي، لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض .

ثمّ أخذَ بيدِ عليّ فرفعها ، فقال : أيّها الناسُ من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

ثمّ قال : الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم .. (فمن كنتُ

مولاة فعليّ مولاة) ، يقولها ثلاث مرّات ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، فليبلغ

الشاهدُ الغائب ، قال تعالى : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم . المائدة ٣﴾ .

وكذلك حديث المنزلة ، فعن أسماء ابنة عميس قالت : (سمعتُ رسولَ الله ص

يقول لعليّ : أنت منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنّه ليس نبيّ بعدي) إسناده

صحيح رجاله ثقات^(٢٧٥) ، ومن أولى مستلزمات استحقاق هذه المنزلة . فيما يبدو .
الحفاظ على النصّ القرآن الكريم .

ومثل ما تقدّم حديث الراية يوم خيبر : (لأُعْطِينَ هذه الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله ،
يفتح الله على يديه ... فدعا رسول الله ص عليّ بن أبي طالب ، فأعطاه إيّاها...)
حديث صحيح رجاله ثقات^(٢٧٦) .

وعن عليّ بن أبي طالب قال : (والذي فلق الحَبّة وبرأ النَّسمة ، إنّه لعهدُ النبيّ
الأميّ إليّ : أنّه لا يُحبُّني إلّا مؤمن ، ولا يبغضني إلّا منافق) ، أو في رواية :
(لقد عهد إليّ النبيّ الأميّ ص : أنّه لا يُحبُّك إلّا مؤمن ، ولا يُبغضك إلّا منافق)
حديث صحيح^(٢٧٧) .

وعن أمّ سلمة أيضاً : (أقبل رسول الله ص غضبانَ مُحمراً وجهه ، فقال : والله لا
يبغضه أحد من أهل بيتي وغيرهم إلّا خرج من الإيمان ، وإنّه مع الحقّ والحقّ
معه! أتذكّرين هذا ؟ قالت نعم !)^(٢٧٨) .

ومن مثله : (من سبّ عليّاً فقد سبّني ، عن أبي عبد الله الجدليّ ، قال : دخلتُ
على أمّ سلمة ، فقالت لي : أيْسَبُّ رسول الله فيكم ؟ فقلتُ معاذ الله ، أو سُبْحان

(٢٧٥) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ١٦٤ .

(٢٧٦) المصدر نفسه ١٢٩ ، ١٣٧ .

(٢٧٧) المصدر نفسه ١٩٧ .

(٢٧٨) المعيار والوازنة ٢٧ .

الله ، أو كلمة نحوها ، قالت : من سبَّ عليًّا فقد سبَّني) أسناده صحيح رجاله ثقات (٢٧٩) .

قال أمير المؤمنين : (بعثني رسول الله ص إلى اليمن ، فقلت : إنك تبعثني إلى قوم أسُّ منِّي ، فكيف القضاء فيهم ؟ فقال : سيهدي الله قلبك ، ويثبت لسانك ، قال فما تعاييتُ في حكومة بعدُ) حديث صحيح (٢٨٠) ، ودعاء النبي ص بهداية قلب الإمام ، وثبات لسانه ، وسداده ، ما يرفع مقامه العالي .

و(دعا رسول الله ص عليًّا يومَ الطائف ، فانتجاه ، فقال الناس : لقد طال نجواه مع ابن عمِّه ، فقال رسول الله ص : ما أنا انتجته ، ولكنَّ الله انتجاه) أي أنَّ الله أمرني أن أناجيه ، حديث حسن غريب (٢٨١) .

وعن ابن عباس : (كاتبُ الكتابِ يومَ الحُدَيْبِيَّةِ عليُّ بن أبي طالب) إسناده صحيح رجاله ثقات (٢٨٢) ، وهذا الحديث من أدلَّة كتابة الإمام للنبي ص مثلما عرضنا سابقًا .

وعن عبد الله بن مسعود : (أعلمُ أهل المدينة بالفرائض علي بن أبي طالب) إسناده صحيح رواه ثقات (٢٨٣) .

(٢٧٩) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهاء والسبطين ١٩٩ .

(٢٨٠) المصدر نفسه ٢٠٥ .

(٢٨١) النهاية في غريب الحديث ٥ / ٢٥ .

(٢٨٢) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهاء والسبطين ٢٦٦ .

(٢٨٣) المصدر نفسه ٢٦٧ .

وعن أمير المؤمنين ع ، قال : (إِنَّمَا مَثَلُنَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَسَفِينَةِ نُوحٍ ، وَكِتَابِ حِطَّةٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ) إسناده صحيح^(٢٨٤) .

وفي خطبة الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب بعد استشهاد أمير المؤمنين : (فَارْقَمِ رَجُلًا بِالْأَمْسِ ، لَمْ يَسْبِقْهُ الْأَوَّلُونَ بِعِلْمٍ وَلَا يُدْرِكُهُ الْآخَرُونَ ...) إسناده صحيح^(٢٨٥) .

وفي الكامل في التاريخ : (وَاللَّهِ مَا سَبِقَهُ أَحَدٌ كَانَ قَبْلَهُ ، وَلَا يَدْرِكُهُ مَنْ يَكُونُ بَعْدَهُ...) ^(٢٨٦) .

فأهل البيت هم الضمان لعدم تحريف القرآن^(٢٨٧) ، وإن مدرسة أهل البيت لا ترضى الاختلاف وتدعو إلى وحدة الكلمة في أمر القرآن ، ولزوم القراءة بما اشتهر عند الناس ، وأن الإمام عليًا وقف أمام دعاة الاختلاف بقوله : (إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَهَاجُ الْيَوْمَ وَلَا يُحَرِّكُ) ^(٢٨٨) .

(٢٨٤) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ٢٧٤ .

(٢٨٥) إعلام الوری ٢٠٨ ، ومناقب آل أبي طالب ٣١/٤ .

(٢٨٦) ٤٠٢ - ٤٠١/٣ .

(٢٨٧) جمع القرآن للشهرستاني ٢ / ٢٣١ - ٢٤٠ .

(٢٨٨) الميزان ١٩ / ١١٣ .

ومن أمثلة التمسك بالقرآن الواحد ، ما نُقِلَ (عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : كنت أقرئ الحسن والحسين فمرّ عليّ بن أبي طالب وأنا أقرئهما فقال لي : أقرئهما وخاتم النبيين بفتح التاء) (٢٨٩) .

وعنه أيضًا : (كنت أقرأ أنا والحسن والحسين قريبًا من عليّ ع وعنده ناس قد شغلوه، فقرأنا : "وَأَرْجُلَكُمْ" ، فقال رجل : وَأَرْجُلَكُمْ بالكسر ، فسمع ذلك عليّ ع فقال : ليس كما قلت ثم تلا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . المائدة ٦﴾ هذا من المقدم والمؤخر) (٢٩٠) .

رابعًا : تأهيل الإمام واستعداده

من الشهادات التي توثق أخذ الإمام عن رسول الله ، أنه أولهم لحوقًا به وأشدّهم لزوقًا به (٢٩١) ، إذ لازمه في جميع مراحل حياته مثلما عرضنا ، فله السابقة والعلم والحكمة ، فعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . الواقعة ١٠ . ١١﴾ ، عليّ بن أبي طالب سبق إلى رسول الله ، و(سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين ، عليّ بن أبي طالب ، ومؤمن آل فرعون ، وصاحب ياسين وهم الصديقون ...) (٢٩٢) .

(٢٨٩) الميزان ١٦ / ٢٦٥ .

(٢٩٠) موسوعة الإمامة في نصوص أهل السنة ٢٩ / ٣١٣ .

(٢٩١) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ٢٩٢ .

(٢٩٢) تاريخ بغداد ١٤ / ١٥٥ ، والسيرة لابن هشام ١ / ١٧٦ .

(وروى أبان بن عيَّاش ، قال : سألت الحسن البصريَّ عن عليِّ ع ، فقال : ما أقول فيه ! كانت له السابقة ، والفضل والعلم والحكمة والفقهِ والرَّأي والصُّحبة والنَّجدة والبلاء والزُّهد والقضاء والقراية ، إنَّ عليًّا كان في أمره عليًّا ، رَحِمَ اللهُ عليًّا ، وصَلَّى عليه ! فقلتُ : يا أبا سعيد : أنقول : "صَلَّى عليه" لغير النبيِّ ! فقال : ترَحِّم على المسلمين إذا ذكروا ، وصلِّ على النبيِّ وآله ، وعليِّ خير آله ؛ فقلت : أهو خيرٌ من حمزة وجعفر؟ قال : نعم ، قلتُ وخيرٌ من فاطمة وابنيها ؟ قال : نعم ، والله إنَّه خيرُ آلِ محمد كلِّهم ، ومَنْ يشكُّ أنَّه خير منهم؟! ، وقد قال رسول الله ص : "وأبوهما خيرٌ منهما" ولم يَجِرِ عليه اسمُ شريك ، ولا شربِ خمر ، وقد قال رسول الله ص لفاطمة ع : "زَوَّجْتُكَ خيرَ أُمَّتِي" ، فلو كان في أُمَّته خيرٌ منه لاستنَّاه ، ولقد آخى رسول الله ص بين أصحابه ، فأخى بين عليٍّ ونفسه ، فرسول الله ص خير النَّاسِ نفسًا ، وخيرهم أخًا ، فقلتُ يا أبا سعيد ، فما هذا الذي يُقال عنك إنَّك قتلته في عليِّ ؟ فقال : يا ابن أخي ، أحقُّ دمي من هؤلاء الجبابرة ، ولولا ذلك لشالت بي الخُشب)(٢٩٣) .

ومثل هذا ما كتبه الحسن البصريُّ نفسه إلى السَّبِطِ الأكبر قائلًا : (فإنَّكم معشر بني هاشم ، الفلك الجارية في اللجج الغامرة ، والأعلام النيرة الشاهرة ، أو كسفينة نوح التي نزلها المؤمنون ، ونجا فيها المسلمون)(٢٩٤) .
ومن الشهادات المهمة أيضًا ، أنه :

(٢٩٣) شرح نهج البلاغة ٤/٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٢٩٤) تحف العقول للحزاني ١٦٦ ، عن الشيخ جعفر السبحاني في مقدِّمة التبيان للطوسي ١/ ١١٢ .

١ . تعلم من رسول الله ص تعليمًا خاصًا مباشرًا ، يؤكدُه مثل قوله ص : (فحقيقٌ عليّ أن أعلمك وحقيقٌ عليك أن تعي) الحديث ، وقال الإمام نفسه : (فما نزلت على رسول الله ص آية من القرآن إلّا أفرأنيها وأملاها عليّ وكتبتها بخطي فدعا الله أن يفهمني ويعطيني ، فما نزلت آية من كتاب الله إلّا حفظنيها وعلمني تأويلها؛ وما تركت شيئاً من حلال ولا حرام إلّا وقد حفظته وعلمني تأويله ، لم أنس منه حرفاً واحداً ، منذ وضع يده ص على صدري ، فدعا الله أن يملأ قلبي فهما وعلمًا وحكمًا و نورًا)(٢٩٥) .

٢ . دعا له النبيّ بالحفظ وعدم النسيان ، فقد قال : حينما قرأ قوله تعالى : ﴿وَتَعِيَهَا أَذُنٌ وَاَعِيَةٌ . الحاقة ١٢﴾ ، (سألتُ الله أن يجعلها أذنك ، قال عليّ ع : فما سمعت شيئاً من رسول الله فنسيته)(٢٩٦) ، وقد اتفق الكل على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله ص ، ثم هو أول من جمعه مكتوبًا بين دفتين بعد رحيله ص ، وأضاف ابن أبي الحديد أنّ عليًا ع كان الوحيد الذي حفظ القرآن على عهد رسول الله ص : (اتفق الكل على أنه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله ، ولم يكن غيره يحفظه ، ثم هو أول من جمعه)(٢٩٧) .

٣ . ثبتت على القراءة العامة المأخوذة عن النبيّ ص في عهده ومن بعده : في قوله : (إقرؤوا كما يقرأ الناس) أو اقرؤوا كما علمتم ، لأنّ النبيّ ص نهى عن الاختلاف في القراءة ، أو المنازعة فيها ، ومن هذا ﴿ما رواه عبد الله بن الإمام

(٢٩٥) المعيار والموازنة ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢٩٦) الجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٢٦٤ ، والبحر المحيط ٨ / ٣٢٢ ، والدر المنثور ٦ / ٢٦٠ .

(٢٩٧) شرح نهج البلاغة ١ / ٣٠ .

أحمد في مسند أبيه ، حدّثنا أبو محمد بن سعيد الجرمي ، حدّثنا يحيى بن سعيد الأموي ، عن الأعمش ، عن عاصم ، عن زرّ بن حبيش قال : قال عبد الله ابن مسعود : تمارينا في سورة من القرآن ، فقلنا: خمسٌ وثلاثون آية ، ست وثلاثون آية ، قال: فانطلقنا إلى رسول الله ص ، فوجدنا عليّاً يُناجيه ، فقلنا له : اختلفنا في القراءة ، فاحمّر وجه رسول الله ص ، فقال عليّ : إنّ رسول الله ص يأمركم أن تقرؤوا كما علّمتم (٢٩٨) .

٤ . أكد الإحاطة بموضوع الشهادة لثبات القرآن الكريم من حيث الزمان والمكان ، والحوار مع من حاول التشكيك في ردّ هذه الإحاطة ، قال الإمام : (سلوني عن كتاب الله فإنّه ليس من آية إلا وقد عرفت أبليلٍ أنزلت أم بنهار؟ أم في سهل أم جبل ؟ أو والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت ، وأين نزلت ، وعلى من نزلت وإنّ ربّي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً ناطقاً ؛ لذلك ورد في تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ . الرعد ٤٣﴾ ، أنّ عليّ بن أبي طالب أعلم الأمة بكتاب الله بعد النبيّ ، وأقرأها لكتابه ، وهو الذي عنده علم الكتاب ، وتكاثرت الروايات الصحيحة على هذه الأعلميّة (٢٩٩) ، وعن ابن عباس من عنده علم الكتاب هو عليّ ، لقد كان عالماً بالتفسير والتأويل والناسخ والمنسوخ (٣٠٠) .

(٢٩٨) فضائل القرآن ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٢٩٩) مجمع البيان ٣٨٩/٦ ، والميزان ٣١٧/١١ .

(٣٠٠) ينابيع المودة ١٢١ .

فهو الذي قال : (لو سألتموني عن آية في ليل أنزلت أو في نهار أنزلت ، مكيا ومدنيها ، سفرتها وحضريها ، ناسخها ومنسوخها ، محكمها ومتشابهها ، وتأويلها وتنزيلها لأخبرتكم ، ففي أثناء الشهادة قام إليه رجل يقال له : ذعلب اليماني وكان ذرب اللسان ، بليغاً في الخطب ، شجاع القلب فقال : لقد ارتقى ابن أبي طالب مرقة صعبة لأخجلته اليوم لكم في مسألتني إياه ، فقال : يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك؟ قال: ويلك يا ذعلب لم أكن بالذي أعبد رباً لم أره ، قال : فكيف رأيت؟ صفه لنا؟ قال : (لا تدركه العيون بمُشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان ، قريبٌ من الأشياء غير ملامس ، بعيدٌ منها غير مُباين ... صانعٌ لا بجارحة ، لطيفٌ لا يوصف بالخفاء ، كبيرٌ لا يوصف بالجفاء ، بصيرٌ لا يُوصف بالحاسّة ، رحيمٌ لا يوصف بالترقة ، تعنو الوجوه لعظمته ، وتجبُ القلوب من مخافته)^(٣٠١) ؛ أراد أمير المؤمنين أنّ الرؤية بالبصيرة لا بالبصر ، وأنّ قربه : علمه ، مثلما جاء في قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ . المجادلة ٧﴾ ، و(تعنو الوجوه) أي تخضع ، قال تعالى : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ . طه ١١١﴾ .

فكان حضوره لمثل هذه الشهادة وغيرها نعمة من النعم الإلهية الكبرى التي أفاضها الله سبحانه وتعالى على الإمام علي بن أبي طالب ملازمته الدائمة والمستمرة لرسول الله ص ومصاحبته له ، وفي المستدرك على الصحيحين (عن أبي الطفيل ، قال : رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رض قام على

(٣٠١) شرح نهج البلاغة ٢٦١/٩ .

المنبر، فقال : سلوني قبل أن لا تسألوني ، ولن تسألوا بعدي مثلي ، قال :
فقام ابن الكواء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا﴾ . الذاريات ١ ﴿﴾ ،
قال : الرياح ، قال : فما ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ قال : السحاب ، قال :
فما ﴿فَالجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ الذاريات ٢ ﴿﴾ ، قال : السفن ، قال : فما ﴿فَالْمُصَمِّمَاتِ أَمْرًا﴾
الذاريات ٤ ﴿﴾ ، قال : الملائكة ، قال : فمن ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا
قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسَوْنَ الْفَرَارِ﴾ . إبراهيم ٢٨ ﴿﴾ ، قال : منافقو
قريش، هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه (٣٠٢) ، وفي التحرير والتنوير
(المراد بـ "الذين بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ" : صناديد المشركين
من قريش) (٣٠٣) .

الخلاصة

إنَّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كان المؤهل لجمع القرآن والمحافظة عليه
استنادًا إلى :

- ١ . أنَّ الأمام لازم النبيِّ وقرَّبه منه ، من بدءِ حياته حتى آخر لحظة من
لحظات عمره الشريف ، فكان أقربَ النَّاسِ عهدًا برسول الله ص ، وقرابته قريبة
ومنزلته خصيصة من رسول الله ، فكان يُسارَه ويُناجيه ، ويشهد المشاهد معه .
- ٢ . أنَّ تعليمه من رسول الله ص تعليمًا خاصًا مباشرًا ، ما نزلت على رسول
الله ص آية من القرآن إلَّا أقرأه إيَّاها ، وأملاها عليه ، وكتبها الإمام بخطه ،

(٣٠٢) ٢ / ٤٦٧ ، الاحتجاج ١ / ٣١٣ - ٣١٤ .

(٣٠٣) التحرير والتنوير ١٢ / ٢٥٣ .

يقول : وما نزلت آية من كتاب الله إلا حَفَظْنِيهَا وَعَلَّمَنِي تَأْوِيلَهَا؛ وما تركت شيئاً من حلال ولا حرام إلا وقد حفظته وَعَلَّمَنِي تَأْوِيلَهُ ، لم أنس منه حرفاً واحداً، منذ وضع يده ص على صدري ، فدعا الله أن يملأ قلبي فهماً وعلماً وحكماً و نوراً .

٣ . أن جمع القرآن كان بوصية من النبي ص ، وقد عين مكان الصحف المكتوبة على عهده لتعهد إلى الإمام قبل وفاته ، (أن النبي ص قال في مرضه الذي توفي فيه لعلي: يا علي ، هذا كتاب الله خذهُ إليك) .

٤ . أن علي بن أبي طالب أعلم الأمة بكتاب الله بعد النبي ، وأقرأها لكتابه ، وهو الذي عنده علم الكتاب ، وتكاثرت الروايات الصحيحة على هذه الأعلمية، وعن ابن عباس من عنده علم الكتاب هو علي ، لقد كان عالماً بالتفسير والتأويل والناسخ والمنسوخ . وأن الإمام كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله ص ، ثم هو أول من جمعه مكتوباً بين دفتين بعد رحيله رسول الله ص .

٥ . أن الإمام علياً وقف أمام دعاة الاختلاف ، وسكوته على المتداول في زمن الخلفاء قبله ، ولاسيما بعد توليه ، وهذا ما يدلُّ على أن القرآن هو هو الذي تسلمه الإمام من رسول الله .

فكان الإمام قد بلغ المنزلة الرفيعة التي رفعه الله إليها ، وارتقى إلى المقام السامق الذي كان له ، والمُتَّق عليه ، ولم يُخْتَلَف فيه ، ما يؤهله للحفاظ على القرآن الكريم والحرص عليه ومنع تغييره ، بلة السكوت على الزيادة فيه ، أو النقصان منه ، نقول هذا : بعيداً عن أيّ تعصّبٍ سياسيٍّ أو مذهبيٍّ له أو عليه، ممّا يدّعيه أيّ طرف من الأطراف .

الفصل السادس : شهادة حديث الأذن الواعية

أولاً : دلالة الأذن الواعية

الأذنُ : عضو السَّمْع ، والحاسّة من الحواسِّ ، وأذِنَ : استمع ، قال تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ . الانشقاق ٢٠١﴾ ، أي استمعت وأطاعت ، وحُقَّ لها أن تسمع ، سمعت أمر ربها بالانشقاق وأطاعته^(٣٠٤) ، ورجل أذنٌ : إذا كان يسمع مقال كلِّ أحد ، ويقبله ، قال تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلُّ أَدْنَىٰ حَيْرٍ . التوبة ٦١﴾ ، أَدْنَىٰ حَيْرٍ وصلاحٍ لا أَدْنَىٰ شَرٍّ^(٣٠٥) ، فالأذن السامعة، والمعنى الآخر العلم والإعلام، تقول العرب : قد أَدْنَتْ بهذا الأمر أي عَلِمْتُ وَأَدْنَيْتُ أَعْلَمْنِي ، وفعله بإذني أي بعلمي^(٣٠٦) ، والأذان للصلاة : النداء والإعلام بها ، وبوقتها ، وأدنته بكذا وكذا ، إذا أعلمته .

والواعية : من وعى الشيء ، والحديث يعيه وعياً ، وأوعاه : حَفِظَهُ ، والوَعْيُ حِفْظُ القلب ، وفلان أوعى من فلان : أَحْفَظُ وَأَفْهَمُ ، والوَعْيِيُّ : الحافظ الكَتِيسُ الفقيه ، وفي الحديث : لا يُعَدِّبُ اللهُ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنَ ، أي عَقَلَهُ إيمانًا به وعملاً ، أمّا من

(٣٠٤) المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته ١٤١٩ ، ١ / ٧٢٩ .

(٣٠٥) لسان العرب ١ / ٥٢ .

(٣٠٦) معجم مقاييس اللغة ١ / ٧٧ .

حفظ ألفاظه وصيغ حدوده فإنه غير واعٍ له ، والوعاء : ظرف الشيء (٣٠٧) ، ووعيت العلم أعيه للدلالة على ضم الشيء إلى الشيء (٣٠٨) ، وأوعاه حفظه .

والمعنى المحوري لوعاه وأوعاه والأوعية : حوز الشيء في الجوف ، وما يتجمع فيه حتى يمتلئ به : كالشيء في وعائه يمسكه ويحوزُهُ ، وقوله تعالى : ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى . المعارج ١٨﴾ ، جمع المال في أوعية تمتلئ به يكنزه تكاثراً ، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ . الانشقاق ٢٣﴾ ، بما يكونون في صدورهم ، أما الأذن الواعية : فالحافظة ، بخلاف دلالة قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا . الأعراف ١٧٩﴾ (٣٠٩) ، أي لا ينفعون بما يسمعون كالبهائم .

والآذان الواعية : القلوب الواعية للحق ، وهي أقل عددًا من غيرها ، من بني البشر ، وقد جاءت في القرآن الكريم سبع مرات في الآيات المدنية ، وإحدى عشرة مرة في المكيّة ، وأكثرها وردت مورد الإعراض عن الحق ، مثل قوله تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . البقرة ١٩ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ . فصلت ٤٤ ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا . الأعراف ١٧٩﴾ ، وورودها هذه الموارد على سبيل المجاز (٣١٠) .

(٣٠٧) لسان العرب ٤٨٧٧/٦ .

(٣٠٨) معجم مقاييس اللغة ١٢٤/٦ .

(٣٠٩) المعجم الاشتقاقي الموصل لألفاظ القرآن الكريم ١٣٧/٢ .

(٣١٠) المعجم في فقه لغة القرآن ٧٩٤/١ - ٧٩٥ .

وحين قراءة قوله تعالى من سورة الحاقة : ﴿لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ .
الحاقة ١١ . ١٢﴾ ، دعا رسول الله ص لعلِّي ، أن تكون أذنه .

وأما الحاقة التي تضمّنت هذه الآية فيومُ الجزاء والحساب والحقّ الموعود، الذي سيكون في المستقبل ، وفي هذه السورة تهديدُ المكذّبين بيوم القيامة ، وتذكيرهم بما حلَّ بالأُمم التي كذّبت بهذا اليوم في هذه الدنيا ، وفي الوقت نفسه التذكير بنجاة نوح ع ومن معه من الطوفان ، ففي قوله تعالى : ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . الحاقة ١١﴾ ، و(حَمَلْنَاكُمْ) إشراك المخاطبين مع المكذّبين السابقين ، أي الانتقال بالالتفات من ضمير الغياب إلى ضمير الخطاب ، وهو الالتفات لطيف ، بإشراك أولئك بهؤلاء ، لأنَّ وجود هؤلاء لنجاة أولئك ، والانتقال من الماضي إلى الحاضر (٣١١) .

وفي السورة نفسها تنزيهُ الرسول ص ممّا ينسبونه إليه من شعر أو كهانة ، بتثبيت دعوته من ربِّ العالمين ، وفي الوقت نفسه التشدّد معه ص من إمكان التغيير في القرآن الكريم . ذلك لأخذ العبرة . وفي إيصال النّص كما هو من دون تبديل أو تغيير ، في قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ . هود ٣٩ . ٤٨﴾ (٣١٢) ، كلُّ هذا على معنى الافتراض ب (لو)

(٣١١) أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ١٧١ .

(٣١٢) التحرير والتنوير ١٠٣/٢٩ .

الامتناعية ، أي (لو كَذَّب علينا واختلف ما لم نقله ، أي لو تكلف القول وأتى من عند نفسه "لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ" ... على وجه الإذلال ... فما منكم أحد يحجزنا عنه ، والمعنى أنه لا يتكلف الكذب من أجلكم ، مع علمه أنه لو تكلف ذلك لعاتبناه...) (٣١٣) ، فربما لهذا التشدد كان قد نُقِلَ عن رسول الله ص : (شيبتي هود والواقعة والحاقة ...) (٣١٤) .

فالتشدد موجّه لحامل النص نفسه ، فلا زيادة في القرآن ، ولا نقصان منه ، وفي الوقت نفسه يمكن أن تكون تهديدًا لمن يدّعي التغيير أو تعدد النصّ الكريم ، أو من يدافع عن التغيير أو الاختلاف فيه ، لأنّ شدة النصّ مع المبعوث رحمة للعالمين ، تُشَيِّ بالتهديد والوعيد ؛ فإذا كان التهديد مُوجّه إلى الرسول الصادق الأمين في رسالته بهذه القوة ، فكيف بغيره !؟

إذن لا بُدّ أن يتنبّه الذين يتصدّون للحديث عن جمع القرآن ، ويدلون بدلوهم في تثبيت نصّه خارج الجمع الصادر عن رسول الله ص ، أن يلحظوا شدة التوجيه الربّانيّ وعظيم عقوبته وقوة انتقامه ، فلا يعقل أن يسقط منه شيء بعد أن انتشر ، فما من حاجز من النبيّ ص نفسه ، فكيف بمن يُدافع عمّن يخالف النصّ المتداول لأيّ سبب من الأسباب ، كغزارة علمه ، أو علوّ مقامه ، أو كثرة أتباعه ؛ نقولُ هذا لأنّ القرآن من الشأن الخطير ، ولأنّه واحد ، والقراءات غير القرآن ، وبعض القراءات ربما تغيّر المعنى ، أو يفهم من بعضها تحريف القرآن ، فهو ﴿كِتَابٌ

(٣١٣) مجمع البيان ٤٤٢/١٠ .

(٣١٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ، ٦٤١/٢ .

أُحْكِمَتْ آيَاتِهِ . هود ﴿١﴾ ، و ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ . يونس ٦٤﴾ ، و ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ . فصلت ٤٢ ﴿... إلخ .

ثانياً : تكرار لفظ الأذن في القرآن الكريم

الأذن تلك الحاسة التي تمكّن من السَّمْع ، وسيلة من وسائل التعلّم والإدراك في الدنيا ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . النحل: ٧٨﴾ ، ومن مبادئ العلم مبدأ التّصوّر هو الحسّ ، والعمدة فيه السمع والبصر (٣١٥) .

وقد تكررت مفردة (الأذن) السامعة ستّ مرّات في القرآن الكريم ، هي :

١ . ﴿وَالأُذُنَ بِالْأُذُنِ . المائدة ٤٥﴾ المساواة في القصاص تعظيماً للفعل ، ومن تصدّق فهو كفارة له (٣١٦) .

٢ . ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ . التوبة ٦١﴾ ، الأذن : الرجل الذي يُصَدِّقُ كلّ ما يسمع ويقبل قول كلّ أحد ، سُمِّيَ بالجارحة التي هي آلة السماع (٣١٧) .

(٣١٥) الميزان ٢٥٥ / ١٢ .

(٣١٦) تفسير الكشاف ٢٩٢ .

(٣١٧) المصدر نفسه ٤٣٩ .

٣ . ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ﴾ . لقمان ٧ ، أي ثقلاً كأنه لا يسمع الآيات .

٤ . ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ . هود ١٢ ، وعيت الحديث وعياً : حفظته وتدبرته ، والوعاء ما يوعى فيه الشيء أي يُجمع ، وعيته : استوعبته ، والاستيعاب هو أخذ الشيء كله^(٣١٨) ، وجعل الشيء في وعاء ، والمراد بوعي الأذن ، الاستقرار في النفس ، لتترتب عليها فائدة التذكر والاتعاظ ، ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ ، أما السمع في القرآن الكريم فهناك درجات في تلقّيه ، من حيث الفهم أو من عدمه ، فمن أمثلة عدم الفهم قوله تعالى : ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ . البقرة ١٧١ ، ﴿أي مثلهم في دعائك إيّاهم إلى الإيمان، كمثل الناقع في دعائه المنعوق به من البهائم التي لا تفهم وإنما تسمع الصوت﴾^(٣١٩) . وقد يسمعون ويفهمون كلام ، الله لكنهم يحرفونه ، لفساد معتقدتهم، في قوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . البقرة ٧٥ ، فما يسمعون ويفهمونه لا يكون مدخلاً للإيمان بل للتغيير والتحريف ؛ أما الاقتناع بعد السماع والفهم فهو الأعلى درجة ، في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ... الأنعام ٣٦﴾ ، يستجيبون لما يسمعون

(٣١٨) المصباح المنير ٦٦٦ .

(٣١٩) مواهب الرحمن ٣٤٣/٢ .

ويقبلون الوعظ ودعوة الإيمان عن معرفة وقناعة ، بأن جعل الله لهم قلوباً يفقهون بها وآذاناً يسمعون بها(٣٢٠) .

أما ﴿الأُذُنُ الواعية﴾ . موضوعنا في فصلنا هذا . فهي التي عقلت عن الله فانفتحت بما سمعت من كتاب الله ، وتميّزت هذه الأذن بالحفظ والعقل الراجح والوعي الكامل، وفي الحديث : قال ص لعلّي : "يا عليّ إنّ الله أمرني أن أدنّيك ولا أقصيك، وأن أعلمك وأن تعي ، وحقّ على الله أن تعي"(٣٢١) ، فوعي الإمام بدعاء النبي ص ، وبإرادة من الله عزّ وجل ، لكنّ الغماري في استدراكه على الذهبي يقول : (ولكنّ الذهبي إذا رأى حديثاً في فضل عليّ ع بادر إلى إنكاره بحق وبباطل، حتّى كأنّه لا يدري ما يخرج من رأسه سامحه الله)(٣٢٢) .

فقوله تعالى : ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ . الحاقّة ١٢﴾ . أي : تحفظها وتسمعها أذن حافظة لما جاء من عند الله ، ويقال وعيت كذا أي حفظته في نفسي، أعيه وعياً ، ووعيت العلم ، ووعيت ما قلت كله بمعنى . وأوعيت المتاع في الوعاء . وكل ما حفظته في غير نفسك : "أوعيته" بالألف ، ولما حفظته في نفسك "وعيته" بغير ألف(٣٢٣) .

(٣٢٠) التحرير والتنوير ٨٠/٦ .

(٣٢١) الدر المنثور ٢٦٠/٦ .

(٣٢٢) الحافظ أحمد بن الصديق الغماري وجهوده في خدمة الحديث من خلال أجزائه الحديثية ٤٢٩ .

(٣٢٣) تهذيب اللغة ٣/ ٢٥٩ - ٢٦٠ ، ولسان العرب ٤٨٧٦/٦ - ٤٨٧٧ .

وربط أهل التفسير سبب النزول بما قرأه النبي ص لقوله تعالى : ﴿لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ﴾ . الحاقّة ١٢ ، أنه (التفت إلى عليّ فقال : سألت الله أن يجعلها أذنك ، قال عليّ ع : فما سمعت شيئاً من رسول الله فنسيته) (٣٢٤) ؛ أو قال ص : (سألت الله أن يجعلها أذنك يا علي ، قال عليّ رض : فما نسيت شيئاً بعد ، وما كان لي أن أنسى...) (٣٢٥) . قال ابن عطية : (يُروى أنّ رسول الله ص قال لعليّ بن أبي طالب رض : "إنّي دعوت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا عليّ" ، قال عليّ : فما سمعتُ بعد ذلك شيئاً فنسيته) (٣٢٦) ، وفي الكشاف للزمخشري (...) . سألت الله أن يجعلها أذنك يا عليّ ، قال عليّ رض : فما نسيت شيئاً بعدُ ، وما كان لي أن أنسى) (٣٢٧) .

وذكر الواحدي في أسباب النزول عن بريدة قال رسول الله ص لعليّ : (إنّ الله أمرني أن أذنيك ولا أقصيك وأن أعلمك وتعي ، وحقّ على الله أن تعي فنزل ، وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ ، وفي لفظ الثعلبي : وحقّ على الله أن تسمع وتعي ، وفي أسباب النزول للواحدي : (إنّ الله أمرني أن أذنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك أن تعي ، وحقّ على الله أن تعي ، فنزلت : وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ) (٣٢٨) .

(٣٢٤) جامع البيان ٢٦ / ٣٥ ، والجامع لأحكام القرآن ١٨ / ٢٦٤ ، والبحر المحيط ٨ / ٣٢٢ ، والدر المنثور ٦ / ٢٦٠ .

(٣٢٥) تفسير الكشاف ١١٣٥ .

(٣٢٦) المحرّر الوجيز ٥ / ٣٥٨ .

(٣٢٧) ١١٣٥ .

(٣٢٨) أسباب النزول للواحدي ٤٧٣ ، وكنز العمال ١٥ / ١١٩ ، وتفسير الثعلبي ١٠ / ٢٨ .

وتُنهم هذه المنزلة من إحدى خطبه في (نهج البلاغة) ، حيث يقول : (أوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد بعد المعاد ، زادٌ مبلغٌ ، ومعادٌ منجَحٌ ؛ دعا إليه أسمعُ داعٍ ، ووعاها خيرٌ واعٍ ، فأسمعُ داعيها ، وفاز واعيها) (٣٢٩) ؛ (ووعاها خير واعٍ ، أي وعاها عنه جلّ تعالى ... وأسمعُ داعٍ : رسول الله ص ، وعنى بقوله : خيرٌ واعٍ : نفسه ، لأنه أنزل فيه : وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ) (٣٣٠) .

وقوله : (وما شككتُ في الحق مُنذُ أريئُهُ) أي منذُ أُعلمتُهُ ، وقد رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ص لَمَّا بَعَثَهُ لِلْيَمَنِ قَاضِيًا ضَرَبَ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَ : (اللهم اهدِ قلبه ، وثبت لسانه) فكان يقول : ما شككت بعدها في قضاء بين اثنين (٣٣١) .

وقد جاء وصف الأذن في هذه السورة بأنّها واعية ، كناية عن تمكين الموصوف بها من الوعي ، وعي القرآن بحفظه ، والتمكن من معانيه ، وهذا ما يوجب التأمل ، وبه حاجة إلى إدامة التفكير ، فما بين دعاء النبي ص ، ومضمون هذه السورة ، وما كان للإمام من عناية بنص القرآن الكريم ، بحفظه والتوجيه بضبط حروفه ، والتأسيس لقواعد لغته ، فضلاً عن تصريحه بعبارة (سلوني عن كتاب الله) تعبيراً عن معرفته به ، وفي حلية الأولياء : (أنت أذنٌ واعية ، والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين أنزلت ، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً قوولاً) (٣٣٢) .

(٣٢٩) نهج البلاغة ٢٢٢/١ .

(٣٣٠) شرح نهج البلاغة ١٧١/٧ .

(٣٣١) المصدر نفسه ٤١٥ / ١٨ .

(٣٣٢) ٦٧ - ٦٨ .

ثالثاً : دعاء الرسول

أما ما يخصنا أكثر في فصلنا هذا، فهو دعوة رسول الله ص أن تكون الأذن المذكورة في الآية السابقة . تعيها أذن واعية . أذن الإمام ، وما يترتب على هذه الشهادة أو الدعاء من استحقاق ، ولاسيما في الحفاظ على النصّ القرآن الكريم ، في أجواء ما عُرض في هذه السورة ، وما يُمكن أن يُفهم أو يُستنتج ، من دلالة الأجزاء المؤلفة لهذه الآية والآيات الأخرى التي سنعرضها بعد قليل ، من حيث دلالة الدعاء واستعماله في المعجم والاشتقاق والتركيب .

والدُّعاء : الدِّعاء والاستغاثة ، ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ . البقرة ٢٣﴾ ، استغيثوا بهم ، وقال تعالى : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ . غافر ٦٠﴾ ، وهذا ضرب من الدُّعاء ، أو العبادة أي اعبدوني ، وَحَدُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، ﴿وَإِخْرُجْ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . يس ١٠﴾ ، الدعوى : الدُّعاء ، أي يختمون بالثناء على الله ، والدُّعاء : الرغبة إلى الله عز وجل ، والدَّعوة : المرّة الواحدة من الدُّعاء ، ﴿وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ . يونس ٥٧﴾ ، ما يتمنون^(٣٣٣) ، وهو راجع إلى معنى الدعاء ، أي ما يدّعيه أهل الجنّة يأتيهم^(٣٣٤) ، أمّا قوله تعالى : ﴿وَتَعِيهَا أُنْزُورُ . الحاقة ١٢﴾ ، فأنت أيها الإمام بدعاء النبي الأذن الواعية لعلمه ، والأذن الواعية : شأنها أن تعي وتَحْفَظَ ما سمعت به ولا تضيّعه ، (وعن النبي ص أنّه قال لعليّ رض عند نزول هذه الآية

(٣٣٣) التحرير والتنوير ١٢ / ٢٥٣ .

(٣٣٤) مجمع البيان ٨ / ٥٥٤ .

سألتُ الله أن يجعلها أذُنك يا عليّ ، قال عليّ رض : فما نسيت شيئاً بعد ، وما كان لي أن أنسى^(٣٣٥) ، ذلك ببركات دعاء النبيّ .

ومن الأدعية النبويّة المباركة الأخرى ، دعاؤه للإمام ، لما يعينه على التبليغ وإمضاء الرسالة ، حتّى يتمكّن لسانه وقلبه ، من تثبيت الدعوة الإسلاميّة ولاسيما الحفاظ على القرآن الكريم ، لكي لا يسهو ولا ينسى ولا يغلط ، في حال من الأحوال، لكن لم يكن هذا الدعاء مجرد دعاء لشخص الإمام ، بل لحاجة الرسالة ومن ضمنها الإسهام في صيانة النصّ المبارك من التغيير والتبديل ، وكذلك لأجل العمل على تبليغه ، أو في القضاء بين الناس وغير ذلك من الأمور، ومنه ما جاء من أقوال النبيّ في عدّة مناسبات : اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه ، وأعطه الفهم لما يخاصم إليه فيه ، ولقّنه الصواب ، وثبته بالقول الثابت^(٣٣٦) .

وهذا أشبه بدعاء موسى ع لنفسه أو لأخيه هارون ، قال تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاخْلُكْ عُنُقَهُ مِنْ لِسَانِي يَقْفَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْتَدُّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي . طه ٢٥ . ٣٢ ﴾ ، فموسى في هذه الآيات يدعو لنفسه في مواجهة طغيان فرعون ، فرعون الذي قدّم نفسه على موسى واستصغره لما يعلم من حاله القديم ، وهو الذي ذكره القرآن الكريم ، في قوله تعالى : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . الزخرف ٥٢ ﴾ ، لا يبين فيما يتكلم، بسبب العُقدة أو الحُبسة في لسانه ، لذلك دعا موسى بأن يشدّ الله

(٣٣٥) تفسير الكشاف ١١٣٥ .

(٣٣٦) تاريخ بغداد ٤٤٤/١٢ ، ٦٩١٦ ، تاريخ مدينة دمشق ٣٨٩/٤٢ (٩٠٠٢) .

جَلَّ وَعَلَا أَرْزَهُ بِهَارُونَ مِنْ أَهْلِهِ ، لِنَصْحِهِ وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ ، لِأَنَّ مَدَارَ الْأَمْرِ عَلَى الْبَيَانِ وَالتَّبَيُّنِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . إِبْرَاهِيمَ ٤ ﴾ ، فِدْعَاءُ هَارُونَ لِهَذِهِ الصِّفَةِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . الْقَصَصُ ٣٤ ﴾ ، إِذْ إِنَّ فَصَاحَةَ لِسَانِ هَارُونَ سَبَبٌ فِي التَّصْدِيقِ ، بِإِبَانَتِهِ عَنِ الْأَدَلَّةِ الَّتِي يُلْقِيهَا مُوسَى فِي مَقَامِ مَجَادَلَةِ فِرْعَوْنَ ، وَلِأَنَّ الْأَسَاسَ فِي التَّبْلِيغِ وَالِاحْتِجَاجِ ، (الْإِنْفِصَاحَ بِالْحُجَّةِ ، وَالمَبَالِغَةَ فِي وَضُوحِ الدَّلَالَةِ) (٣٣٧) .

أَمَّا نَبِيُّنَا الَّذِي يُوصَفُ بِأَنَّهُ أَفْصَحُ مِنْ نَطْقِ بِالضَّادِ ، فَقَدْ أُرْسِلَ إِلَى أُمَّةٍ ذَاتِ فَصَاحَةٍ وَبِلَاغَةٍ ، وَكَانَتْ مَعْجَزَتُهُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ، الْمُعْجِزَ فِي بِلَاغَتِهِ وَفَصَاحَتِهِ (٣٣٨) ، وَكَانَ دَعَاؤُهُ لِلْإِمَامِ بِمَا يَقْرَبُ مَا جَاءَ بِمُضْمُونِ دَعَاءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْهُدَايَةِ وَالْفَهْمِ وَالتَّثْبِيتِ لَكِنْ بِتَلْقِي الْقَوْلِ وَسَمَاعِهِ لَا بِإِقَائِهِ نَطْقًا وَلِسَانًا ؛ فَالدَّعَاءُ لِلْإِمَامِ بِالْحِفْظِ وَالتَّلْقِي الَّذِي يَثْبِتُ فِي الذَّهْنِ ، بِالْجَارِحَةِ (حَاسَةِ السَّمْعِ) ، وَالْحَرَزِ لِمُضْمَانِ ثَبَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فِي حِينِ كَانِ دَعَاءُ النَّبِيِّ مُوسَى بِالْفَصَاحَةِ وَجُودَةِ النُّطْقِ وَطَلَاقَةِ اللِّسَانِ لِمُوَاجَهَةِ طُغْيَانِ فِرْعَوْنَ ، لَكِي يَتَجَاوَزَ مُوسَى ضَيْقَ الصَّدْرِ وَعَدَمَ انْطِلَاقِ اللِّسَانِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ . الشُّعْرَاءُ ١٣ ﴾ ، فَاسْتَدْعَاءُ هَارُونَ لِلْإِعَانَةِ عَلَى التَّبْلِيغِ وَتَلَاْفِي مَا يَخَافُهُ

(٣٣٧) البيان والتبيين ٧/١ .

(٣٣٨) التحرير والتنوير/٢٧٠ .

موسى، هذا الخوف الذي جاء بالآية التي سبقت آية ضيق الصدر، في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . الشعراء ١٢﴾ .

ويتفقان النبيّ محمد وموسى عليهما السّلام في الغاية بطلب المساعدة بأداء الرسالة من أقرب الناس من أهلها ، ومعروف حديث منزلة الإمام من النبي بمنزلة هارون من موسى، حين استخلفه في غزوة تبوك على أهل بيته، في قوله : (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ألا أنه لا نبيّ بعدي) ، والمعروف أيضًا أنّ الإمام شدّ أزر النبيّ في جميع ما واجهه في الحرب والسلم ، من بدء دعوته حتى استشهاده .

فمدار دعاء موسى لهارون كان لداعي فصاحته ، وطلاقة لسانه في محاجة فرعون وملائته .. أما النبي فكان دعاؤه - فيما يبدو - لادّخار الإمام لمهمات ، منها ما كان العمل على حفظ النصّ من بعد رحيله ، وهذا ما تأكّد عمليًا مثلما سنعرض إن شاء الله .

رابعًا : نجعلها تذكرة

إنّ دعاء النبيّ ص للإمام لغاية الحفظ ، ومن هذا حفظ القرآن الكريم ، الذي فيه نجات الأمة بثبات النصّ الشريف ، ذلك بالربط بقوله تعالى : ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ . الحاقة ١٢﴾ ، أي لنجعل تلك الفعلة التي فعلنا، من إغراق قوم نوح ونجاة من حملنا معه ، ﴿لكم تذكرة﴾ : عبرة وموعظة ، و(لنجمعها) ، اللام للتعليل أداة نصب الفعل المضارع ، ودلالة (نجعل) إمّا بمعنى ظنّ أو اعتقد أو صيرّ أو غيرها ، كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا أَعْرَةَ أَهْلِهَا أَدِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . النمل ٣٤﴾ ،

بمعنى أهانوهم ليكونوا عبرة ، بجعل الأعرزة أدلة ، أي يحولون الأعرزاء أدلاء ، وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً﴾ . الزخرف ١٩ ﴿ ، أي اعتقدوا ، و﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ . الزخرف ٣ ﴿ بيناه ، وقوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ . الأنبياء ٣٠ ﴿ ، أي خلقناه ، أو قوله : ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ . البقرة ٢٥٩ ﴿ إحياء عيسى بعد الموت وحفظ من معه معجزة من الله ، ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ . مريم ٢٢ ﴿ نجعل عيسى ع آيةً وعبرة والبرهان على قدرة الله ٣٣٩ ﴿ ، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمْ سُلْطَانًا﴾ . القصص ٣٥ ﴿ ، نجعل لكم حجةً وسلطاناً وبرهاناً .

أما قوله تعالى : ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ ، فبمعنى : أنتم يا أبناء الناجين من الطوفان، أليق بكم أن تكفروا ؟ والأجدر بكم أن تكونوا إلى جانب الرسول ص ، ولأنَّ إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين تذكرةً للمخاطبين ، و(لنجعل) : فعل مضارع منصوب بأداة النصب اللام ، واللافت أنه لم يأت بصيغة الماضي ، كأن تكون : (جعلناها) ، وهذا يحيل على قضية الدعوة الإسلامية وكتابها المذكور في السورة نفسها ، ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ أيها المخاطبون (تذكرةً) تتأملونها وتعتبرون بها .

وما يدلُّ على المستقبل أيضًا من صيغة (نجعل) ، قوله تعالى : ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ . القصص ٨٣ ﴿ ، في غير هذه السورة ، أما الماضي فمثل قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ . المرسلات ٢٥ . ﴿٢٦﴾ ، بدلالة (لم) التي تقلب المضارع إلى ماضٍ تكفتهم أحياءً عليها وأمواتًا في باطنها .

(٣٣٩) تفسير الكشاف ٦٣٤ .

والفعل (نجعل) من ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ ، في هذا الموضع يتعدى إلى مفعولين ، أصلهما مبتدأ وخبر ، والفاعل مضمر ، وضمير الغائب (ها) العائد على الإنجاء والإغراق : مفعول أول ، والجار والمجرور (لكم) يعود على الفعل ، و(تَذْكِرَةً) مفعول ثانٍ ؛ وهذه هي أجزاء الجملة في الأصل :

ل + نجعل + نحن + الإنجاء والإغراق + لكم + تذكرة = (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً).

ف (التذكرة) من ذَكَرَ يَذْكُرُ ذِكْرًا ، والذِّكْرَى اسم للتذكير والتذكرة ، والذِّكْرُ : حفظ الشيء ، ونقيضه النسيان ، وذكُرْتُ الشيء ، خلاف نَسِيتُهُ ، والذِّكْرُ تارةً يُرادُ به هيئة للنفسِ بها يمكن الإنسان أن يحفظَ ما يقتنيه من المعرفة ، وهو كالحفظِ إلا أن الحفظَ يُقالُ اعتبارًا بإحرازه ؛ والذِّكْرُ يُقالُ اعتبارًا باستحضاره ، وتارةً يُقالُ لحضور الشيء القلب أو القول ، ولهذا قيل : الذِّكْرُ : ذكران ذكرٌ بالقلب ، وذكُرْتُ باللسان^{٣٤٠} ، ويبدو أن (لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً) في القلب ، وما يُستذكرُ بها الحاجة ، ذكُرْتَهُ تَذْكِرَةً وذكُرِي ، قال تعالى : ﴿وَذِكْرِي لِلْمُؤْمِنِينَ . الأعراف ٢ ، وهود ١٢٠﴾ ، الذكُرِي بمعنى الذِّكْر وهو اسم للتذكير وأقيم مقامه ، قال تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرِي تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ . الذاريات ٥٥﴾ ، بمعنى الذِّكْر والتذكير^{٣٤١} .

واستذكر الرجل : رَبَطَ فِي أَصْبَعِهِ خَيْطًا لِيَذَكَرَ بِهِ حَاجَتَهُ ، فالتذكرة ما تستذكر به الحاجة ، والذِّكْرُ أيضًا : الشيء الذي يجري على اللسان ، ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . الأعراف ٦٩﴾ ، وَذَكَرَ يَذَكَرُ ذِكْرًا ، وتذكرة : بوزن تفعلة ، اسم مصدر

(٣٤٠) تاج العروس ٣٧٧/١١ .

(٣٤١) المصدر نفسه ٣٨٠/١١ .

التذكير، وهو التنبية على مفعول عنه ^(٣٤٢) ، والتذكرة : الدلالة والإمارة ^(٣٤٣) على ما يُتَوَقَّع أن يُنسى ، وذكرت لفلان حديث كذا وكذا ، أي قلته له ، والذِّكْر قد يكون بعد النسيان أو الانداس ، قال تعالى : ﴿وَأذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . البقرة ٦٣﴾ ، ادرسوا ما فيه ^(٣٤٤) ، والمراد بالذكر حفظ العلم والعمل به لا مجرد الذِّكْر اللساني، لأنه لا ينفع ما لم يكن مقرونًا بالعمل ^(٣٤٥) ، وقوله : ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . الأحزاب ٤١﴾ ، الذكر ما يقابل النسيان ، وقوله : ﴿وَمَا أَنَسَانِيَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ . الكهف ٦٣﴾ ، النسيان ضدّ الذكر ومحلهما القلب ^(٣٤٦) ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . الحجر ٩﴾ والذكر الكتاب والقرآن .

وقد تكررت صيغة (التذكرة) تسع مرات في القرآن الكريم بمعانٍ متقاربة ، مثلما عرضنا سابقًا ؛ وما يخصنا في هذا المبحث ارتباط التذكرة بـ ﴿وَتَعِيهَا أُذُنٌ وَإِعْيَةٌ﴾: تحفظها حافظة ، فتكون عِظَةٌ لمن يأتي بعدُ ، لذلك بادر النبي ص قائلًا : اللهم اجعلها أُذُنٌ عليّ ^(٣٤٧) .

(٣٤٢) التحرير والتنوير ٢٩ / ١٣٧ .

(٣٤٣) تاج العروس ١١ / ٣٨٥ .

(٣٤٤) المصدر نفسه ١١ / ٣٧٧ .

(٣٤٥) مواهب الرحمن ١ / ٣٨٥ .

(٣٤٦) تاج العروس ١١ / ٣٧٧ .

(٣٤٧) مجمع البيان ١٠ / ٤٣٧ .

و(تذكرة) من قوله تعالى : ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُنْذُنٌ وَإِعِيَّةٌ﴾ . الحاقّة ١٢ ﴿ ، في الأصل خبر لمبتدأ ، على تقدير : هي تذكرة ، قبل دخول (نجعل) ، (هي) أي مدار قصص التذكيب ، وما واجهه الأنبياء من أقوامهم ، وبعد دخول ن جعل تحوّل المبتدأ إلى مفعول أول ، والخبر إلى مفعول ثانٍ .

خامساً : جملة ﴿تَعِيهَا أُنْذُنٌ وَإِعِيَّةٌ﴾

وتحليل جملة : ﴿تَعِيهَا أُنْذُنٌ وَإِعِيَّةٌ﴾ ، من وَعَى يَعِي وَعٍ ، والأمر : عِ يا فتى ، وَتَعِي وَإِعِيَّةٌ ، ﴿وَعَى﴾ من اللفيف المفروق ، الذي افترق فيه حرفا العِلَّة ، ووعاه يعيه وعياً : حَفِظَهُ وَفَهِمَهُ وَقَبَلَهُ ، وَالْوَعَى : حَفِظَ الْقَلْبَ الشَّيْءَ ، وَفَلَانٌ أَوْعَى مِنْ فَلَانٍ ، أَي أَحْفَظُ وَأَفْهَمُ ، وَفِي الْحَدِيثِ : ﴿نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوْعَاهَا ، فَرُبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ ... وَلَا يُعَذِّبُ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنَ﴾ ، أَي عَقَلَهُ إِيمَانًا بِهِ وَعَمَلًا ٣٤٨ ﴿ ، وَالْوَعَاءُ : ظَرْفُ الشَّيْءِ ، وَالْجَمْعُ أَوْعِيَّةٌ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ . يوسف ٧٦ ﴿ ، وَالْإِعْيَاءُ مُصَدَّرُ أَوْعَى ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ . المعارج ١٨ ﴿ ، أَي جَمَعَ الْمَالَ فَجَعَلَهُ فِي وَعَاءٍ وَكَنْزِهِ وَلَمْ يُؤَدِّ حَقَّهُ ٣٤٩ ﴿ ، وَيُقَالُ لَصَدْرِ الرَّجُلِ وَعَاءٌ عِلْمُهُ ، وَاعْتِقَادُهُ تَشْبِيهًا بِذَلِكَ ، وَوَعَى الشَّيْءَ فِي الْوَعَاءِ وَأَوْعَاهُ : جَمَعَهُ فِيهِ ، وَأَوْعَيْتُ الشَّيْءَ فِي الْوَعَاءِ : إِذَا أَدْخَلْتَهُ فِيهِ ٣٥٠ ﴿ ، وَتَعِيَهَا : تَحْفَظُهَا ، فَتَحْفَظُ النِّعْمَةَ أُنْذُنٌ وَإِعِيَّةٌ ، أُنْذُنٌ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحْفَظَ مَا يَجِبُ حِفْظُهُ ، وَتَعِي مَا يَجِبُ وَعِيهِ ،

. (٣٤٨) لسان العرب ٦/٤٨٧٦ .

. (٣٤٩) تفسير الكشاف ١١٤٨ .

. (٣٥٠) لسان العرب ٦/٤٨٧٧ .

واعية من الوعي بمعنى الحفظ للشيء ، ووعاه يعيه حَفْظُهُ على أكمل حفظ ، وبمثل هذا الفهم ندرك أهميّة دعاء النبي ص للإمام ؛ وجاء في الكشاف : (فإن قلت : لِمَ "أدُنَّ واعية" على التوحيد والتتكير ! قُلْتُ : للإيدان بأنّ الوعاة فيهم قلة ، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم ، وللدلالة على أنّ الأذن الواحدة إذا وعت وعقلت عن الله فهي السواد الأعظم عند الله ، وأنّ ما سواها لا يُبالي بهم بالة ، وإن ملؤوا ما بين الخافقين) (٣٥١) ، ويُبالي من بالي يُبالي بالأ وباللة أي يكثر (٣٥٢) ، والبالُ بالُ النَّفسِ ، وما خطر ببالي أي ما أُلقي في روعي ، وما باليت ولم يخطر ببالي ، وراحة البال : رخاء العيش (٣٥٣) .

(وتعيها واعية) ، جناس لطيف ، والجناس : (ما تكون الكلمة تجانس أخرى في تأليف حروفها وانسجام هذا التآلف في النطق) (٣٥٤) ، وهذا التجنيس يناجي العقل والنفس ، وله قوة تعبيرية يجلبها الاشتقاق ، وتتماثل فيه الألفاظ لاتفاق الحروف في اللفظين ، ولا يختلف إلا الوزن ، فالتجنيس حادث فيهما بترجيع جرس الحروف المتماثلة (٣٥٥) .

(٣٥١) لسان العرب ١١٣٥ .

(٣٥٢) المصدر نفسه ٣٩٠/١ .

(٣٥٣) معجم مقاييس اللغة ٣٢٢/١ - ٣٢٣ .

(٣٥٤) جرس الألفاظ ودلالاتها ٢٧٠ .

(٣٥٥) المصدر نفسه ٢٧٥ .

وَتَعْيَهَا : فعل مضارع منصوب ، لأنَّه معطوف على الفعل المضارع قبله المنصوب (لِنَجْعَلَهَا) ، أُنْذِنُ : فاعل مرفوع أُسْنِدَ إليه الفعل ، وَاعِيَةٌ : صفة الأذن بتتوين الرفع.

الخلاصة

كان من الأدعية النبويّة المباركة دعاؤه ص للإمام ، لما يعينه على التبليغ وإمضاء الرسالة ، حتّى يَتِمَّكَ لسانه وقلبه ، من تثبيت الدعوة الإسلاميّة ولاسيما الحفاظ على القرآن الكريم ، لكي لا يسهو ولا ينسى ولا يغلط ، في حال من الأحوال .

لكن لم يكن هذا الدعاء مجرد دعاء لشخص الإمام ، بل لحاجة الرسالة ومن ضمنها الإسهام في صيانة النصّ المبارك من التغيير والتبديل ، وكذلك لأجل العمل على تبليغه ، أو في القضاء بين الناس وغير ذلك من الأمور، ومنه ما جاء من أقوال النبيّ في عدّة مناسبات : اللهم اهد قلبه ، وثبت لسانه ، وأعطه الفهم لما يخاصم إليه فيه ، ولقّنه الصواب ، وثبته بالقول الثابت .

أمّا الربط بين دعاء موسى لهارون ودعاء النبيّ للإمام ، فداعي دعاء موسى لهارون فللحاجة لفصاحته ، وطلاقة لسانه في محاجة فرعون وملئّه ، أمّا النبيّ فكان دعاؤه - فيما يبدو - لادّخار الإمام لمهام منها حفظ النصّ من بعد رحيله ، وهذا ما تأكّد عملياً .

فأذُنُ الإمام أذُنٌ واعية من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه ، وتعي ما يجب وعيه، وبمثل هذا الفهم ندرك أهميّة دعاء النبيّ ص للإمام .

الفصل السابع : شهادة الأداء عن رسول الله

أولاً : أداء سورة التوبة

أدى يؤدى : أعان ، وأدى الشيء أداءً : أوصله ، وأدى دَيْنَهُ تَأْدِيَةً : قضاه ، وتأدى إليه الخبر أي انتهى ، قال تعالى : ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . النخاع ١٨ ﴾ ، أي أدوا يا عباد الله ، من قول موسى لذوي فرعون : سَلِمُوا لِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، أي أطلقوهم من العذاب^(٣٥٦) .

والأداء فيما يعيننا : هو أداء (سورة التوبة) أو براءة إلى المشركين في مكة المكرمة في موسم الحج ، ومفتتح السورة كان بهذا المضمون ، مضمون البراءة من المشركين ، ونبذ عهدهم ، أما التسمية بالتوبة ، فلأنها تكررت في هذه السورة سبع عشرة مرة ، منها بصيغة الفعل ثلاث عشرة مرة ، والاسم أربع مرات ، في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . التوبة ٣ ﴾ .

﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ . التوبة ٥ ﴾ .

﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوَانُكُمْ فِي الدِّينِ . التوبة ١١ ﴾ .

﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ . التوبة ١٥ ﴾ .

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ . التوبة ٢٧ ﴾ .

﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا . التوبة ٧٤ ﴾ .

(٣٥٦) لسان العرب ٤٨/١ .

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . التوبة ١٠٢﴾ .

﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

التوبة ١٠٤﴾ .

﴿وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ . التوبة ١٠٦﴾ .

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ . التوبة ١١٢﴾ .

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ . التوبة ١١٧﴾ .

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . التوبة ١١٧﴾ .

﴿ووظفوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم

. التوبة ١١٨﴾ .

﴿أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون .

التوبة ١٢٦﴾ .

والتوبة : الرجوع عن المعصية إلى الطاعة ، وأصل تاب عاد إلى الله ورجع وأتاب ، وتاب الله عليه : أي عاد بالمغفرة ، أو وقفه للتوبة ، وهو التواب أي الله تعالى يتوب على عباده بفضلته إذا تاب إليه من ذنبه^(٣٥٧) ، والتوبة : الندم على الذنب ،

(٣٥٧) تاج العروس ٧٨/٢ .

وتاب الله عليه : وقَّه للتوبة ، أو رجع به من التشديد إلى التخفيف ، أو رجع عليه بفضله وقبوله ، وهو التَّوَاب على عباده^(٣٥٨) .

والبراءة : برأ يبرأ برءًا وبراءً ، وأبرأ براءة : أي انقطع ما بيننا من عصمة ، والجمع بُرَاء ، الأصل التباعد والمزيلة والمفارقة والخلو ، وأبرأ الله المريض شفاه ، وخلصه من المرض ، والبراء مصدر ، قال تعالى : ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . الزخرف ٢٦﴾ ، نحن في تخلية وبراءة^(٣٥٩) ، وقوله تعالى : ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . التوبة ١﴾ ، البراءة من المشركين ورفع الأمان عنهم ، من الذين لا وثوق بهم ، وإبطال العهود لمخافة هؤلاء وخيانتهم . وبارأتُ الكريَّ إذا فاصلته ، كأنك تدفعُ إليه الكراء ثم تسترجعه منه ، وبارأ الرجل امرأته إذا باينها ؛ وبارأت الرجل مبارأةً ، إذا ذكرت محاسنه فعارضته بذكر محاسنك^(٣٦٠) ، وبرأ المريض من مرضه يبرأ برأً : نَقَه وشفي ، قال تعالى : ﴿وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ . آل عمران ٤٨﴾ ، أي أشفي ، وبرئتُ من المرض : انقطعت أسبابه ، والبراءة : القطع ، وتبرأنا : تفارقنا ، (وأصلُ البرء : خلوص الشيء عن غيره ، إمَّا على سبيل التقصِّي كقولهم : "برئَ المريضُ من مرضه ، والبائع من عيوبِ مبيعه ، وصاحب الدين من دينه" ومنه استبراء الجارية؛ والبراء : أوَّل ليلة من الشهر ، وسُميت بذلك لتبرِّي القمر من الشمس)^(٣٦١) .

(٣٥٨) الكلِّيَّات ١٧٣ - ٢٥٧ .

(٣٥٩) معجم مقاييس اللغة ٢٣٦/١ ، والمعجم الوسيط ٤٥/١ .

(٣٦٠) ترتيب جمهرة اللغة ١١١/١ .

(٣٦١) الكلِّيَّات ٢٠٥ .

وتبراً : تخلص وتخلّى ، قال تعالى : ﴿تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا . البقرة ١٦٦﴾ ، وتبرأ من الرجل إذا انقطعت عصمته منه (٣٦٢) ، والبراءة من المشركين كراهة مجاورتهم ، والإبراء : أن يبرأ أحدنا عن غيره (٣٦٣) .

وسورة براءة أو التوبة أو المُقَشَّقِشَةُ التي تُقَشِّشُ من النفاق ، أي تُبْرِئُ منها ، وتُبَعِثُ عن أسرار المنافقين ، تَبَحُّثُ عنها وتُثِيرُها ، وتحفر عنها وتفضحهم ، وتتكلمهم وتُشَرِّدُ بهم وتُخزِيهم وتُدمدِمُ عليهم ، وهي آخر سور القرآن نزولاً ، نزلت بالسيف ونبذ العهود وقطع الصِّلة ، فلذلك لم تبدأ بالأمان ، وكان تكليف الإمام أمير المؤمنين بإبلاغها ، لتلك الأهمية ، ولذلك الموقف الحاسم .

ثانياً : الأذان بسورة براءة

قال تعالى : ﴿بِرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ . التوبة ٣٠١﴾ ، والأذان هو الإعلام ، إعلام البراءة وإبلاغها إلى المشركين (الذين عاهدتم) الآية ، والمؤذن بالتبليغ . يومئذٍ . عن الله ورسوله عليّ بن أبي طالب .

أذن بأربع كلمات أو مضامين : لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع فيه مؤمن وكافر ، ومن كان بينه وبين النبيّ أجلّ فأجله إلى

(٣٦٢) معجم الفروق اللغوية ٩٥ .

(٣٦٣) الحدود ٦٠ .

مدّته ، وأن يسِيحَ المخاطبون المقصودون في الأرض أربعة أشهر أي يذهبوا لمدّتهم هذه (٣٦٤) .

ويُعَدُّ أداء سورة براءة خطوة كبيرة من خطوات استقرار مجتمع المسلمين ، واستتباب أمنهم وإبعاد التهديد عنهم ، وصورة جديدة من صور التعاطي مع أعدائهم من المُشركين ، ومرحلة فاصلة من مراحل التخلّص منهم ، فأوّل السُورة وعنوانها يشير إلى نبذ المشركين وخلاصة القول فيهم ، وإجمال الموقف منهم ، وإنشاء الحكم بشأنهم ، والقضاء بالبراءة منهم ، لكن ليس بتشريع محض بدليل إشراك النبيّ ص ، ﴿بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية ، إذ أشرك سبحانه وتعالى في هذه البراءة براءة الرسول ، أي أشركه في هذا الحكم ، أي أنّ الله ورسوله بريئان من عهود المشركين ، فالبراءة علّقت بهما ، والقرآن لا ينسب الحكم إلّا إلى الله سبحانه وحده ، قال تعالى : ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا . الكهف ٢٦﴾ ، ولا يُنسب إلى النبيّ إلّا الحكم بالمعنى الذي في الولاية والسياسة وقطع الخصومة ، وأمّا المعاهدة (الذين عاهدتم) فمعلّقة بما عاهد عليه المسلمون (٣٦٥) .

لكن لِمَ علّقت البراءة بالله ورسوله ، والمعاهدة بالمسلمين؟ لأنّ الله جلّ وعلا أذِنَ بمعاهدة المشركين ، قال الزمخشريّ : (قلتُ : قد أذِنَ الله في معاهدة المشركين أوّلاً ، فاتّفق المسلمون مع رسول الله ص وعاهدوهم ، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم ، فخطبَ المسلمون بما تجدّد من ذلك ، فقبل لهم : اعلموا أنّ

(٣٦٤) الميزان ١٣٤/٩ .

(٣٦٥) المصدر نفسه ١٢٠/٩ - ١٢١ .

الله ورسوله قد برئاً مما عاهدتم به المشركين ... وكان نزولها سنة تسع من الهجرة، وفتح مكة سنة ثمان ، وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد ، فأمر رسول الله ص أبا بكر رض على موسم سنة تسع ، ثم أتبعه علياً رض راكب العضباء ليقراها [أي سورة براءة] على الموسم ... (٣٦٦) .

وفي هذه السورة التهديد بعذاب الذين لا يبرؤون من المشركين ، ذلك ليُفرَزَ المنافقون الذين يمالئونهم من غيرهم ، والسورة تبعثر أسرارهم وتثيرها وتفضحهم ، وتكلمهم وتُشردُّ بهم ، وتخزيهم ، وتدمم عليهم ، (وعن حُدَيْفَةَ رض : إنكم تسمونها سورة التوبة وإنما هي سورة العذاب ، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه) (٣٦٧) ، وحُدَيْفَةَ يقصد المنافقين ، ﴿وكان ابن عباس يدعوها "الفاضحة" ، قال : ما زال ينزل فيها "ومنهم .. ومنهم" حتى ظننا أنه لا يبقى أحد إلا نُكِرَ فيها) (٣٦٨) .

وتكرار (منهم) الذي أشار ابن عباس يعود على المنافقين ، وهو الذي عرضته الآيات الآتية :

في قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَنْتَهِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . التوبة ٤٩﴾ ، ائذن لي في القعود وعدم الخروج إلى الجهاد.

(٣٦٦) تفسير الكشاف ٤٢٢ .

(٣٦٧) المصدر نفسه ٤٢١ .

(٣٦٨) التحرير والتنوير ٦/١٠ .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ . التوبة ٥٨﴾ ، يعيبونك في توزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ، إن لم تعطهم على الرغم من عدم استحقاقهم .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيُقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلٌّ أُنْزِلَ خَيْرٌ التوبة ٦١﴾ ، يصغي لما لكل ما قيل له ويستمع إلى كل ما يُذكر له فهو أدن ، ثم يسمع من الله سبحانه الوحي وفيه خير لكم .

فالهاء ضمير الغائب (منهم) ، يعود على المنافقين ، الذين فضح الله سوء نياتهم ، وكذب أقوالهم .

ثالثاً : الإمارة والتبليغ

سورة براءة كانت قد نزلت بعد غزوة تبوك آخر غزوات الرسول ص ، (وأكثر الأقوال على أنّ براءة نزلت قبل خروج أبي بكر من المدينة ، فكان ما صدر عن النبي ص صادراً عن وحي القرآن ... وقد كان رسول الله ص صالح قريشاً عام الحديبية ... ثم كانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع ، فلما انصرف رسول الله ص من تبوك ، أمر أبا بكر الصديق على الحج ، وبعث معه بأربعين آية من صدر سورة براءة ليقراها على الناس ؛ ثم أردفه بعلي بن أبي طالب ليقراً على الناس ذلك) (٣٦٩) .

(٣٦٩) التحرير والتنوير ٨/١٠ .

(وروي أنّ أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل ع فقال : يا محمد لا يُبلَعَنَّ رسالتك إلا رجل منك ، فأرسل عليًّا ، فرجع أبو بكر رض إلى رسول الله ص ، فقال يا رسول الله أشيء نزل من السماء ، قال : نعم ، فسِر وأنت على الموسم وعليّ ينادي بالآي ، فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رض وحدثهم عن مناسكهم ، وقام عليّ رض يوم النحر عند جمرة العقبة فقال : أيها الناس إنّي رسول الله إليكم ، فقالوا بماذا ؟ فقرأ عليهم ثلاثين ، أو أربعين آية ... ثم قال : أمرت بأربع : أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان ، ولا يدخل الجنة إلا كلّ نفس مؤمنة ، وأن يتمّ إلى كلّ ذي عهد عهده...) (٣٧٠) .

وفي مجمع البيان : (أجمع المفسّرون ونقله الأخبار أنّه لما نزلت براءة دفعها رسول الله ص إلى أبي بكر ، ثمّ أخذها منه ودفعها إلى عليّ بن أبي طالب ع ، واختلفوا في تفصيل ذلك ... إنّ أبا بكر رجع ، فقال : هل نزل فيّ شيء ، فقال ص : لا إلا خيرًا ، ولكن لا يؤدّي عني إلا أنا أو رجل مني ... وقال : [في رواية أخرى] لا يذهب بهذا إلا رجل من أهل بيتي فبعث عليًّا ع ...) (٣٧١) .

وعن أحمد بن حنبل في مسنده عن حبيش بن جنادة السلوليّ قال : (سمعت رسول الله ص يقول : عليّ منّي وأنا منه ، ولا يؤدّي عني إلا أنا أو عليّ؟!) (٣٧٢) .

(٣٧٠) تفسير الكشاف ٤٢٢ .

(٣٧١) ٨-٧/٥ .

(٣٧٢) ينابيع المودة ٦٤/١ .

و(أخرج أحمد بإسناده عن حنش عن علي قال : "لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دعا أبا بكر رضي الله عنه فبعثه ليقرا على أهل مكة ثم دعاني النبي فقال لي : أدرك أبا بكر ، فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فأذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم ، فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ، ورجع أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي فقال : يا رسول الله نزل في شيء؟ قال: لا ، ولكن جبرئيل جاءني فقال : لن يؤدّي عنك إلا أنت أو رجل منك)(٣٧٣) .

﴿وروى بإسناده عن أنس بن مالك ، أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بعث ببراءة مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فلما بلغ ذا الحليفة قال : لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي، فبعث بها مع علي(٣٧٤) . وروى بإسناده عن ابن عباس : (إن رسول الله ص قال : لا يؤدّي عني إلا أنا أو علي بن أبي طالب)(٣٧٥) . وعن ابن عباس أيضًا ، قال : (بينما أنا مع عمر بن الخطاب في بعض طرق المدينة يده في يدي إذ قال لي: يا ابن عباس ، ما أحسب صاحبك إلا مظلومًا ! فقلت : فرّد إليه ظلامته يا أمير المؤمنين ! قال فانزع يده من يدي ونفر مني يهيمهم ، ثم وقف حتى لحقته ! فقال لي : يا ابن عباس ، ما أحسب القوم إلا

(٣٧٣) مسند أحمد ١/١٥١ ، وتاريخ مدينة دمشق ٢/٣٨٤ الحديث ١٨٣ .

(٣٧٤) مسند أحمد ٣/٢١٢ ، إرشاد الساري ٧/١٤٢ .

(٣٧٥) تاريخ مدينة دمشق ٢/٣٧٨ ، الحديث ٨٧٤ .

استصغروا صاحبك ، قال : قلت : والله ، ما استصغر رسول الله حين أرسله وأمره أن يأخذ براءة من أبي بكر فيقرؤها على الناس ، فسكت(٣٧٦) .

ومن ذلك ما صَغَرَ بعضهم من منزلة هذا التكليف الإلهي ، بجعل الإمام علي من جملة المؤذنين بين يدي إمام الحجّ ، فقالوا : (كان لأبي بكر مؤذنون ، يؤذنون بهذه الأحكام ، كأبي هريرة ، وغيره من الرجال الذين لم يُذكر أسماءهم في الروايات ، وكان عليٌّ من عنده لهذا الشأن ، ولذا ورد في بعضها : أنه خطب بِمَنَى ولما فرغ من خطبته ، التفت إلى عليّ ، وقال : فَمَ يا عليّ ، وأدّ رسالة رسول الله)(٣٧٧) ؛ لكن لو كان هذا هكذا فلماذا يرجع أبو بكر إلى النبي ؟ ليقول له : يا رسول الله ، أنزل فيّ شيء؟

ومن تصغير شأن هذه الفضيلة أيضًا ، ما أظهره الشيخ محمد رشيد رضا ، بإعادة النظر في رواية توزيع الأدوار في عرض السورة على أهل مكة ، في قوله : (والحق أنّ عليًّا كرم الله وجهه كان مكلّفًا بتبليغ أمرٍ خاصّ ، وكان في تلك الحجة تابعًا لأبي بكر في إمارته العامّة في إقامة ركن الإسلام الاجتماعي العام ، حتى كان أبو بكر يُعيّن له الوقت ، الذي يبلغ ذلك فيه فيقول : يا عليّ قم فبَلِّغ رسالة رسول الله ص ، كما تقدّم التصريح به في الروايات الصحيحة كما أمر بعض الصحابة

(٣٧٦) تاريخ مدينة دمشق ٢٢ / ٣٤٩ .

(٣٧٧) التحرير والتنوير ١٧ / ١٦٥ - ١٦٦ .

بمساعدته على هذا التبليغ كما تقدم في حديث أبي هريرة في الصحيحين وغيرهما^(٣٧٨) .

لكنَّ الإمام من النبيِّ ص فيما يخصُّنا في هذا البحث (القرآن الكريم والشاهد منه)، وكذلك مثلما ورد في أداء سورة براءة ، ففي النصِّ على تكليفه : ﴿لَا يُؤَدِّيْ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ﴾ ؛ و﴿أَنَّ الَّذِي وَقَعَ فِي الرِّوَايَاتِ عَلَى كَثْرَتِهَا فِي قِصَّةِ بَعْثِ عَلِيٍّ وَعَزْلِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ كَلِمَةِ الْوَحْيِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ جَبْرِئِيلُ عَلَى النَّبِيِّ ص ، هُوَ قَوْلُهُ : لَا يُؤَدِّيْ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ ، وكذا ما ذكره النبيِّ ص ، حين أجاب أبا بكر لما سأله عن سبب عزله ، إنَّما هو متن ما أوحى إليه الله سبحانه ، أو قوله . وهو في معناه . : "لَا يُؤَدِّيْ عَنِّي إِلَّا أَنَا أَوْ رَجُلٌ مِنِّي" ... وليتأمل الباحث المنصف قوله : "لَا يُؤَدِّيْ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ حَتَّى يَفِيدَ اشْتِرَاكَ الرِّسَالَةِ ، ولم يُقَلِّدْ : لَا يُؤَدِّيْ مِنْكَ رَجُلٌ مِنْكَ ، حتى يشمل سائر الرسالات التي كان يقلدها ص كلَّ من كان من صالحى المؤمنين ، فإنَّما مفاد قوله : "لَا يُؤَدِّيْ عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ" ، أَنَّ الْأُمُورَ الرِّسَالِيَّةَ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْكَ نَفْسَكَ أَنْ تَقُومَ بِهَا لَا يَقُومُ بِهَا غَيْرُكَ عَوْضًا مِنْكَ إِلَّا رَجُلٌ مِنْكَ ، أي لا يخلفك فيما عليك كالتأدية الابتدائية إلا رجل منك^(٣٧٩) ، ولا يُؤَدِّيْ عَنِ اللَّهِ التَّبْلِيغَ غَيْرَ النَّبِيِّ أَوْ رَجُلٍ مِنْهُ ، والهاء الضمير عاد من النبيِّ على أمير المؤمنين ، مثلما عاد (منه) في الآية التي تخصُّنا : ﴿أَقَمْنَاكَ عَلَى بَيْتِنَا مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا

(٣٧٨) تفسير المنار ١٠/١٦١ .

(٣٧٩) الميزان ٩/١٣٨ ، ١٤٠ .

وَرَحْمَةً ﴿٣٨٠﴾ . أمّا مشكلة التفضيل بين الإمام وغيره ، وكذلك التنافس المذهبي ، كانت قد أضرت بالتعاطي مع الحقائق كما هي ، أمّا بتغييرها ، أو بلّي رقابها ، أو بتأويلها لمصلحة التوجّه السياسي ، أو فرضيات التقديم أو التأخير ، تقديم الإمام أو تأخيره بإزاء غيره، وإلا فتبليغ الإمام (براءة) بتوجيه ربّاني عن طريق النبي واضحة جليّة متفق عليها ، أمّا محاولة جعل هذا التبليغ مجرد مراعاة عادات عربيّة وقيم جاهليّة يحترمها المشركون ، وإنّ إرسال الإمام ليستحفظ بذلك السنّة العربيّة فيؤدّيها عنه بعض أهل بيته^(٣٨٠) ، لكن بهذه الحجّة حاجة إلى قرائن من مثلها ، تؤيّد وجوب مراعاتها حتى تكون حقيقة موضوعيّة ، يمكن الاستناد إليها والاستشهاد بها . فمِمّا جاء من القول بمراعاة السنن الجاهليّة ، ما عُرض في تفسير الكشاف: (وقيل إنّما أمر أن لا يبلغ عنه إلا رجلٌ منه ؛ لأنّ العرب عاداتها في نقض عهودها، أن يتولّى ذلك على القبيلة رجلٌ منها ، فلو تولّاه أبو بكر رض لجاز أن يقولوا هذا خلاف ما يعرف فينا في نقض العهود ، فأزاحت علّتهم بتولية ذلك عليّاً رض)^(٣٨١) .

وكانوا قد أشاعوا أنّ (الروايات تضافرت عن أبي هريرة بأنّ الذي كان ينادي به هو ومن معه من قبل أبي بكر ... ولهذا قال العلماء إنّ الحكمة في إرسال عليّ بعد أبي بكر أنّ عادة العرب جرت بأن لا ينقض العهد إلا من عقده أو من هو

(٣٨٠) المصدر نفسه ٩ / ١٣٩ .

(٣٨١) ٤٢٢ .

منه بسبيل من أهل بيته فأجراهم في ذلك على عادتهم ، ولهذا قال ص : " لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل من أهل بيتي " (...)(٣٨٢) .

ومن مظاهر التأخير للإمام من الروايات من مثل ما سبق أيضًا قولهم : (وكان لأبي بكر مؤذنون يؤذنون بهذه الأحكام كأبي هريرة وغيره من الرجال الذين لم يذكر أسماءهم في الروايات)(٣٨٣) ؛ وعلى هذا فإن توجيه الإمام بتبليغ براءة كالتوجيه إلى أبي هريرة وغيره ، وهو ما عرضه أبو هريرة نفسه من تفاخر ، الذي يذكر ما حدث (في نبذ العهد : فكنت أنادي حتى صُحِلَ [بِح] صوتي)(٣٨٤) ، فعلى هذا كان الإمام مجردَ مشاركٍ من المشاركين في هذا التبليغ ، مثله مثل غيره ، لا أكثر ولا أقل .

وفي المقابل نجد وجهة أخرى في تحليل مثل هذه الأقوال : ف(الباحث الناقد إذا راجع هذه الآيات والروايات ثم تأمل ما جرت من المشاجرات الكلامية بين الفريقين أهل السنة والشيعية في باب الأفضلية لم يرتب في أنهم خلطوا بين البحث التفسيري الذي شأنه تحصيل مداليل الآيات القرآنية ، والبحث الروائي الذي شأنه نقد معاني الأحاديث وتمييز غيِّها من سمينها ، وبين البحث الكلامي الناظر في أنّ أبا بكر أفضل من عليّ أو عليًّا أفضل من أبي بكر؟ وفي أنّ إمارة الحاج أفضل أو الرسالة في تبليغ آيات براءة؟ ولمن كان إمارة الحج إذ ذاك لأبي بكر أو لعليّ؟ ... وأما

(٣٨٢) تفسير المنار ١٠/١٠٨ - ١٠٩ .

(٣٨٣) الميزان ٩/ ١٣٩ .

(٣٨٤) لسان العرب ٤ / ٢٤٠٥ .

البحث الروائي أو التفسيري فيما يرتبط به الآيات إلى أسباب نزولها مما يتعلق بمعاني الآيات ، فالذي ينبغي أن يُقال أنهم أخطأوا في هذا التوجّه . فليت شعري من أين تسلموا أن هذه الجملة التي نزل بها جبرئيل : **أَنَّهُ لَا يُؤَدِّي عَنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ** ، مقيدة بنقض العهد لا يدل على أزيد من ذلك ، ولا دليل عليه من نقل أو عقل فالجملة ظاهرة أنّم الظهور في أنّ ما كان على رسول الله ص أن يؤدّيه لا يجوز أن يؤدّيه إلا هو أو رجل منه سواء ، كان نقض عهد من جانب الله كما في مورد براءة أو حكماً آخر إلهياً على رسول الله ص أن يؤدّيه ويبلغه ؛ وهذا غير ما كان من أقسام الرسالة منه ص مما ليس عليه أن يؤدّيه بنفسه الشريفة كالكتب التي أرسل بها إلى الملوك والأمم والأقوام في الدعوة إلى الإسلام وكذا سائر الرسائل التي كان يبعث بها رجالاً من المؤمنين إلى الناس في أمور يرجع إلى دينهم والإمارات والولايات ونحو ذلك ، ففرق جلي بين هذه الأمور وبين براءة ونظائرها (...)(٣٨٥) .

كل ذلك من دواعي المشاجرات الكلامية بين الفريقين ، في باب الأفضلية والترتيب السياسي للصحابة ، على حساب مداليل أداء الآيات القرآنية ، والتوجيه الرباني ، فالتبس التوجيه بالتأويل ، مع أنّ الأفضلية واضحة ، ومُجمَع عليها ، في قوله ص: (الحسن والحسين سيّدَا شباب أهل الجنة وأبوهما خيرٌ منهما) ، وأفضلية الإمام أوفى بالعموم مما يدخل الطعن عند القياس بغيرها ممّا يُزعم ويُتأوّل به (٣٨٦).

(٣٨٥) الميزان ١٣٩/٩ - ١٤٠ .

(٣٨٦) المعيار والموازنة ٢٠٦ .

رابعًا : روايات التكليف وعباراته

اختلفت روايات تكليف الإمام بتبليغ آيات سورة براءة، لكنها اتفقت على أن المعنى بالتكليف هو الإمام علي بن أبي طالب اتفاقًا مؤكّدًا، وأن النبي كان يُنفذ التوجيه الربّاني، ولو لم يكن ذلك كذلك لما غير النبي رأيه، وألحق عليًا بأبي بكر، أما الاختلاف في التوجيه الذي وُظف في الدفاع عن الأفضلية أو الإمارة . فيما يبدو . لا صلة له في إنفاذ الوحي إلى المعنيين به ، ولا إساءة لمن سُحب منه التبليغ . استنادًا إلى تطمين النبي نفسه لأبي بكر بحسب الروايات المتداولة ، ولمّا كان التوجيه ربّانيًا فلا يُعقل أن يُراعي عادات عربية وقيم جاهلية . مثلما عرضنا . يحترمها المشركون، ولاسيما أنّ مضمون التبليغ مضمون تهديد وتحذير ، لا للاستمالة والترغيب .

أما ما يدلّ على التكليف من النصوص والتأدية ممّا عرضناه سابقًا ، فمثل :

١ . (فكان ما صدر عن النبي ص صادرًا عن وحي القرآن)(٣٨٧) .

٢ . (رُوي أنّ أبا بكر لمّا كان ببعض الطريق هبط جبريل ع فقال : يا محمد لا يُبلّغَنَّ رسالتك إلّا رجل منك، فأرسل عليًا)(٣٨٨) .

٣ . (أدرك أبا بكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه ..)(٣٨٩) .

(٣٨٧) التحرير والتنوير ١٠ / ٨ .

(٣٨٨) تفسير الكشاف ٤٢٢ .

(٣٨٩) مسند أحمد ١٠١/١ .

٤ . (فرجع أبو بكر رض إلى رسول الله ص ، فقال يا رسول الله : أشيء نزل من السماء؟ قال : نعم ؛ أو هل نزل في شيء ، فقال ص لا إلا خيراً)(٣٩٠) .

٥ . (أجاب أبو بكر لما سأله عن سبب عزله ، إنما هو من ما أوحى إليه الله سبحانه ، أو أتى جبرائيل فقال: إنه لا يؤدبها إلا أنت أو رجل منك)(٣٩١) .

٦ . (قال أبو بكر: قم يا عليّ وأدِّ رسالة رسول الله)(٣٩٢) .

٧ . (أيها الناس إنِّي رسولُ رسولِ الله إليكم...)(٣٩٣) .

وأما عبارات التبليغ التي توافق ما نشغل عليه من عود ضمير الغائب على النبي ص في عنوان بحثنا : (القرآن والشاهد منه) ، ومثله عود الضمير على النبي ص نفسه في أداء سورة براءة ، ففي تبليغ سورة براءة ، كان قد تلقى الخطاب ، خطاب أداء السورة ، والتوجيه بتنفيذه ، ومضمونه : (لا يؤدبها إلا رجل منك) ، لأنه هو المُخاطَب ، والذي يؤدب منه ، والحرف الجار (من) ، والمجرور ضمير الخطاب (الكاف) ، عائد على النبي نفسه .

أما إذا كان الخطاب : (لا يؤدب إلا رجل مني أو من أهل بيتي) ، فالنبي هو المتكلم ، والذي يؤدب منه الإمام : لأن ياء المتكلم تعود عليه .

(٣٩٠) شرح نهج البلاغة ٤/٣٠٥ - ٣٠٦ .

(٣٩١) الميزان ٩/١٣٨ ، ١٤٠ .

(٣٩٢) تفسير المنار ١٠/١٥٦ .

(٣٩٣) تفسير الكشاف ٤٢٢ .

أما إذا كان الخطاب قد ذكر اسم الإمام : ﴿ لا يُؤدِّي عني إلا أنا أو علي بن أبي طالب ﴾ (٣٩٤) . ودلالة (عن) في هذا الموضع بمعنى بدل ، أي لا يؤدِّي بدلي إلا أنا أو علي ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ . البقرة ٤٨ ﴾ ، أي لا تجزي نفسٌ بدل نفسٍ ، وفي الحديث : (صومي عن أمك) (٣٩٥) .

ويمكن حصر التبليغ بحسب الضمائر ، في جملتين اثنتين :

١ . (لا يُؤدِّي عنك إلا أنت أو رجلٌ منك) ، أو (لا يُبلِّغَنَّ رسالتك إلا رجلٌ منك) (٣٩٦) ، ودلالة (من) : بمعنى بدل ، قال تعالى : ﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ . التوبة ٣٨ ﴾ ، أي بدل الآخرة (٣٩٧) ، وقوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ . الكهف ١٩ ﴾ ، برزق منه : برزق بدل الورق (٣٩٨) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ . الزخرف ٦٠ ﴾ ، (قال بعض النحويين "من" تكون للبدل ، أي لجعلنا بدلکم ملائكة ...) (٣٩٩) .

(٣٩٤) تاريخ مدينة دمشق ٢ / ٣٧٨ .

(٣٩٥) مُغْنِي اللَّيْبِيبِ ١ / ١٥٧ ، وهمع الهوامع ٤ / ١٩٣ ١٦٦ .

(٣٩٦) تفسير الكشاف ٤٢٢ .

(٣٩٧) شرح الرضيّ على كافيّة ابن الحاجب ٦ / ١١ ، همع الهوامع ٤ / ٢١٤ .

(٣٩٨) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣ / ٣١٢ .

(٣٩٩) البحر المحيط ٨ / ٢٥ .

٢ . (لا يُؤدِّي عنيّ إلا أنا أو رجل منّي) ؛ أو (لا يُبلِّغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي) ، قال الترمذي حسن غريب^(٤٠٠) ، أو (لا يُبلِّغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي فبعث بها مع عليّ) ، أو (لا يذهب بهذا إلا رجل من أهل بيتي فبعث عليّاً ع) ، ولفظ (من أهل بيتي) كناية عن شخص عليّ .

فهذه النسبة بين (من أو عن) إلى الياء ، (منّي أو عنيّ) بمعنى بدلي ، بدل من رسول الله ، أقرب ما تكون من الضمير (منه) من رسول الله ، إذا عاد عليه ص ، من موضوعنا (القرآن والشاهد منه) ، في سورة هود : ﴿أَقْمَنَ كَانَ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً . هود ١٧﴾ .

خامساً : أسلوب التكليف والأداء

لم تكن جملة التكليف على سبيل الإخبار ، أي لم تكن : يؤدِّي أو يبلِّغ عنك رجلاً منك ، أو : يؤدِّي أو يبلِّغ رجلاً منّي ، بل جاءت بأسلوب الحصر بالنفي وإلا ، أي إرادة اختصاص المؤدِّي بهذه التأدية ونفيه عمّن عداه ، ف (لا يُؤدِّي أو يبلِّغ عنيّ أو عنك إلا أنت أو رجلاً منك) ، أي اختصاص الإمام بأداء آيات سورة براءة إلى المشركين في موسم الحجّ نيابة عن رسول الله ونفيه عن غيره ، والنفي والإثبات فيما عرض عبد القاهر الجرجانيّ : أن (يكون لمن ينكره المخاطب ويشكُّ فيه ، فإذا قلت : ما هو إلا مصيبٌ ، أو : ما هو إلا مُخطئٌ : قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته ، وإذا رأيت شخصاً من بعيد فقلت : ما هو إلا زيد : لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس زيداً ، وأنه إنسان آخر ، ويجدُّ في الإنكار أن يكون

(٤٠٠) تفسير المنار ١٠ / ١٥٧ .

(زيدًا) ... وجملة الأمر أنك متى رأيت شيئًا هو من المعلوم الذي لا يُشكُّ فيه قد جاء بالنفي ، فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ إِن أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ . فاطر ٢٢ . ٢٣ ﴿ إنما جاء . والله أعلم . بالنفي والإثبات لأنه لما قال تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ ، وكان المعنى في ذلك أن يُقال للنبي ص : إنك لن تستطيع أن تُحوّل قلوبهم عما هي من عليه من الإباء ، ولا تملك أن توقع الإيمان في نفوسهم ، مع إصرارهم على كفرهم ، واستمرارهم على جهلهم ، وصدّهم بأسماعهم عما تقوله لهم وتتلوه عليهم ، كان من اللائق بهذا أن يُجعل حال النبي ص حال من قد ظنَّ أنه يملك ذلك ، ومن لا يعلم يقينًا أنه ليس في وسعه شيء أكثر من أن يندر ويحذر ، فأخرج اللفظ مُخرجه إذا كان الخطاب مع من يشك ف قيل "إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ" (٤٠١) .

ومن مثل ما تقدّم قوله تعالى : ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ ، جاءت جملة القصر أو الحصر ب (لا) و(إلا) في سياق خشية رسول الله وحرجه من الناس في القصة المعروفة ، التي ذُكرت في قوله تعالى : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ . الأحزاب ٣٧ . ٣٨ ﴿ ، وخشية النبي الناس فيما خبر خشية في الله ، فأخفى في نفسه ما أخفاه استشعارًا منه أنه لو أظهره يعيبه الناس ويطعنون فيه . من في قلبه مرض . فيكون أثر ذلك

(٤٠١) دلائل الإعجاز ٢٥٦ - ٢٥٧ .

سَيِّئًا فِي إِيمَانِ الْعَامَّةِ ، وَهَذَا لَيْسَ خَوْفًا مَذْمُومًا بَلْ خَوْفًا فِي اللَّهِ أَوْ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ خَوْفٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ؛ وَالْأَنْبِيَاءُ يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا غَيْرَهُ ، وَأَتَى عَلَيْهِمْ فَقَالَ : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ . الْأَحْزَابُ ٣٩﴾ ، أَيْ يُؤَدُّونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ، (وَلَا يَخَافُونَ مِنْ سِوَى اللَّهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَدَاءِ وَالتَّبْلِيغِ ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ التَّقِيَّةُ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ، وَمَتَى قِيلَ فَكَيْفَ مَا قَالَ لِنَبِينَا ص وَتَخَشَى النَّاسَ ، فَالْقَوْلُ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّبْلِيغِ وَإِنَّمَا خَشِيَ الْمَقَالَةَ الْقَبِيحَةَ فِيهِ وَالْعَاقِلُ كَمَا يَتَحَرَّزُ عَنِ الْمَضَارِّ يَتَحَرَّزُ مِنْ إِسَاءَةِ الظُّنُونِ بِهِ وَالْقَوْلُ السَّيِّئُ فِيهِ ، وَلَا يَتَعَلَّقُ مِنْ ذَلِكَ فِي التَّكْلِيفِ) (٤٠٢) ، وَلِهَذَا الْحَرْجُ جَاءَتْ الْآيَةُ : ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ ، بِالنَّفْيِ وَالْحَصْرِ بِ﴿إِلَّا﴾ ، وَلَمْ تَأْتِ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْبَارِ .

وَفِي التَّصْنِيفِ النُّحَوِيِّ تُعَدُّ جَمَلَتَا ، جَمَلَةٌ : (لَا يُؤَدِّيْ عِنْدَكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ) ، مِنْ ضَمَنِ الْاسْتِثْنَاءِ النَّاقِصِ ، الَّذِي لَا يُذَكَّرُ فِيهِ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ ، لِأَنَّ جَمَلَةَ الْاسْتِثْنَاءِ . عِنْدَ النَّحَاةِ . يَجِبُ أَنْ تَتَأَلَّفَ مِنْ مُسْتَثْنَى ، وَمُسْتَثْنَى مِنْهُ ، وَأَدَاةُ اسْتِثْنَاءِ ، فَلَمَّا حُذِفَ الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ عُدَّ الْاسْتِثْنَاءُ نَاقِصًا وَغَيْرَ تَامٍ ، وَسُمِّيَ كَذَلِكَ الْاسْتِثْنَاءُ الْمُفْرَغَ ، وَمَعْنَى التَّفْرِغِ أَنَّ (إِلَّا) لَا عَمَلَ لَهَا فِيمَا بَعْدَهَا ، وَمَا قَبْلَهَا يَعْمَلُ فِيهَا بَعْدَهَا ، وَ(رَجُلٌ) فِي جَمَلَتَا ، (لَا يُؤَدِّيْ عِنْدَكَ إِلَّا أَنْتَ أَوْ رَجُلٌ مِنْكَ) : فَاعِلُ الْفِعْلِ (يُؤَدِّيْ) ، أَيْ أَنَّ مَا قَبْلَ "إِلَّا" الْفِعْلُ الْمَضَارِعُ (يُؤَدِّيْ) : عَمَلٌ فِيمَا بَعْدَ (إِلَّا) ، وَ(مَا قَبْلَ "إِلَّا" تَفْرَغَ لَطَلَبَ مَا بَعْدَهَا ... وَالْاسْتِثْنَاءُ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ عَامِّ مَحْذُوفٍ ،

(٤٠٢) مجمع البيان ٤٦٨/٨ .

وما بعد "إلا" بدل من ذلك المحذوف ...^(٤٠٣) ، أي أنّ (إلا) من حيث الإعراب كما لو لم تُذكر أو كانت غير موجودة^(٤٠٤) .

والتقدير فيما نحن فيه أيضًا (لا يُؤدّي عنك إلا أنت أو رجلٌ منك) : لا يُؤدّي عنك أحدٌ إلا أنت أو رجلٌ منك ، وشرط الاستثناء المفرغ أو الناقص أن يتقدّم عليه غير إيجاب ، أو ما يخرج عن الإيجاب ، وهو النفي أو ما أفاد معناه ، من مثل قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ . آل عمران ١٤٤﴾ ، ما قبل إلا (محمد) مبتدأ ، و(رسولٌ) خبره ، وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ . النساء ١٧١﴾ ، (لا) ناهية ، و(تَقُولُوا) فعل مضارع مجزوم وعلامة جزمه حذف النون ، والواو فاعل ، و(الْحَقَّ) مفعول به ، وتقدير المُستثنى منه : وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ شَيْئًا إِلَّا الْحَقَّ^(٤٠٥) .

وكان الدكتور مهدي المخزومي قد اعترض على عدّ الاستثناء المفرغ أو الناقص من باب الاستثناء ، في قوله : (إذا أنعمت النظر في هذه الأمثلة ، فلن تشعر بأنّ هناك استثناء ، لأنّه لم يكن فيها حكم دخل فيه الجماعة ، ثمّ استثنى من الجماعة واحد أو أكثر ؛ والواقع أنّ الاستثناء المفرغ ، لم يكن استثناء بحال ، ولكنّه قصر ، والقصر: توكيد ، أدواته التي يقوم عليها هي : "النفي وإلا"^(٤٠٦) .

(٤٠٣) شرح التصريح على التوضيح ٥٣٩/١ .

(٤٠٤) شرح ابن عقيل ٦٠٣/١ .

(٤٠٥) شرح التصريح على التوضيح ٥٣٩/١ .

(٤٠٦) في النحو العربي قواعد وتطبيق ٢٠٦ .

الخلاصة

إنَّ اقتصار التآدية تآدية سورة التوبة في موضوعنا : (بك أو برجلً منك) ، ونفيها عن (غيرك) ، أي أَنَّ الخطاب في هذه الجملة : لمن ينكره ويشك فيه(٤٠٧) ، أو يتردّد في قبوله ، أو في نفسه شيء منه ، لسبب من الأسباب التي تخصّ المخاطبَ، لذلك أحوج التوكيد بالحصر ، وبالنفى وإلّا .

فالنسبة إلى الياء ، (مَنِّي أو عَنِّي) بمعنى . والله أعلم . بدلي ، بدل من رسول الله بالتوجيه الربّاني ، وهي ك (الشاهد منه) من القرآن أو من النبيّ أو من غيرهما ، في قوله تعالى من سورة هود ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ . هود ١٧ ﴿ ، بدلالة الضمير العائد إليه ص .

فإذا كانت تآدية سورة من سور القرآن في زمان النبيّ ص ، منه وعنه إلى أهل مكّة تآدية ربّانيّة موكلّة إلى أمير المؤمنين ع ، ومنعها من غيره ، فهي قرينة من قرائن أخرى بحفظ الإمام القرآن من بعده استنادًا إلى هذا التوكيل ، فهذا ما نُرجّح والله أعلم .

(٤٠٧) التحرير والتنوير ١٧ / ١٦٥ - ١٦٦ .

الفصل الثامن : النبي والإمام والقرآن

دامت الرفقة أو قلّ التلازم بين الإمام ورسول الله جميع المواقف والأحداث والوقائع صغيرها وكبيرها ، ومن قبل النزول الأول للوحي ، وحتى الرحيل ، وقد اعتنى النبي ص به عناية خاصة ، مثلما عرضنا سابقاً ، وكان كثير الأسئلة عن القرآن وغيره ، فإذا سأل أجابه وإذا سكت ابتدأه ، وقد علّمه واختص به وعهد له بما لم يعهد به لغيره، مثلما نقل ابن عباس : (كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْتَصُّ بِهَذَا الْقُرْآنِ مَا يَخْتَصُّ بِغَيْرِهِ) (٤٠٨) ؛ فكان التلازم بينه وبين القرآن ، قد أدّى إلى تمكين أوائل المتعلمين منه بعد النبي ، وله أجر هؤلاء المتعلمين (٤٠٩) .

لكن الذي يُحاول أن يُضعف هذه الصّلة وهذا التلازم ؛ هو الخلافات بين المسلمين ، فبعضهم يزيد ، وبعضهم ينقص ، بحسب الوجهات التي تتوزّعهم ، لكنّ الأنكى من ذلك أن يخرج أحدهم حتى على المتفق عليه بين الطرفين ويثبت عندهم بالتواتر، في مثل رواية : عليّ مع الحقّ والحقّ مع علي ، أو عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ (٤١٠) ، ذلك ما جاء في كتاب منهاج السنة ، أنّ الذي يذكر قولهم : (عليّ مع الحقّ والحقّ معه يدور حيث دار ولن يفترقا حتى يرثا على الحوض ، من أعظم الكلام كذباً وجهلاً ؛ فإنّ هذا الحديث لم يروه أحد عن النبي صلى الله عليه وسلم لا بإسناد صحيح ، ولا ضعيف، فكيف يقال إنهم جميعاً رَوَوْا هذا

(٤٠٨) حلية الأولياء ١ / ٦٨ .

(٤٠٩) المعيار والموازنة ١٠٢ .

(٤١٠) المستدرك ٣ / ١٣٤ .

الحديث وهل يكون أكذب مِمَّن يروي عن الصحابة والعلماء أنهم رَوَوْا حديثاً والحديث لا يعرف عن واحد منهم أصلاً بل هذا من أظهر الكذب ولو قيل رواه بعضهم وكان يمكن صحته لكان ممكناً فكيف وهو كذب قطعاً على النبي صلى الله عليه وسلم(٤١١) .

أما الذي يَهْمُنَا في هذا البحث ، فهو ما تهيأ لحفظ القرآن من مستلزمات تمنع من تغييره أو نقصه أو الزيادة عليه ، ومعية القرآن من هذه المستلزمات .

أولاً : القرآن مع الإمام

قال الإمام أمير المؤمنين : (إنّ الكتاب لمعي : ما فارقتهُ مُذْ صحبتِهِ ، فلقد كنّا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ... فلا نزداد على كلّ مصيبة وشِدَّة إلا إيماناً ومُضِيّاً على الحقّ ، وتسليماً للأمر...)(٤١٢) .

أما توثيق حديث : (عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ) ، ف(عن ثابت مولى أبي ذر رح ، أنّه قال : كنت مع عليّ رض يوم الجمل ، فلما رأيت عائشة واقفة ، دخلني من الشكّ بعض ما يدخل الناس ... فلما ذهبت إلى المدينة فأتيت أمّ سلمة ، فقلت: إنّني والله ما جنّت أسأل طعاماً ولا شراباً ، ولكنّي مولى لأبي ذر، فقالت مرحباً ، فقصصت عليها قصّتي ، فقالت : أين كنت حين طارت القلوب مطايرها؟

(٤١١) ٢٣٨/٤ .

(٤١٢) نهج البلاغة ٣/٢ .

قلت : إلى حيث كشف الله ذلك عني عند زوال الشمس فقالت : أحسنت ، سمعت رسول الله ص يقول : "علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض" حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٤١٣) .

وقد روى الشيخ الطوسي في كتابه المسمى بـ "الأمالى" عمّن روى عن ثابت مؤلى أبي ذر رحمة الله هذه الرواية بتفاوت يسير ، وهذا نص ما رواه : (عن ثابت مؤلى أبي ذر رحمة الله ، أنه قال : شهدت مع علي يوم الجمل ، فلما رأيت عائشة واقفة دخلني من الشك بعض ما يدخل الناس ، فلما زالت الشمس كشف الله ذلك عني ، فقالت مع أمير المؤمنين "ثم أتيت بعد ذلك أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله ورحمها الله ، فقصصت عليها قصتي فقالت : كيف صنعت حين طارت القلوب مطايرها ؟ قال : قلت : إلى أحسن ذلك ، والحمد لله كشف الله عز وجل عني ذلك عند زوال الشمس ، فقالت مع أمير المؤمنين قتالا شديدا فقالت : أحسنت ، سمعت رسول الله ص يقول : "علي مع القرآن ، والقرآن معه ، لا يفترقان حتى يردا علي الحوض" (٤١٤) .

وفي نهج البلاغة عن رسول الله : (في الأخبار الصحيحة أنه قال : "علي مع الحق ، والحق مع علي يدور حيثما يدور" ...) (٤١٥) .

(٤١٣) المستدرک ٩٣ / ٤ .

(٤١٤) بحار الأنوار ٢٢ / ٢٢٢ ، وأمالى الطوسي ١٢٠ / ٢ .

(٤١٥) ٢٤٥ / ١٨ ، ٤٦١ / ٢ .

فالإمام مع القرآن والحقّ الذي جاء به في كل مراحل حياته ، وقد بذل جهداً في حفظه وتأويله وتفسيره ، ونَشِرَ ما جاء فيه من أحكام ومفاهيم ، حتى قيل : إنّه القرآن الناطق ، إذ ارتبط به ارتباطاً موضوعياً ، رافق نزوله ، واعتنى به ، واختصّ بالإحاطة بما فيه ، حتى قال النبيّ ص : ﴿عَلِيَ أَعْلَمُ النَّاسَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ﴾^(٤١٦).

وفي نور الفرقدين في النقل عن النبيّ ص : (عن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدريّ عن أبيه ، قال : ... "مَرَّ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ الْحَقُّ مَعَ ذَا ، الْحَقُّ مَعَ ذَا" ، أخرجهُ أَبُو يَعْلَى "١٠٥٢" ...) ^(٤١٧) .

وعلى هذا فالإمام المُتَقَدِّمُ في العلم والثبات على الحقّ ، فهو أعلم المسلمين بالقرآن بعد النبيّ ، وقد اختصّ به ، وتهيأ له ما لم يتهيأ لغيره ، لكنّ هذا لا يبخص علم الصحابة والخلفاء وغيرهم بالقرآن ، ولكنّ الحقّ أنّه امتاز عليهم في العلاقة به ؛ لأنّه الأول إسلاماً ، وقراباً وقرابةً من النبيّ ، فهو ابن عمه ، وزوج ابنته ، وأخوه في المؤاخاة بين المسلمين ... إلخ ؛ وهو الذي يقول : (كنتُ إذا سألتُ رسول الله ص أعطاني، وإذا سكتُ ابتدأني) ^(٤١٨) .

(وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه ع ، عن عليّ ع قال : "سلوني عن كتاب الله عز وجلّ ، فوالله ما نزلت آية من كتاب الله في ليلٍ ولا نهار ، ولا مسير ولا مقام ، إلّا وقد أقرّانيها رسول الله ص وعلمني تأويلها ؛ فقام إليه ابن الكوّ فقال :

(٤١٦) المعيار والموازنة ١٠٢ .

(٤١٧) ٢٥٢ .

(٤١٨) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ٢٩١ .

يا أمير المؤمنين فما كان ينزل عليه وأنت غائب عنه ؟ قال : كان رسول الله ص ، ما كان ينزل عليه من القرآن وأنا غائب عنه حتى أقدم عليه ، فيقرأني ويقول لي : يا عليّ أنزل الله عليّ بعدك كذا وكذا ، وتأويله كذا وكذا ، فيعلمني تنزيله وتأويله^(٤١٩) ؛ ومن هذا يتأكد أنّ النبيّ كان يخلو بالإمام عليّ ع كلّ يوم ، ويخبره بما نزل عليه من الآيات ، فكان يملئها عليه ويُقرئها إياه ، وكان الإمام يكتبها بخطّه ؛ (وجاء في الآثار أنّ أمير المؤمنين ع كان يخطب ، فقال في خطبته : سلوني قبل أن تفقدوني ... فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، لو سألتموني عن آية ، في ليل نزلت أو نهار ، مكّيتها ومدنيّها ، سفرّيها وحضريّها ، وناسخها ومنسوخها ، ومحكمها ومتشابهها ، وتأويلها وتنزيلها لأنبأتكم)^(٤٢٠) .

ثانياً : القرآن والثقلين وحبُّ الله المتين

عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله ص : (إنّي تارك فيكم خليفتين [أو ثقلين] كتاب الله عز وجل حبل ممدود ما بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)^(٤٢١) ؛ وفي رواية أخرى ﴿عن أبي سعيد الخدريّ [أيضاً] أنّه قال : أيّها الناس إنّي قد تركت فيكم حبلين ، إن أخذتم بهما لن تضلّوا

(٤١٩) الاحتجاج / ١ / ٣١٦ .

(٤٢٠) المصدر نفسه / ١ / ٣١٣ ، ٣١٦ .

(٤٢١) كنز العمال / ١٣ / ١٠٤ .

بعدي ، أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ،
وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) (٤٢٢) .

ونقلوا عنه ص بعد حجة الوداع وفي غدِيرِ خَم ، قوله : (أَمَا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ
فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوسِّكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأَجِيبُ ، وَأَنَا تَارِكٌ ثَقَلَيْنِ ، وَأَوْلَهُمَا كِتَابُ
اللَّهِ بِهِ الْهُدَى وَالنُّورَ فَخَذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسَكُوا بِهِ ... وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي
أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكَرُكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ...) (٤٢٣) .

وجاء في نهج البلاغة : (قد بيّن رسول الله ص عترته من هي ، لما قال : "إني
تارك فيكم الثقلين" ، فقال : "عترتي أهل بيتي" وبيّن في مقام آخر من أهل بيته ،
حيث طرح عليهم كساء ، وقال حين نزلت : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ
أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا . الأحزاب ٣٣﴾ : "اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب الرجس
عنهم" (٤٢٤) .

وحديث : ﴿إني تارك فيكم أمرين لن تضلّوا إن اتبعتموهما وهما كتاب الله وأهل
بيتي عترتي﴾ صحيح على شرط الشيخين ﴿٤٢٥﴾ .

(٤٢٢) مجمع البيان ٦١٣/٢ .

(٤٢٣) صحيح مسلم ٩١٠ ، ونور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ١٠٨ .

(٤٢٤) ٤٣٠ / ٦ .

(٤٢٥) المستدرک ١٠٩/٣ - ١١٠ .

وكان أمير المؤمنين مصداقًا لمضمون الحديث الشريف عن رسول الله ص : (إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدًا ...) (٤٢٦) .

فَعَلِيٌّ عِدْلُ الْقُرْآنِ وَأَحَدُ الثَّقَلَيْنِ ، وَالْقُرْآنُ مَعَ الْعَتْرَةِ وَالْعَتْرَةُ مَعَ الْقُرْآنِ ، وَعَتْرَةُ الرَّجُلِ : أَحْصُ أَقْرَابَهُ ، وَعَتْرَةُ النَّبِيِّ ص ، أَهْلُ بَيْتِهِ ، وَوَلَدُهُ وَوَلَدُ فَاطِمَةَ ع ، وَتَتَرَكَّزُ الْعَتْرَةُ فِي عَلِيٍّ وَأَوْلَادِهِ (٤٢٧) ، وَهَمُ الَّذِينَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الزَّكَاةُ وَالصَّدَقَةُ الْمَفْرُوضَةُ ، فَهَمُ ذَوُو الْقُرْبَى الَّذِينَ لَهُمُ الْخُمْسُ الْمَذْكُورُ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ . ٤١﴾ ، وَسُمِّيَا ثَقَلَيْنِ إِعْظَامًا لِقَدْرِهِمَا ، وَتَفْخِيمًا لَهُمَا (٤٢٨) .

قال النبي : (القرآن حبل الله المتين ، لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الردّ، من قال به صدق ، ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به هُدي إلى صراطٍ مستقيم) (٤٢٩) .

وعليٌّ على رأسِ العترة (حبلُ الله المتين) ، وعلمُه من تعليمِ رسولِ الله ص ، ومن دعائه له ، في الفهم والحفظ ؛ فهو كتاب الله الناطق ، وعلى لسانه : (هذا كتاب الله الصامت ، وأنا المُعبّر عنه ، فخذوا بكتاب الله الناطق ، وذروا الحكم بكتاب

(٤٢٦) ينابيع المودة ٤٠ .

(٤٢٧) مسند أحمد ٣/ ١٧ ، ٢٦ ، وصحيح مسلم ٤/ ١٨٧٤ .

(٤٢٨) تاج العروس ١٢/ ٥٢١ .

(٤٢٩) تفسير الكشاف ١٨٦ .

الله الصامت ، إذ لا معبر عنه غيري) (٤٣٠) ؛ ومن امتلاك البصيرة ما رواه الخوارزمي بإسناده ، قال : قال علي عليه السلام : (ما أنزلت آية إلا وقد علمت فيما أنزلت وأين أنزلت وعلى من أنزلت ، إن ربي وهب لي لسانًا طلقًا وقلبًا عقولًا) (٤٣١) .

وعن أمير المؤمنين أيضًا : ﴿عليكم بكتاب الله ، فإنه الحبل المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، والري النافع ، والعصمة للمتمسك والنجاة للمتعلق ، لا يعوجُّ فيقام ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تُخلقه كثرة الرد ، وولوج السمع ، من قال به صدق ، ومن عمل به سبق﴾ (٤٣٢) ؛ فالكتاب والرسول وعترته مصاديق حبل الله (٤٣٣) .

والحبل : هو السبب الذي يوصل به إلى البُغية ، كالحبل الذي يُتمسك به للنجاة من بئر أو نحوها ، والحبل للأمان ، لأنه سبب هذا النجاة ، والحبل : العهد والذمة والأمان والوصل والميثاق (٤٣٤) ، و(عليكم بحبل الله) : أي ترك الفرقة وتتباع القرآن ، وفي الدعاء : يا ذا الحبل الشديد [أو المتين] ، والأمر الرشيد ، وجاء في قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا . آل عمران ١٠٣﴾ ، وحبل الله المتين : نوره وهده ، وقيل عهده وأمانه ، الذي يؤمن من العذاب .

(٤٣٠) عمدة عيون صحاح الأخبار ٣٣٠ ، ٥٥٠ .

(٤٣١) مناقب آل أبي طالب ٤٦ .

(٤٣٢) نهج البلاغة ٢ / ٦٤ .

(٤٣٣) مواهب الرحمن ٦ / ٢٠٥ .

(٤٣٤) لسان العرب ٢ / ٧٥٩ وما بعدها .

والمتين : هو القوي ، أو الشديد القوي من كل شيء ، أو المرتفع الصلب ، ومثُن الشيء متانة اشدَّ وقوي ، فهو متين ، والميم والتاء والنون عند ابن فارس أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على صلابه في الشيء مع امتداد وطول (٤٣٥) ، قال تعالى : ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ . الأعراف ١٨٣ والقلم ٤٥﴾ ، متينٌ أي قوي ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ . الذاريات ٥٨﴾ ، وذو القوة من أسماء الله تعالى بمعنى القوي والقادر ، لكن المتين أبلغ من القوي ، والتعبير بالأسماء الثلاثة (الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) للدلالة على انحصار الرزق فيه تعالى ، وأنه لا يأخذه ضعف في إيصال الرزق إلى المرتزقين على كثرتهم (٤٣٦) .

فقبل الله المتين سبيله وسببه والالتجاء إليه عز وجل بالإيمان به والإخلاص له ، وحبل الناس هو الدخول في ذمامهم وعهودهم وحمائيتهم ؛ قال تعالى : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيَّنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ آل عمران ١١٢﴾ ، أي أنهم لن يسلموا من الذلَّة إلا إذا آمنوا ودخلوا في عهد الله تعالى ، وانقطعوا إليه بإخلاص ، أو دخلوا في عهود الناس وذمامهم فإنهم يسلمون من القتل والأسر ، وذلك التباغض ونحو ذلك ؛ وإنما كرر سبحانه وتعالى لفظ الحبل لاختلاف المعنى ، فإنه من الله هو الحكم والقضاء والتشريع ، ومن الناس العمل والبناء (٤٣٧) .

(٤٣٥) معجم مقاييس اللغة ٢٩٤/٥ .

(٤٣٦) الميزان ٣١٧ / ١٨ .

(٤٣٧) مواهب الرحمن ٢٤٢ / ٦ .

والاعتصام بحبل الله هو الوسيلة التي ينجو بها الإنسان من السقوط ، جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا . آل عمران ١٠٣﴾ ، وعن رسول الله : كتابُ الله ، حبل الله الممدود القرآن الكريم ، أو دين الله ، أو ما رواه أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد ع قال : نحن حبل الله (٤٣٨) .

و(حبل الله) في آية الاعتصام للتحذير من الفتنة والضلال والسقوط في المهالك ، إذ إنَّ النَّجَاةَ فِي قَوْلِهِ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . آل عمران ١٠٣﴾ ، فالحبل في هذا هو الأصل والسبب .

وحبل الله هو الكتاب المنزل من عند الله ، الذي يوصل بين العبد وربّه ، (ويربط السماء بالأرض، وحبل الله هو القرآن والنبي ص ومآلهما واحد) (٤٣٩) ، والآية تأمر المجتمع الإسلامي بالاعتصام بالكتاب والسنة مثلما تأمر الفرد بذلك ، وعن الباقر: آل محمد : هم حبل الله الذي أمر بالاعتصام به ، وفي الدر المنثور أخرج الطبراني عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ص : إني لكم فرط ، وإنكم واردون على الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين؟ قيل وما الثقلان؟ يا رسول الله قال: الأكبر كتاب الله عز وجل سبب طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم فتمسكوا به لن تزالوا

(٤٣٨) مجمع البيان ٦١٣/٢ .

(٤٣٩) الميزان ٣١٩/٣ .

ولن تضلّوا ، والأصغر عترتي ، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، وسألْتُ لهما ذاك ربّي ، فلا تقدموهما فتهلكوا ... (٤٤٠) .

والمعروف أنّ العترة هم حبلُ الله المتين ، وكذلك القرآن : (هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلبس به الألسنة) حديث صحيح تعددت طرقه (٤٤١) .

ثالثاً : استمرار صحبة القرآن

قال الدكتور طيّار آلتي قولاً في مقدّمته على المصحف المنسوب إلى الإمام عليّ بن أبي طالب (نسخة صنعاء) ، بأنّ الإمام . في خبر أبي رافع : أنّ النبيّ قال في مرضه الذي تُوفّي فيه لعليّ : (يا عليّ : هذا كتاب الله خذهِ إليك) . فجمعه عليّ في ثوب ، فمضى به إلى منزله ، فلما قبض النبيّ ، جلس عليّ فألفه كما أنزله الله ، وكان به عالماً ، وفي مختصر بصائر الدرجات : (كان عليّ بن أبي طالب عالم هذه الأمة) (٤٤٢) .

وقد ورد في كتب التاريخ والسير عبارة (مصحف علي) و (مصحف أبي بن كعب) و (مصحف ابن مسعود) ، وقد توهم البعض في الأزمان الغابرة أنّ ذلك دليل على تحريف القرآن ، وأنّ مصحف عليّ ع فيه آيات غير الآيات الموجودة في مصاحف الآخرين ؛ والصحيح أنّ مصحف عليّ ع هو المصحف نفسه الذي جمعه أبيّ ابن

(٤٤٠) الميزان ٣/٣١٩ ، ٣٢٧ .

(٤٤١) المستدرک ١/ ٧٤١ .

(٤٤٢) ٢٣٥ .

كعب وابن مسعود وغيرهم ، ولكن الاختلاف هو في التأويل والتفسير ، يقول السيد الخوئي : (إنَّ اشتغال قرآنه ع على زيادات ليست في القرآن الموجود وإن كان صحيحًا ، إلاَّ أنَّه لا دلالة في ذلك على أنَّ هذه الزيادات كانت في القرآن وقد أسقطت بالتحريف ، بل الصحيح أنَّ تلك الزيادات كانت تفسيرًا بعنوان التأويل ، وما يؤول إليه الكلام ، أو بعنوان التنزيل من الله شرحًا للمراد)(٤٤٣) .

وهذا التفسير لم يتداوله المسلمون ، بل بقي في تداول أبناء عليّ في بعض الأزمان ، وفي ذلك يقول ابن النديم : (إنَّه رأى عند أبي يعلى حمزة الحسين مصحفًا بخط علي يتوارثه بنو حسن)(٤٤٤) .

أما المأثور عن الإمام عليّ الالتزام بالقرآن المتداول ، فإنَّه قال : (إقرؤوا بما علِّمتم) حسب تعبيره ، ولذلك أسرع في جمعه بعد وفاة النبي ص مباشرة ، كي لا يضيع القرآن كما ضاع أصل التوراة عند اليهود . وإنَّ الإمام أخرج الكتاب المفسر إلى النَّاس ، ولكنَّهم رفضوه ، وإنَّه أخبرهم بأنَّه جمع القرآن مع تفسيره وتأويله ، كي يقرؤوه ويقفوا على حقائقه ، لكنَّهم أبوا الأخذ به ، وإنَّ الإمام جمع المصحف الشريف وكتبه على تنزيله وتأويله وناسخه . وقد جمع في مصحفه المفسر جميع ما جاء عن رسول الله في معنى الآيات والأحكام حتَّى أُرش الخدش ، لأنَّ ما من شيء إلا ويوجد حكمه في الكتاب العزيز ، ومن هذه الكلية أراد أن يقول لطلحة بأنَّ مصحفه المفسر هو الجامع لجميع الأحكام والحدود حتَّى أُرش الخدش ، أي حتَّى

(٤٤٣) البيان في تفسير القرآن ٢٢٣ .

(٤٤٤) الفهرست ٤٨ .

دِيَّةٌ خَدَشَ الْجِلْدَ مِنْ احْمَرَارِ الْبَشْرَةِ أَوْ اسْوَادَادِهَا ، أَيْ حَتَّى الْعَوْضِ عَنِ الْجَنَائِيَةِ الصَّغِيرَةِ ، وَخَدَشَهُ : خَمَشَهُ بِالْأَطَافِيرِ ، وَخَدَشَتِ الْمَرْأَةُ وَجْهَهَا عِنْدَ الْمُصِيبَةِ ، وَالْخَدَشُ وَالْخَدُوشُ : الْأَثْرُ فِي الْجِلْدِ ؛ وَالْأَرْضُ : مَا يُدَلُّ عَلَى الْقَلَّةِ أَوْ غَيْرِ الْمُحَدَّدِ مِنَ الْبَدَلِ ، مِنْ مِثْلِ ثَمَنِ الْمَاءِ إِذَا وَرَدَ قَوْمٌ عَلَى قَوْمٍ فَلَا يُمْكِنُونَ مِنْ الْمَاءِ حَتَّى يَأْخُذُوا الثَّمْنَ (٤٤٥) .

الخلاصة

إِنَّ صَحْبَةَ الْإِمَامِ لِلْقُرْآنِ وَمَعِيَّتَهُ لَمْ تَنْقَطِعْ ، اسْتِنَادًا إِلَى :

١ . قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلِينَ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَعِثْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي ، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ .

٢ . قول رسول الله ص : كِتَابُ اللهِ حَبْلُ اللهِ الْمَمْدُودُ ، وَالْحَبْلُ : هُوَ سَبَبُ الْأَمَانِ وَالنَّجَاةِ وَالْوَصُولِ إِلَى الْبُغْيَةِ .

٣ . قوله ص : عَلَيَّ مَعَ الْقُرْآنِ ، وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ ، لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ .

(٤٤٥) ترتيب كتاب العين ٧٦/١ .

٤ . توكيده ع بالقسم : فوالله ما نزلت آية من كتاب الله في ليلٍ ولا نهار، ولا مسير ولا مقام ، إلا وقد أقرّنيها رسول الله ص وعلمني تأويلها ، وقد جاءت المعية على لسان الإمام ع بمؤكدين : إنّ الكتاب لمعي : ما فارقتهُ مُذ صحبته .

فإذا كان أمير المؤمنين الذي تهيأ له ما لم يتهيأ لغيره ، وكان مصداقاً لمضامين أحاديث النبي ص عن الملازمة بين القرآن والعترة ، وحبل الله الممدود من السماء إلى الأرض ، ومعيته للقرآن ، فهل هناك شهادة أعلى من شهادته على ثبات نصّ القرآن الكريم ؟

وهل يُخشى على القرآن الكريم من التغيير أو التحريف بوجوده !؟

الفصل التاسع : ثبات نصّ القرآن الكريم

تلقّى الإمام أمير المؤمنين القرآن الكريم من النبيّ ص ، وتتفق الروايات على أنّه تقدّم به موضوعاً بين دفتين بعد ثلاثة أيّام من رحيله ص ، إذ قال في شهادته : (أليث أن لا أرتدي برداء إلاّ للصلاة حتى أجمع القرآن ... أو قال : ما قبض رسول الله ص أقسمت أو حلفت ... وبإسناده عن عبد خير عن علي عليه السّلام قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ، أقسمت أو حلفت أن لا أضع ردائي على ظهري ، حتى أجمع ما بين اللوحين ، فما وضعت ردائي على ظهري حتى جمعت القرآن)(٤٤٦) .

كان ذلك في تلك الحقبة المهمّة من تاريخ الإسلام ، التي ترتبط بشكل وآخر بمسألة البيعة والخلافة ، ولا فكاك بينهما ، وجلس الإمام في بيته بعد وفاة رسول الله لكتابة المصحف ذات معنى ؛ فضلاً عن اختصاصه وتمكنه من القرآن ، فهو القائل : (سلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آيةٍ إلاّ وأنا أعلم أبليلٍ نزلت أم بنهار ، أم في سهلٍ أم في جبل)(٤٤٧) مثلما عرضنا ، وليس هذا بغريب عنه لأنّه العالم بالتنزيل والتأويل ، وآخر الناس عهداً برسول الله ، مات ورأسه في حجر عليّ بن أبي طالب(٤٤٨) ، و(اتّفق الكل على أنّه كان يحفظ القرآن على عهد رسول الله ... ثمّ هو أول من جمعه)(٤٤٩) ؛ وفي أخبار أبي رافع أنّ النبي ص قال في

(٤٤٦) حلية الأولياء ٦٧/١ ، وتوضيح الدلائل ١ / ٤١٨ .

(٤٤٧) فتح الباري ٨ / ٥٩٩ ، زاد المسير ٤ : ٢٤٥ .

(٤٤٨) المصدر نفسه ٨ / ١٠٦ .

(٤٤٩) شرح نهج البلاغة ١ / ٣٠ .

مرضه الذي توفي فيه لعليّ : يا عليّ هذا كتاب الله خذهُ إليك ، فجمعه علي في ثوب فمضى به إلى منزله ، فلما قبض النبي ص جلس عليّ فألفه كما أنزله الله وكان به عالماً ، وقال : حدثني أبو العلاء العطار ، والموفق خطيب خوارزم في كتابيهما ، بالإسناد عن علي بن رباح أن النبي ص أمر علياً بتأليف القرآن ، فألفه وكتبه ، وقال ابن شهر آشوب في المعالم : الصحيح أن أول من صنف في الاسلام علي ع ، جمع كتاب الله جل جلاله (٤٥٠) .

فالمعروف أنّ القرآن كان مجموعاً عند الإمام عليّ ع بعد رسول الله ص ، لأنّه وارث علمه ، وهو المقروء والمكتوب بإشرافه المباشر ، وقد أقرأ الإمام أبناءه : الحسن والحسين ومحمّد بن الحنفية ، وأبا عبد الرحمن السلمي ، وأبا الاسود الدؤلي ، وعبد الرحمان بن أبي ليلى ، وغيرهم (٤٥١) ، وقد ضبطت تلك القراءة رسمًا لاحقًا بتتقيط القرآن وتشكيله الذي تمّ على يد أبي الاسود الدؤلي ، أي أنّ أبا الأسود كان الجسر الرابط بين المحفوظ في الصدور والمكتوب على القرطاس والورق ، لأنّه برسمه قواعد تتقيط الإعراب قد ربط المتلوّ شفاهاً بالمكتوب المضبوط بالنقط يدًا ؛ والقرآن الرائج اليوم قراءة ورسمًا منسوب إلى أمير المؤمنين ، ومنه يرتفع إلى رسول الله ، ثمّ إلى جبرئيل الأمين ، ثمّ إلى ربّ العزّة والجلالة ؛ ويرجع السيّد علي الشهرستاني أنّ الإمام عليه السلام هو نفسه الذي وجد ضرورة تسريب مصحفه إلى عثمان ، وارتبط هذا التسريب بصاحبه حذيفة بن اليمان ، الذي كان قد نبّه على ضرورة توحيد المصاحف ، لاختلاف الناس في قراءته تبعًا لاختلاف

(٤٥٠) مناقب آل أبي طالب ٢/٤٠ .

(٤٥١) السبعة في القراءات ٦٨ ، وغاية النهاية في طبقات القراء ١/٢٤٤ .

الصحابة؛ ولأنَّ الإمام عليه السلام كان يخاف أن يزداد في القرآن ما ليس منه ، بمعنى أن يدرجوا من كلمات الرسول ص التي سمعوها في تفسير الآيات وتأويلها في أصل القرآن ، أو أن ينقُصوا بعض التفسيرات والتأويلات النبوية الموجودة في هامش مصاحفهم الذي كان رائجًا بينهم ، وكان من أسباب ثبات النصِّ القرآنيِّ الكريم عن النبيِّ ص والإمام ع .

أولاً : حُذيفة بن اليمان وتوحيد قراءة القرآن

إنَّ حذيفة بن اليمان أمين سرِّ رسول الله الذي ينتسب إلى الأسرة التي أكرمها الله بالإخلاص في صحبة النبيِّ ص والتشرف بالدفاع عن حمى الإسلام ، فوالده طالبُ الشهادة يوم أحد ، ووالدته المُحبَّة لرسول الله ، الحريصة على أن يداوم ولدها على الجلوس بين يدي النبيِّ ص ؛ ولهذه الأسرة مؤاخة بعمَّار بن ياسر الذي كان من السابقين وكبار المهاجرين^(٤٥٢) ؛ ولحذيفة نفسه ولدان هما صفوان وسعد كانا قد بايعا عليًّا بوصية من أبيهما ، وقد استشهدا معه في صفين^(٤٥٣) ، وكان حذيفة (أول من جاء بفكرة توحيد المصاحف على عهد عثمان)^(٤٥٤) ، وهو الذي نبه على خطورة اختلاف المسلمين فيه ، وقد أشار على عثمان ، في قوله : (أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى)^(٤٥٥) ؛ ولما كان الإمام موكلاً بالقرآن ويرجو مصلحة الأمة العامة فقد سرَّبه عن طريق حذيفة^(٤٥٦) ، من دون النظر إلى تسجيل العمل باسمه أو باسم غيره لأجل وحدة المسلمين .

^(٤٥٢) سير أعلام النبلاء ٢ / ٣٦٢ ، حذيفة بن اليمان أمين سر رسول الله ٣٠ .

^(٤٥٣) الاستيعاب ١ / ٣٣٤ ، وحذيفة بن اليمان أمين سر رسول الله ٢٥ .

^(٤٥٤) جمع القرآن للشهرستاني ١ / ٢٦٤ .

^(٤٥٥) البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٣٦ .

^(٤٥٦) جمع القرآن للشهرستاني ١ / ٣٦١ .

وَيُذَكَّرُ أَنَّ جُمْلَةً مِنَ الْأَحْدَاثِ الْمُبَاشِرَةِ وَغَيْرِ الْمُبَاشِرَةِ كَانَتْ السَّبَبَ بِمَجِيءِ حُذِيفَةَ بِفِكْرَةِ تَوْحِيدِ الْمَصَاحِفِ ، فَبَعْدَ أَنْ جَمَعَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ الْقُرْآنَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ ، خَالَفَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَسَالِمُ مَوْلَى أَبِي حُذِيفَةَ^(٤٥٧) ، فَشَاعَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ اخْتِلَافُ الْقِرَاءَاتِ ، وَكُلَّ مَجْمُوعَةٍ تَدَافَعُ عَنْ قِرَاءَتِهَا ، وَكَانَتْ فَرِضِيَّاتٍ تَأْخِيرُ التَّدْوِينَ السَّبَبَ فِي تَعَدُّدِ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ ، وَمِنْ ثَمَّ ادَّعَى جَمْعُ الْقُرْآنِ الْمَجْمُوعِ فِي الْأَصْلِ ، لَكِنَّ تَضَارِبَ مَضَامِينِ هَذَا الْجَمْعِ جَعَلَهَا أَبْعَدَ مَا تَكُونُ عَنْ أَنْ تَنْتَهِضَ لِلْوُقُوفِ أَمَامَ التَّوَاتُرِ الْمَوْجِبِ لِلْقَطْعِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي بَأَيْدِينَا هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى مِنْ دُونِ أَنْ يَزَادَ فِيهِ أَوْ يَنْقُصَ .

فَعَلَى الْبَاحِثِ الْمَنْصَفِ فِي هَذَا الْمَضْمَارِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنِ التَّوْظِيفِ النَّظَرِيِّ الْمَحْضِ الَّذِي يَخَالِفُ الْمَوْجُودَ التَّطْبِيقِيَّ عِنْدَ الطَّرْفَيْنِ فِي تَأْجِيجِ الصَّرَاحِ ، وَأَنْ يَسْمُوَ عَنِ الْإِنْجِرَارِ وَرَاءَ اتِّهَامِ مَخَالَفِهِ بِمَقُولَاتِ التَّحْرِيفِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ يَقْتَصِرَ وَجُودُهَا عَلَى التَّدَاوُلِ الْعِلْمِيِّ وَالدَّرْسِ النَّقْدِيِّ التَّارِيخِيِّ ، وَيَنْبَغِي تَحْرِي الدَّقَّةَ فِي النُّقْلِ وَالتَّحْلِيلِ وَالِاسْتِنْتَاجِ مَعَ أَطْرُوحَاتِ وَمَصَادِرِ الْمَدْرَسَتَيْنِ ، لِأَنَّ الْمُؤَكَّدَ أَنَّ رَوَايَاتِ النِّقْصِ وَالزِّيَادَةِ مَتَدَاوِلَةٌ ، لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . مُتَحَقِّقًا عَلَى صِحَّةِ نَسْخَةِ الْقُرْآنِ الْمَوْجُودَةِ فِي طُولِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَعَرْضِهَا ، قَدِيمًا مِنْذُ أَنْ سَكَتَ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَكُوتَ رِضَى وَقَبُولَ وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَى عَثْمَانَ ، وَحَافِظَ عَلَى وَحْدَةِ الْكَلِمَةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَهَذَا مَا نَجِدُهُ فِي عَصْرِنَا إِذْ إِنَّ عَامَّةَ الْعُلَمَاءِ الْمَعَاصِرِينَ مِنَ السَّنَةِ وَالشَّيْعَةِ عَلَى ذَلِكَ ، فَلَا مَعْنَى لِلتَّنَابُزِ الَّذِي يَخْدُمُ أَعْدَاءَ الْمُسْلِمِينَ .

(٤٥٧) سعد السعود ١٤٣٨ ، ٦٢٧ .

وَيُؤرِّخُ لتفاقم الاختلاف في تعدد القراءات ما وَجَدَهُ حذيفة بن اليمان في غزوة أرمينية ، والاصطراع بين أطراف الجيش الغازي ، فهو أَوَّلُ من فكَّر في العودة إلى المصحف المجمع عليه ، ونبذ الاختلاف ، وهو القائل : (أنا النذيرُ العُريَانُ)(٤٥٨) ، والقائل : (كرهت أن يُقالَ قراءة فلان وقراءة فلان ، فيختلفون كما اختلف أهل الكتاب)(٤٥٩) .

والمعلوم أنَّ (الاختلاف في القراءة كان نقمة على الأمة ، وقد ظهر ذلك في عصر عثمان ، فكيف يصحَّ أن يطلب النبي ﷺ من الله ما فيه فساد الأمة ؟ وكيف يصحَّ على الله أن يجيبه إلى ذلك؟ وقد ورد في كثير من الروايات النهي عن الاختلاف)(٤٦٠) .

أمَّا الذي يخصُّنا أكثر من غيره في هذا المضمار فهو ما وجده حذيفة من اختلاف أهل البلدان في القرآن وأنَّ أهل حمص يقولون قراءتتا خير من قراءة غيرنا وأخذناها عن المقداد ، وأهل دمشق يقولون كذلك ، وأهل البصرة عن أبي موسى ، وأهل الكوفة عن ابن مسعود ، وأنكر ذلك واستعظمه وحذر من الاختلاف في القرآن، ووافقه من حضر من الصحابة والتابعين ، لكن أنكر عليه ابن مسعود وأصحابه فأغلظ عليهم وخطأهم ، وسار حذيفة إلى عثمان فأخبره وقال : أنا النذير العريَانُ فأدرك الأمة ، فجمع عثمان الصحابة فرأوا ما رآه حذيفة .

(٤٥٨) النذير العُريَانُ الذي يتجرّد من ثيابه ليشير بها ، لخطر عظيم يُخافُ مفاجأته ، تاج العروس ١٤ / ٢٠١ .

(٤٥٩) كتاب المصاحف ١٤ .

(٤٦٠) البيان في تفسير القرآن ١٨١ - ١٨٢ .

والنَّذير العُريان : المبالغة في الإنذار خوف أن لا يفطن المخاطبون ، وكناية عن الحرص والشِدَّة في الإنذار والتبليغ ، فيتعرى المُنذر ويلوح بثوبه لقومه ، وجاء في الحديث على لسانه الشريف : (إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْل مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، كَمِثْلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ : يَا قَوْمِي إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِينِي ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالْتَّجَاءِ النَّجَاءَ ...) (٤٦١) .

فكان الانطلاق في هذا المشروع من رجوع حذيفة من غزو أرمينية ناقماً وغاضباً ومتعجباً من اختلاف الناس في القرآن ، وكان قد استشار من كان بالكوفة من صحابة الرسول ص بشأن معالجة القضية قبل تفاقم الأمر ، سعياً إلى حمل عثمان ليقوم بتوحيد نسخ المصاحف ، وإلجاء الناس على قراءة واحدة ، فاتفقت كلمة الصحابة على صواب هذا الرأي ، سوى عبد الله بن مسعود ، ومن ثم أزمع في الأمر وسار إلى المدينة يستحث عثمان على إدراك أمة محمد ص قبل تفرقها، قال : يا أمير المؤمنين، أنا النذير العريان أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى! قال عثمان : وما ذاك؟ قال: غزوت مرج أرمينية فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب ، ويأتون بما لم يسمع أهل العراق ، وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة ابن مسعود ويأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضاً (٤٦٢).

ويُروى أنه قال : (لقد رأيت في سفرتي هذه أمراً لئن نزل بالناس ليختلفن في القرآن، ثم لا يقومون عليه أبداً ... رأيت أناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل

(٤٦١) مختصر فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٣٩٢/٤ .

(٤٦٢) تلخيص التمهيد محمد هادي معرفة ، قم ، ٢٠١٦ ، ١ / ٣٣٨ .

ذلك ، وأنهم قرؤوا على ابن مسعود ، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك ، وأنهم قرؤوا على أبي موسى ، ويسمون مصحفه لباب القلوب ، فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك، وحذرهم ما يخاف ، فوافقه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكثير من التابعين . فتفاوض حذيفة ، وابن مسعود ... وتفرق الناس وسار حذيفة إلى عثمان ، وأخبره بما رأى ، وقال : أنا النذير العريان ، فأدرك الأمة . فجمع عثمان الصحابة أخبرهم الخبر، فأعظموه(٤٦٣) .

وكان هذا هو سبب غضب حذيفة بن اليمان ، الذي سار إلى عثمان فأخبره بالذي رأى ، وقال : أنا النذير العريان ، فأدركوا الأمة ، فحذيفة صاحب الفكرة الأولى في توحيد المصاحف ، بعد أن لاحظ خطر الخلاف بيت صفوف الجيش ؛ حتى راح يستفتي الصحابة في مدينة الكوفة بعد وصوله إليها ، مُبدياً حماسة كبيرة لمشروعه ، وكان قد استقرّ رأيه على حمل عثمان على توحيد المصاحف ، وكانت هذه الدعوة قد جعلت الجميع يوافق حذيفة فيما رأى ، وكان الإمام أمير المؤمنين ع قد وافق على المشروع ، قائلاً : (فوالله ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلا عن ملائمة منا ، استشارنا في أمر القرآن ... قلنا فماذا رأيت؟ قال : أرى أن يُجمع الناس على مصحفٍ واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا نعم ما رأيت ...) (٤٦٤).

جاء في تفسير الطبري : (أنه اجتمع في غزوة أذربيجان وأرمينية أهل الشام وأهل العراق ، فتذاكروا القرآن واختلفوا فيه حتى كاد يكون بينهم فتنة ؛ فركب حذيفة بن اليمان لما رأى اختلافهم في القرآن إلى عثمان ، فقال: إن الناس قد اختلفوا في

(٤٦٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ١٩ / ٤٣٩ .

(٤٦٤) تلخيص التمهيد ١ / ١٧١ .

القرآن ، حتى أنني لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف! قال : ففزع لذلك فزعاً شديداً، فأرسل عثمان إلى حفصة ، فاستخرج الصحف التي كان أبو بكر أمر زيداً بجمعها ، فنسخ منها مصاحف ، فبعث بها إلى الآفاق)(٤٦٥) .

فما أثاره خطاب حذيفة بن اليمان من حماس جاء بالنتيجة المرجوة ، ولاسيما بعد معارضة مشروعه في الكوفة من متابعي عبد الله بن مسعود ، وقوة ما استعمله من أسلوب وأفعال كلامية ، وكذلك ما اقترنت به من عبارات حادة ، مستنداً إلى الملموس من الوقائع المرة ، وكذلك ما استعمل من الحجج القويّة في تفادي ضرر الخلاف والاختلاف ، كل ذلك كان له الأثر البالغ في إقناع المخاطبين ، وفي جعل مشروع توحيد القراءات يتجه نحو الإنجاز؛ ونذكر فيما يأتي أبرز ما نعنيه من مفردات وتراكيب هذا الخطاب وما اتّصلَ به، ليتضح ما نعني :

. لقد رأيت في سفري هذا أمراً لئن تُرك ليختلفنّ في القرآن ثمّ لا يقومون عليه أبداً.

. يتنازعون في القرآن حتى سمع حذيفة من اختلافهم ما ذعره ...

. أفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ... أو أفزع باختلافهم ...

. فغضب حذيفة حتى احمرت عيناه .

. كان ناقماً اختلاف الناس في القرآن ...

. لأمرته بحرق المصاحف...

(٤٦٥) تلخيص التمهيد ٤٦/١ .

. والله إن بقيت حتى أصل أمير المؤمنين ، لأمرنه بجعلها قراءة واحدة ...

. والله لئن عشت.... لأُشِيرَنَّ عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك ...

. أزمع في الأمر وسار إلى المدينة ...

. لم يدخل داره حتى أتى عثمان ...

. أنا النذير العُريان ... أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب ...

. أو أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ...

حتى كان لحذيفة ما أراد بتأليف لجنة توحيد الناس على مصحف واحد ، فلا فُرقة ولا اختلاف (٤٦٦) .

فأعاد مشروع حذيفة بن اليمان المسلمين إلى القراءة المتعارف عليها بينهم والتي تلقوها بالتواتر عن النبي ص ، ومنع القراءات الأخرى (٤٦٧) .

فحذيفة بن اليمان كان السبب أو الرابط بين الخليفة والإمام ، لأنه هو الذي أشار على عثمان بتوحيد المسلمين على القراءة الواحدة ، كما أنه هو الذي أوصل المصحف الذي كان عند الإمام علي إلى عثمان ، حسب قول ابن طاووس ، ذلك لأنّ الذي يهّم الإمام ويرجوه هو المصلحة العامة للأمة في القرآن ، وهو إقرارهم على قراءة واحدة ، حفاظًا على القرآن نفسه ووحدة مجتمع المسلمين (٤٦٨) .

(٤٦٦) كتاب المصاحف ٢٣ .
(٤٦٧) البيان في تفسير القرآن ٢٢٧ .
(٤٦٨) جمع القرآن للشهرستاني ٣٣٧/١ .

كلّ ذلك بعد أن جمع عثمان (المصحف برأي مولانا عليّ بن أبي طالب ع ، وأخذ عثمان مصاحف أبيّ وعبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة فغسلها غسلًا ، وكتب عثمان مصحفًا لنفسه ، ومصحفًا لأهل المدينة ، ومصحفًا لأهل مكة ، ومصحفًا لأهل الكوفة ، ومصحفًا لأهل البصرة ، ومصحفًا لأهل الشام)^(٤٦٩) ؛ فأعيد الدّور للإمام عن طريق حذيفة بن اليمان لتتوحّد الأُمَّة على القرآن المتداول من زمن رسول الله إلى اليوم ، استنادًا إلى الجمع والترتيب النبوي ، والوضع بين الدفتين والشكل لعلي بن أبي طالب^(٤٧٠) .

ثانيًا : شهادات ثبات النّص القرآنيّ

استقرّ عند كبار علماء المدرستين في هذا العصر الرّفص القطعيّ للتحريف لما يُتداول من القرآن الكريم ، ومن ذلك ما عرضه الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء : (الأخبار الواردة من طرقنا وطرقهم ، الظاهرة في نقصه وتحريفه ، ضعيفة شاذّة ، وأخبار آحاد ، لا تُفيد علمًا ولا عملاً ، فإمّا أن تُؤوّل بنحو من الاعتبار ، أو يُضرب بها الجدار)^(٤٧١) .

وكتب العلامة الألوسي : (تصدّر للخلافة الراشدة عليّ المرتضى ، وهو باب مدينة العلم لكلّ عالم ، والأسد الأشدّ ، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم ، لا يبقى في

(٤٦٩) سعد السعود ١٤٣٨ ، ٦٢٧ .

(٤٧٠) جمع القرآن للشهرستاني ٤٠/٢ .

(٤٧١) محطات في تاريخ القرآن ٣٦٢ .

ذهن مؤمن احتمال سقوط شيء بعدُ من القرآن ، وإلّا لوقع الشكّ في كثير من ضروريّات هذا الدين الواضح البرهان^(٤٧٢) .

وعند السيّد الشهرستاني : (المصحف بمثابة المؤمن عليه من التلاعب ، إذ لو تلاعب شخصٌ أو قومٌ لفضحهم أمير المؤمنين ع ، من خلال المكتوب عنده والموجود أصله خلف فراش رسول الله ص ، إذ لا يستطيع غيرُ عليّ بن أبي طالب ادّعاء وجود تمام المصحف عنده)^(٤٧٣) . ذلك لأنّ جمع القرآن كان قد استقرّ في عهد النبي ﷺ ، ولأنّ الجمع ضرورة منطقية من ضرورات تشكّل الأمة الجديدة، فهو دستورُها الأساس ، ومرجعها الأول روحياً وفكرياً وسياسياً واجتماعياً ... إلخ، وأدلتها هي الأدلة القطعية ، يتجلّى ذلك في تتابع نزوله ، وطريقة تحفيظه ، وكثرة حافظيه ومستظهريه ، لكنّ الحفظ في الصدور وحده لا يؤتمن من النسيان والاشتباه والوقوع في الخطأ ، على الرغم من حمل الجميع على التقوى والأمانة والإخلاص، لكنّ التغيّر والسهو والضعف والموت والتقدم ، يدرك من جميعها ما يؤلّف هاجس الخوف على المحفوظ في الصدور ؛ فلا بُدّ للنبي ﷺ الذي حرص على الحفظ وقد طمّنه الباري في قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك ﴾ ، أن أدرك أخطار ذهاب الحفظ والحفظ ، فضلاً عن علمه ومعرفته بما حصل للرسالات السماوية السابقة من تحريف وتزوير ، فكيف يكون قد تركّ التدوين وقد توافرت بين يديه ﷺ إمكانيات الكتابة والتسجيل؟! فلا يُعقل أن يهمل رسول الله ﷺ تدوين الكتاب المنزل، وهو الحاثُّ على تعليمه وقراءته آناء الليل وأطراف النهار؟! والذي كان يحبّذ القراءة في

^(٤٧٢) روح المعاني ١/١٣٨ .
^(٤٧٣) جمع القرآن للشهرستاني ١/٥٣٧ .

المصاحف ويقدمها على الحفظ والاستظهار؟! ولذا نجد أنه (قد سنَّ ﷺ جمع القرآن وكتابته ، وأمر بذلك وأملاه على كتّابته ، وإنه ﷺ لم يمت حتى حُفِظَ جميعُ القرآن جماعةً من الصحابة ، وحفظ الباقر من جميعه متفرِّقاً ، أو عرفوه وعلموا مواقعه ومواضعه على وجه ما يعرف ذلك اليوم من ليس من الحقاظ لجميع القرآن)(٤٧٤) .

وكان الإمام قد تداول القرآن المعروف ، وجرى التحكيم به ، واستند إليه في خطبه ، ورسائله ، ومجمل أقواله واحتجاجه ، ودفاعه عنه في مثل قوله : القرآن لا يُهاج ولا يُحوّل ، أو لا يُهاج اليوم ولا يُحرّك ، أي يبقى على ما هو عليه ، أو إنّ القرآن لا يهاج ولا يُحرّف ولا يُفتَح الباب لأعداء القرآن بالطعن عليه(٤٧٥) .

وجاء بالصدق وصدّق به ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . الزمر ٣٣﴾ ، نزلت في حق علي ع ؛ فعن مجاهد : نزلت في علي بن أبي طالب ع وعن الباقر ع : (الذي جاء بالصدق محمد ص ، والذي صدّق به علي بن أبي طالب ع(٤٧٦) ، وفي مجمع البيان : (اِخْتُلِفَ فِي الْمَعْنَى بِهِ فَقِيلَ : الذي جاء بالصدق محمد ص ، جاء بالقرآن وصدّق به المؤمنون ... وقيل الذي جاء بالصدق وهو القرآن جبرائيل ع وصدّق به محمد ص ... وقيل الذي جاء بالصدق رسول الله ص وصدّق به أبو بكر عن أبي العالية والكلبي ... وقيل الذي جاء بالصدق محمد ص وصدّق به علي بن أبي طالب ع ، عن مجاهد ورواه الضحاك عن ابن عباس ، وهو المروى عن أئمة الهدى ع من آل محمد

(٤٧٤) رسم المصحف لغانم قدوري الحمد ٩٩ .
(٤٧٥) الميزان ١١٣/١٩ .

(٤٧٦) كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين ع ٤٠٠ .

ص...)(٤٧٧) ، وفي تفسير ابن عطية (قال علي بن أبي طالب وأبو العالية والكلبي وجماعة منهم مجاهد : الذي صدّق هو علي بن أبي طالب ، وقال قتادة وابن زيد: والذي جاء هو محمد ع ، والذي صدّق به هم المؤمنون ، قال مجاهد هم أهل القرآن...)(٤٧٨) ، وقال ابن عاشور : (روى الطبري بسنده إلى علي بن أبي طالب، أنه قال : الذي جاء بالصدق محمد ص والذي صدّق به أبو بكر، وقال الكلبي وأبو العالية ، ومحملة على أنّ أبا بكر أول من صدّق النبي ص(٤٧٩) ، فالإتفاق على أمير المؤمنين في صدقه لما جاء به ص .

ثالثاً : (الشاهد منه) وترتيب الخلفاء

دأب عامة المفسرين على إشراك الخلفاء ، في توجيه الفضائل المذكورة في القرآن الكريم ، واعتماد ترتيب تنصيبهم فيما يذكرون ، ونعرض على سبيل المثال تفسير قوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنَّا هُمْ كِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ . الأنعام ١١٤) ، فيقول ابن عاشور : ﴿هم رؤساء أصحاب محمد ص ، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، فيكون الكتاب هو القرآن ؛ وضمير "أنه" عائد إلى الكتاب ... وهو القرآن...)(٤٨٠).

ومثل هذا ما جاء في تفسير قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ . النساء ٥٩﴾ ، فقد يوجّه بعضهم أنّ الإشارة بـ ("أولي الأمر"

(٤٧٧) ٦٤٢/٨ .

(٤٧٨) المحرّر الوجيز ٤ / ٢٠٦ .

(٤٧٩) التحرير والتنوير ٧ / ١٣ .

(٤٨٠) المصدر نفسه .

إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، وحُكِي عن عكرمة أنها إشارة إلى أبي بكر وعمر خاصة ...)(٤٨١) .

ففرضية تسلسل تولي الخلفاء تمنع عند بعضهم أن يكون (الشاهد منه) هو الإمام، فيما يخص موضوعنا (القرآن والشاهد منه) ، حتى أنهم ذكروا أن الخليفة الأول هو الشاهد منه استنادًا إلى هذه الفرضية^(٤٨٢) ، لكن الإمام أجاب من سأله حين (قال له رجل : ما نزل فيك ؟ قال : أما تقرأ سورة هود أفمن كان على بينة الآية، من كان على بينة من ربه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأنا شاهد منه ، وأخرج المنهال عن عبادة بن عبدالله مثله ، وأخرج ابن مردويه بوجه آخر عن علي كرم الله تعالى وجهه ، قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : أفمن كان على بينة من ربه أنا ويتلوه شاهد علي ، وأخرج الطبرسي نحو ذلك عن بعض أهل البيت رضي الله تعالى عنهم ، وتعلق به بعض الشيعة في أن عليًا كرم الله تعالى وجهه هو خليفة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، لأن الله تعالى سماه شاهدًا كما سمي نبيه كذلك في قوله سبحانه : إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا والمراد شاهدًا على الأمة كما يشهد له ، عطف (مبشرًا ونذيرًا) عليه فينبغي أن يكون مقامه كرم الله تعالى وجهه بين الأمة كمقامه بينهم وحيث أخبر سبحانه أنه يتلوه أي يعقبه ، ويكون بعده ، دلّ على أنه خليفته ، وأنت تعلم أنّ الخبر مما لا يكاد يصح ... ويكذبه ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ

(٤٨١) المحرّر الوجيز ٧١ / ٢ .

(٤٨٢) تفسير المنار ٥٣ / ١٢ .

والطبراني في الأوسط عن محمد بن الحنفية رضي الله تعالى عنه قال : قلت لأبي كرم الله تعالى وجهه : إن الناس يزعمون في قوله تعالى : ويتلوه شاهد منه أنك أنت التالي قال : وددت أني هو ولكنه لسان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم على أن في تقرير الاستدلال ضعفاً وركاكة بلغت الغاية القصوى كما لا يخفى على من له أدنى فطنة(٤٨٣) .

وسنعرض في الفصل الأخير توجيه السيّد البدريّ لحديث ابن الحنفية وغيره وما اعترى روايته من أوهام وأخطاء ، لكنّ شهادة اللسان . فيما يبدو . خالية من الواقع والمنطق ، إلا أن يكون اللسان هو لسان الإمام في التبليغ عن رسول الله ، بقريظة أنه نفسه ، في آية المباهلة ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . آل عمران ٦١﴾ ، أو كما ورد في حديث المنزلة (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) ، أو هو المبلّغ عنه سورة التوبة .

على أنّ الشيخ محمد رشيد رضا من الذين حاولوا إبعاد أن يكون عود ضمير الغائب (شاهد منه) على الإمام ، وفي الوقت نفسه إبعادها عن أبي بكر ، فيذكر أنّ الشاهد منه (عليّ رض برواية الشيعة ويفسّرونه بالإمامة ، وروى أنه كرم الله وجهه سئل عنه فأنكره وفسّره بأنّه لسانه ص ، وقابلهم خصومهم بمثلها فقالوا : إنّه أبو بكر ، وهما من التفسير بالهوى ...) (٤٨٤) .

(٤٨٣) روح المعاني ٢٦٨/٣ .

(٤٨٤) تفسير المنار ١٢ / ٥٣ .

ثالثاً : القراء والقراءات وأمير المؤمنين

أبرز من عرض القرآن على الإمام أبو عبد الرحمن السلمي وأبو الأسود الدؤلي،
وعبد الرحمن بن أبي ليلى^(٤٨٥)؛ لذلك فالقراءة التي كُتِبَ بحسبها المصحف المتداول
الشائع في هذا العصر . وفي جميع العصور . هي قراءة التابعيِّ الكبير أبي عبد
الرحمن السلمي الكوفي (ت ٧٤هـ) عن الإمام عن رسول الله ص عن جبرائيل عن الله
عزَّ وجلَّ ؛ وعن السلمي انتقلت إلى حفص ، وهو أبو عبد الرحمن عبد الله بن
حبيب بن ربيعة الضرير، ولأبيه صحبة ، كان مولده في حياة النبي ص ، وهو
أحد أعلام التابعين وثقاتهم^(٤٨٦) ، صحب أمير المؤمنين وسمع منه ، وعدّه البرقي
من خواصه من مضر^(٤٨٧) ، ولحفص صلة بالإمام الصادق عليه السلام ، وعاصم بن أبي
النجدود عن حفص ، وعاصم من أعلام الكوفة ، وكان السلمي قد شهد صفين مع
الإمام علي عليه السلام ^(٤٨٨) ، قال السلمي : قرأت القرآن كله على علي بن أبي طالب
عليه السلام ، ونُقل عنه قوله : (قرأت على أمير المؤمنين علي القرآن كثيراً)،
واللافت أنّ السلمي يذكر توكيد قراءته عن علي عليه السلام بالإسماع والاستماع، إذ لم
يكتفِ بأن يقرأ عليه ، بل يستمع منه أيضاً ، بقوله : (أمسكتُ عليه المصحف فقرأ

(٤٨٥) التمهيد في علوم القرآن ٢ / ٢٤٩ و ٢٥٠ .

(٤٨٦) سير أعلام النبلاء ٤ / ٢٦٨ .

(٤٨٧) الجرح والتعديل ١ / ١٣١ ، وتحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل ١٧١ .

(٤٨٨) المعارف ٥٢٨ ، ورجال البرقي ٣٦ / الترجمة ٧٣ ، وشرح نهج البلاغة ١٠ / ٢٨٨ .

عليّ^(٤٨٩) . وعن أحمد بن حنبل وغيره : (أقرأ أبو عبد الرحمن السلمي القرآن في المسجد الأعظم بالكوفة أربعين سنة)^(٤٩٠) .

وقيل: رَوَى السُّلَمِيُّ عَنْ عَلِيٍّ وَعَبْدِ اللَّهِ وَعُثْمَانَ ، وَقَالَ حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، قَالَ شُعْبَةَ : لَمْ يَسْمَعْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ مِنْ عُثْمَانَ ، وَلَكِنْ سَمِعَ مِنْ عَلِيٍّ^(٤٩١) ، وقد ذكر أبو عمرو الداني بأنَّ السلمي أخذ القراءة أيضًا عرضًا على عثمان وابن مسعود وأبي بن كعب وزيد بن ثابت^(٤٩٢) .

وبما أنَّ السُّلَمِيَّ كُوفِيٌّ ، فَلَا يَسْتَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ مَا سَمِعَهُ مِنْ عُثْمَانَ . عَلَى فرض صحّة سماعه من عثمان . على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب أيام خلافته في الكوفة ، فكانت القراءة النهائية موافقة لقراءة الإمام عليّ ع^(٤٩٣) .

(قال ابن النديم في الفهرست عند تسمية من روى عن عاصم ، روى عنه أبو بكر بن عياش وروى عنه حفص بن سليمان وكانت القراءة التي أخذها عن عاصم مرتفعة إلى علي بن أبي طالب ع من رواية أبي عبد الرحمن السلمي ؛ ويحيى بن يعمر العدواني قال ابن خلكان هو أحد قراء البصرة عنه أخذ عبد الله بن إسحاق القراءة وكان عالماً بالقرآن الكريم وكان شيعياً من الشيعة الأولى القائلين بتفضيل أهل البيت من غير تنقيص لذي فضل من غيرهم ، ثم ذكر خبره مع الحجاج في

(٤٨٩) السبعة لابن مجاهد ٦٨ .

(٤٩٠) العلل ٢٠٣/١ ، وأنساب الأشراف ١٣١٣ / ٣٣٩ .

(٤٩١) الطبقات الكبرى ١٧٢ / ٦ .

(٤٩٢) السبعة لابن مجاهد ٦٨ .

(٤٩٣) جمع القرآن ١ / ٢٧٣ .

واختلاف خطوطه ورسم خطه وأشكاله ، يؤكد سلامته من التحريف وعناية الباري بكتابه ، كل ذلك مع سعي أعداء الإسلام إلى تشويه صورته والمساس بنصّه ، فبقاؤه نقيًا بليغًا خير دليل على سلامته من أيّ تحريف أو تصحيف (٤٩٥) .

والمتمأل في القراءات التي سبّعها ابن مجاهد في القرن الرابع الهجري يجد أنّ مصدر أربع من هذه القراءات تنسب إلى أمير المؤمنين علي ع ، ومن البيئة التي أخذت عنه القرآن الكريم ، وأشاع فيها ما عنده عن رسول الله ص ، وهي :

١ . قراءة عاصم بن أبي النجود (ت ١٢٧ هـ) ، انتهت إلى عاصم رئاسة الإقراء بالكوفة بعد أبي عبد الرحمان السلمي ، وكان عاصمٌ يعرض قراءته على غير عبد الرحمان السلمي لغرض الإلتقان فحسب ، ولم يخطئ شيخه السلمي في شيء من قراءته ، والسلمي لم يخالف عليًا عليه السلام في شيء مما يقرأ ، وقد خصّ عاصمٌ ربيبه حفصًا دون غيره ، وهذه فضيلة لحفص امتاز بها على سائر القراء ، وذكر حفص أنّه لم يخالف عاصمًا إلاّ في فتح الضاد ﴿من ضعف﴾ و﴿من بعد ضعف﴾ و﴿ضعفًا﴾ (٤٩٦) ، وقد صحّ عن عاصم الضم والفتح ؛ ورواية حفص بن سليمان ﴿ت ٩٠ - ١٨٠ هـ﴾ عن عاصم هي الشائعة التي يُقرأ بها الآن ، وعليها القرآن المطبوع ؛ وإسنادها إسناد ذهبي عالٍ لا نظير له في القراءات (٤٩٧) .

(٤٩٥) البيان في تفسير القرآن ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٥٩ .

(٤٩٦) سورة الروم ٥٤ .

(٤٩٧) النشر في القراءات العشر ١٢٢/١ - ١٢٣،٢ / ٦١٤ ، طبقات القراء السبعة ١٩٨ - ٢٠٤ ، معجم القراءات القرآنية ٧٧/٥ .

٢ . قراءة أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) ، البصري المولد والنشأة والمتوفى في الكوفة ، الذي كان أعلم الناس بالقرآن والعربية مع الصدق والثقة والأمانة والدين^(٤٩٨)، أخذ عن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر، وهما قرأ علي أبي الأسود الدؤلي ، الذي قرأ علي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وعن نصر أخذ أبو عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة ، (قال المازني : كان جدُّ أبي عمرو بن العلاء صاحب علي بن أبي طالب رض على الراية يوم صفين ...) (٤٩٩) .

٣ . قراءة حمزة بن حبيب الزيّات الكوفي (٨٠ - ١٥٦ هـ) ، أخذ عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام (ت ١٤٨ هـ) ، وهو من قرأ علي محمد الباقر عليه السلام (ت ١١٤ هـ) ، وهو من قرأ علي زين العابدين عليه السلام (ت ٩٥ هـ) ، وهو من قرأ علي أبيه الحسين الشهيد عليه السلام (ت ٦١ هـ) ، الذي قرأ علي أبيه علي عليه السلام (ت ٤٠ هـ) ، كان حمزة إمام الناس بالقراءة في الكوفة بعد عاصم ، وكان ورعاً عابداً خاشعاً ناسكاً زاهداً قانتاً لله لم يكن له نظير^(٥٠٠) ، قال ابن الجزري: (وقرأ جعفر الصادق علي أبيه محمد الباقر وقرأ الباقر علي أبيه زين العابدين ، وقرأ زين العابدين علي أبيه سيد شهداء أهل الجنة الحسين ، وقرأ الحسين علي أبيه علي بن أبي طالب)^(٥٠١) ، و) قرأ حمزة علي حُمران ابن أعين

(٤٩٨) النشر في القراءات العشر ١/١٠٧ .

(٤٩٩) طبقات القراء السبعة ٧٨ .

(٥٠٠) المصدر نفسه ١/١٣٠ .

(٥٠١) النشر في القراءات العشر ١٣٠ .

(ت ١٣٠هـ) ، وقرأ حُمران على أبي الأسود الدؤلي ، وقرأ أبو الأسود على علي بن أبي طالب (٥٠٢) .

٤ - الكسائي الكوفي (ت ١٨٩هـ) قرأ على حمزة الزيات الذي تقدم سنده (٥٠٣) .

وهؤلاء الأربعة كانوا يعيشون في الكوفة ، بلد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي يصحّ القراءة الموجودة في هذا البلد ؛ والذي قال لأحد أتباعه : "اقرأ كما يقرأ الناس" ، وهو حُكْمٌ منه بمشروعية تلك القراءة في ذلك البلد في أيام حياته وتحت إدارته .

ويمكن أن يضاف إلى هؤلاء القراء الأربعة : قراءة نافع التي كان يقرأ بها أهل المدينة ، لأنّه موطن سكن الإمام جعفر الصادق وفي زمانه ، فيمكن تصحيحها من قول الإمام نفسه : (اقرأ كما يقرأ الناس) .

أما قراءة ابن عامر الذي كان في الشام ، التي لم يسكنها أئمة أهل البيت ولا من يتبعهم ؛ ومثلها قراءة ابن كثير ، ولم تكن هاتان القراءتان شائعتين في البلدان التي يسكنها أتباعهم ، وهما متروكتان اليوم ولا يُقرأ بهما أحد قراءة عامّة شائعة .

إنّ القرآن واحد والقراءة العامّة سندها ثابت إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وغيره ، وقد أقرّها ولده من بعده ، والمصحف الموجود والقراءة المتداولة هي قراءة الإمام علي وغيره ممن وافقه أو تابعه ، (وقد روي عن النبي ص رواية لا يدفعها

(٥٠٢) طبقات القراء السبعة ٢٠٤ .

(٥٠٣) البديع لابن خالويه ٣٥ - ٣٨ ، والنشر ١ / ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٧٢ .

أحد ، أنه قال : "إِنِّي مُخَلَّفٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ ، مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضَلُّوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)"(٥٠٤) ، فالموجود بهدي النبي ص وتوجيهه ، وبهذه الثنائيتان ثنائيتان : القرآن / العترة ، وبتلازم طرفيهما ، ومثلها ثنائيتان أخرى تؤكد مضمونها ، وتشهد لها ، وهي التي تربط بين الإمام والقرآن ربطاً مباشراً : (عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ ، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض)"(٥٠٥) ، ونقصد بالثنائيتان العلاقة التلازمية ، تلك التي تربط بين الأمرين المتعالمين .

وعلى هذا فالإمام مع القرآن نصّاً وذكراً وتبانياً ومعيةً ، يسنده المجهود الواضح الذي بذله الإمام في حياة النبي ، إذ كان من كتبته ، ومن ثمّ جاء به إلى قومه بين دفتين ، بعد وفاته ، وهو الذي ثبت أنّ القرآن هو الذي يتداولون ، إذ قال في بدء خلافته : (أفضلُ الناسِ عند الله منزلةً ، وأعظمهم شرفاً ... أحياءهم لكتاب الله... هذا كتاب الله بين أظهركم ... يقول الله في كتابه : ﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ . آل عمران ٣١﴾ ... ليس لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ إلاّ بتقوى الله وطاعته ... فانظروا يا معشرَ المهاجرين والأنصار وأهلَ دينِ الله ما وُصِفتم به في كتابِ الله ، ونزلتم به عند رسول الله ، وجاهدتم عليه ، فبِمِمْ فُضِّلْتُمْ ؟ أِبِحْسَبِ أَوْ نَسَبِ ؟ أَوْ بِعَمَلٍ وَطَاعَةٍ ؟ فَاسْتَمْتَمُوا نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، يَرْحَمُكُمْ اللَّهُ بِالصَّبْرِ لِأَنْفُسِكُمْ عَلَى طَاعَةٍ

(٥٠٤) التبيان في تفسير القرآن ٢٧٠/١ ، ومسند أحمد ٥٩/٣ .

(٥٠٥) مناقب آل أبي طالب ١٨٦/٥ ، ١٣٣/٩ ، وكنز العمال ٦١٣/١١ ، وتاريخ مدينة دمشق ٤٢ / ٤٥١ .

الله ، والدِّلِّ لحكم الله ، والمُسارعة في رضوان الله ، والمُحافظة على ما استحفظكم الله من كتابه ... (٥٠٦) .

فالقرآن مع الإمام ، والإمام مع القرآن ، في الاتِّباع والتطبيق ، والمنهج في المساواة ، والحفاظ وصيانة النصِّ الكريم ، إذ كان قد اشترك في التوجيه في التفكير في الحاجة إلى تثبيت نصّه بضبط حروفه ، ووضع قواعد لغته ، ذلك ما جرى بينه وبين أبي الأسود الدؤلي من حديث في خلافته في مدينة البصرة بعد معركة الجمل سنة ٣٦ هـ .

رابعًا : الخُطوات الكبرى في تثبيت تداول القرآن الكريم

يُلاحظ أنّ وراء ثلاث خُطوات كبرى في تاريخ جمع القرآن وتدوينه وضبط حروفه ، ثلاث شخصياتٍ مهمّة أسهمت في إيصال المصحف المضبوط الذي نعرفه ونتداوله ، هذه الشخصيات كانت على صلة وثيقة بالإمام عليّ بن أبي طالب ، وكذلك على صلة بمن تولّى الأمور ، ومن له صلة بالموافقة على تنفيذ الجمع والتدوين وضبط حروف النصِّ الشريف ، لكنّ هذه الشخصيات لم تلقَ الاهتمام الذي تستحق مثلما لقي غيرها ، فهي الوسيطة التي كانت قد أخذت عن الإمام ما حمّله عن المبعوث رحمة للعالمين ، ولم تذكر مثلما ذُكر زيد بن ثابت على سبيل المثال ، وذلك لغياب عرض تفصيل ما جرى مثلما جرى ، ربّما لصلة هؤلاء بالإمام ، إذ ضيق بعض ولاة الأمور ما يروى عنه ، ولاسيّما ما أرادوها من فضيلة

(٥٠٦) المعيار والموازنة ١١٠ .

لا تتسب إليه بل إلى غيره ، على الرغم ممّا أذاه تلامذة الإمام ، أعني هؤلاء الثلاثة من خدمة جليلة في مجال حفظ القرآن وصيانته وإشاعته كما هو .

أولهم : حذيفة بن اليمان (ت ٣٦ هـ) : الذي جاء بفكرة توحيد المصاحف على عهد عثمان مثلما عرضنا في هذا الفصل مُنبِّهًا على الخطر ، ومعبرًا عن ذعره وغضبه ، بأنّ خاطب الخليفة قائلاً : (إنّ الناس قد اختلفوا في القرآن حتى والله لأخشى أن يُصيبهم ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف ... ففرع عثمان فرعًا شديدًا ؛ فحذيفة بن اليمان هو الذي صمّم على إنجاز مشروع التوحيد المصحف ، حتّى نجح في الوصول إلى مراحل تنفيذه ، بعد أن سعى في توسيع دائرة الاقتناع به في الكوفة أولًا ثم في عاصمة الخلافة المدينة المنورة ثانيًا ، حتّى أنّ أحد الباحثين المعاصرين احتمل أن يكون ذلك الإصرار من التوجيه النبويّ لحذيفة في قوله : (بما أنّ النبيّ ص حدّث حذيفة بما كان ، وبما يكون إلى يوم القيامة ، فلا يبعد أن يُسرّ . عليه الصلّاة والسّلام . إليه أن يُحرّض عثمان لجمع القرآن على حرفٍ واحد ، إذا رأى اختلاف الناس في قراءته ، فكتم حذيفة هذا الأمر حتّى جاء وقته) (٥٠٧) . في السنة الخامسة والعشرين من الهجرة النبويّة الشريفة ، سنة فتح أرمينية (٥٠٨) .

وثانيهم : **أبو عبد الرحمن السلمي** : عبد الله بن حبيب الضرير مقرئ الكوفة ، الإمام العلم من أولاد الصحابة ، كان قد وُلِدَ في حياة النبيّ ص ، ومن بعده انتهت

(٥٠٧) تاريخ القرآن ، لمحمد طاهر الكردي ٣٣ .

(٥٠٨) الكامل في التاريخ ٥٥/٣ .

إلى عاصم بن أبي النجود ، وتلميذه حفص بن سليمان ، ومن بعد عاصم تلميذه حمزة بن حبيب الزيات إمام الناس بالقراءة في الكوفة^(٥٠٩) ، وقرأ حمزة نفسه أيضاً على أبي عبد الله جعفر الصادق ع ، وقرأ على حمزة الزيات نفسه تلميذه الكسائي مثلما عرضنا .

والمُصحف المتداول الشائع المُسمّى مُصحف المدينة المنورة ، كُتِبَ (وَضُبِّطَ على ما يُوافقُ رواية حفص بن سليمان بن المُغيرة الأُسديّ الكوفيّ التابعيّ عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السُّلميّ عن عثمان بن عفّان ، وعليّ بن أبي طالب ، وزيد بن ثابت ، وأبيّ بن كعب عن النبيّ ص ... واتّبعَت في عَدِّ آياته طريقة الكوفيين عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السُّلميّ عن عليّ بن أبي طالب رض^(٥١٠) .

وثالثهم : أبو الأسود الدُّوليّ (ت ٦٩ هـ) : الذي كان قد وُلِدَ في الجاهليّة قبل البعثة النبويّة بثلاث سنوات ، وهو الشخصيّة الفدّة المرموقة ، المقدّمة في طبقات النَّاسِ ، والشاعر والمُحدِّث والمُؤدِّب والنحويّ ، والمأثور عنه الفضل والرُّهد والذِّكاء والفصاحة ، ومن سادات التابعين وأعيانهم ، وأكمل الناس رأياً ، وأسدّهم عقلاً ، وأسرعهم جواباً ، ومن المتحقِّقين بولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ع ، ومحبّته ، وصحبته ، ومحبة وُلده ، وقد شهد معه الجمل وصفين وغيرهما ، وكان الإمام قد وثقَ به ، ومثَّلَ وجهه نظره في مفاوضة أهل الجمل قبل المعركة ، فضلاً

(٥٠٩) النشر في القراءات العشر ١/١٣٠ .

(٥١٠) مصحف المدينة النبوية ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، ١٤٢٤ هـ .

عن ائتمانه واستعماله قاضيًا وواليًا ، وكان قد قرأ على أمير المؤمنين ع ، ومن الذين كانوا من كتّابه ، وهَمَّ أن يمثّله في التحكيم المعروف لكنّه لم يفلح^(٥١١) .

وكان قد هاجر إلى البصرة على عهد الخليفة عمر بن الخطّاب ، وأظهر فيها مواهب وملكات ، حتّى عدّ رجُلَ أهلِ البصرة في زمانه^(٥١٢) .

وكان شيخَ العلمِ وفقهه النَّاس فيها ، وكان الجاحظ مِمَّن وصفه وذكر فضله بقوله: ﴿كان قد جمع شِدَّةَ العقلِ ، وصوابَ الرّأيِ ، وجودةَ اللسانِ﴾^(٥١٣) ، (وكان حكيماً وخطيباً وأديباً ، ودهياً أريباً ...)^(٥١٤) .

وهو أوّل من أبدع علم النحو الذي رسمه له الإمام عليّ ، فإذا سُئِلَ : من أين لك هذا العلم ؟ يقول : (لَقِنْتُ حدودَه من عليّ بن أبي طالب ع ، وكان أبو الأسود من القُرّاء ، قرأ عليّ أمير المؤمنين عليّ ع)^(٥١٥) .

وأبو الأسود أوّل من ضبطَ كتابةَ المصحفِ الشريفِ بنقِطِ حروفه ، فأسس بهذا الضبط لما يرفع التوهّم عن الحرف وكلمته وجملته ، وكان قد فتح بهذا الضبط آفاق اكتشاف نظام لغة القرآن الكريم ، وكان هذا النقط من خاصّة أهل القرآن ، ومن أوثق مراجعه ، ومن الذين انقطعوا إليه ، وانصرفوا إلى تدبّره ، والحفاظ عليه،

(٥١١) ديوان أبي الأسود الدؤليّ ١٢ ، ١٤ ، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٦٧/٢ .

(٥١٢) طبقات فحول الشعراء ١٢ ، ديوان أبي الأسود الدؤليّ ١٦ .

(٥١٣) البيان والتبيين ١ / ٣٢٤ ، ٣٧٩ .

(٥١٤) البخلاء ٣٦/١ .

(٥١٥) أنباه الرّواة على أنباه النحاة ٥٠/١ .

ورعاية لغته ، والإمام نفسه يذكر أنه أهل القرآن في ردّ من دعاه إلى استرضاء معاوية ، في قوله : (ولو عَلِمْتُ أَنَّهُ يسعني في ديني المُدَاهنة ، أجبتك ، ولكان أهونَ عَلَيَّ في المُوَنة ، ولكنَّ الله لم يَرْضَ لأهلِ القرآن أن يعملَ الناسُ بمعاصي الله في أكنافِ الأرض وهم سكوت ، ولا يأمرُون ولا ينهاون) (٥١٦) .

فضبط حروف النَّصِّ القرآنيِّ الكريم بالنَّقْط ومن ثَمَّ بالحركات من القضايا الإسلاميَّة الكبرى ، التي لا تُقبل من أيِّ كان ، فالإشارة والإرشاد بالوضع من الإمام عليّ إلى أبي الأسود ، وقد صدر التوجيه به إليه ، إذ ليس من السهل القبول بهذا النقط، لو لم يكن من البيت النبويِّ ومن أقرب الناس من رسول الله ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى ، ما يتوافر عليه أبو الأسود من إمكانات تؤهّله لإنجاز هذا العمل الخطير في تاريخ القرآن الكريم (٥١٧) ؛ وفي ذلك المقطع من الزمان القريب الذي دعت إليها الدواعي ، في بيئة البصرة ، بيئة الاختلاط والتفاعل والابتكار ، إذ وجد الإمام أبا الأسود يعاني من آفة الغلط ، ويفكر في التخلّص منها .

وكانت مهمة أبي الأسود في الضبط تستند إلى المصدر الموثوق به ، الذي تكفل بحفظ النَّصِّ من فوضى التعدّد والاحتمال والاختلاف ، فالخطوة التي خطاها أبو الأسود بتوجيه الإمام ، في إبعاد خطر اللحن عن القرآن بوضع ما يمنع منه ، وتشبيث الملامح الأولى لعلم النحو؛ لكنّ التنفيذ كان قد تأخر عن مرحلة التفكير،

(٥١٦) المعيار والموازنة ١٤٧ .

(٥١٧) أبو الأسود الدوليّ في الميزان ١٢٠ .

فالعالم محفوظٌ عند أهله ، والمُتَّقِدُ واثقٌ ممَّا عنده وبالغٌ مبلغ الاطمئنان ، إذ يعرف
ماذا سيفعل وكيف سيُنْفِذُ .

فأبو الأسود أخذ القراءة والضبط والنحو وغيرها من العلوم عن عليّ ع ؛ وقد أخذ
عن أبي الأسود عدد من الدارسين من تلامذته ، وعنهم أخذ تلامذة تلامذته ،
وأبرزهم يحيى بن يعمر العدواني وعبد الله بن إسحاق الحضرمي ، ومن بعد قرنٍ
من الزمان انتقل العلم إلى الجيل الثالث جيل الخليل وسيبويه وغيرهما ، الذي أكمل
هذا البناء الشامخ بظهور (الكتاب) السفر الكبير المنسوب إلى سيبويه .

الفصل العاشر : السيّد البدرى وتعيين (الشاهد منه)

أولاً : مشروع العلامة السيّد البدرى

لا بُدَّ أن نذكر . بادئ ذي بدءٍ . أنّ للسيّد البدرى مشروعاً علمياً كبيراً، واجتهاداتٍ تستحقّ الدراسة ، وآراءً نقديةً تعبّر عن الأفق الواسع الذي يشغل في ميادينه ، ولاسيّما ما يقع في صميم موضوعنا : (القرآن والشاهد منه) ، ذلك من مثل ما عرضه في مؤلّفه : (بحوث جديدة في التفسير، دراسة الآية ١٧ من سورة هود ، والآية ١٠ من سورة الأحقاف) ، ذلك لما تناوله المفسّرون قديماً وحديثاً في شأن هاتين الآيتين ، ومن الاتّجاهين ، فيما يخصّ المضامين المهمّة التي عرضها من التي تتّم عن بعد نظر وطول تأمّل وإحاطة بعلوم القرآن .

فيذكر السيّد البدرى أنّ علي بن ابراهيم القمي هو أوّل من ربط بين الآية ١٠ من سورة الاحقاف مع الآية ١٧ من سورة هود ، وأنقلُ هنا نصّ القمي الذي أشار إليه السيّد : (حدّثني أبي ، عن يحيى بن أبي عمران ، عن يونس، عن أبي بصير والفضيل ، عن أبي جعفر ع ، قال : إنما نزلت "أفمن كان على بينة من ربّه" . يعني رسول الله ؛ ويتلوه شاهد منه يعني أمير المؤمنين ع "إماماً ورحمة" ، ومن قبله كتاب موسى ، "أولئك يؤمنون به" فقدموا وأخروا... "وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم . الأحقاف ١٠" ، قال : الشاهد أمير المؤمنين ع ،

والدليل عليه في سورة هود ، "أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه" ، يعني أمير المؤمنين^(٥١٨) .

ويقول السيّد : إنّ العلامة الطباطبائي جاء من بعده ، ولكنّه لم يستفد من الربط في توجيه تفسير (الشاهد منه) بأمر المؤمنين تخريباً صحيحاً ، وكغيره من المفسرين ذهب إلى أنّ الشاهد من بني إسرائيل هو عبد الله بن سلام ؛ وسنجد في هذا الفصل أنّ السيّد البدريّ يرجّح أنّ يكون الشاهد من بني إسرائيل هو موسى الذي يعود عليه ضمير الغائب في قوله تعالى : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ) .

وكان للسيّد البدريّ مراجعات للربط بين الآيتين ، في محاور ووجهات تدور بمدار ما يأتي :

١ . انتقد السيّد البدريّ تسليم أكثر المفسرين لما شاع من احتمالات تشتت تعيين (الشاهد منه) ، من الذين لم يراجعوا سند الروايات ، ووثاقة الرواة ، مراجعة علميّة موضوعيّة يستحقّها تمييز (الشاهد منه) لمكانته وتميّزه .

٢ . ردّ السيّد البدريّ ردّاً علمياً شهادات المنحرفين عن أمير المؤمنين ، من الذين وضعوا روايات على لسان الإمام عن طريق أولاده وغيرهم ردّاً شديداً مناسباً .

(٥١٨) تفسير القمي ٢ / ٤٦٥ ، ٣ / ٩٦٩ .

٣ . وجد السيّد أنّ تجنّب أكثر المفسرين ولاسيّما السيّد فضل الله الخوض في مضمار (الشاهد منه) ، لمجرّد تجنّب الخلافات العقائديّة بين المذهبين ، على حساب الموضوعيّة والحقّ والحقيقة ؛ وكان قد حاول الوصول إلى التعريف بالمبهم، وكذلك التفكير في فكّ مضمون ارتباك بعض الروايات من مثل ما ذكره السيد فضل الله وغيره مستندًا إلى أدلّة معتبرة من القرآن والسنة النبويّة الشريفة .

٤ . حاور السيّد القدماء في شأن (الشاهد منه) ، فاختر الطوسيّ من كبار علماء الشيعة الذي ينقل الروايات السنيّة ، وابن الجوزيّ الحنبليّ الذي يزيد على ما ذكره الطوسيّ من روايات .

٥ . اختار السيّد عرض وجهة نظر السيّد محمد حسين فضل الله وما يُنسبُ إلى صاحب تفسير الأمثل ، اللذين سايرا الروايات المتداولة ، وربما تراجعوا عن ترجيح ما يستحقّ الترجيح ، من هذه الروايات .

وسنجدُ في هذا الفصل أنّ السيّد كان قد عرض ما يخصّ تثبيت النّصّ القرآنيّ الكريم بإسهام (الشاهد منه) ، الذي تربّى بين يدي النبيّ ص ، وكان يتبعه اتباع الفصيل لأمه ، وهو أخوه ، الذي يُبلّغ عنه ، ومنزلته منزلة هارون من موسى . فالسيّد يراجع سند الروايات ويصحّح ما اعترأها من أوهام مقصودة وربما غير مقصودة ، ويلتقط الإشارات القليلة النادرة ، وربما غير الواضحة في سياق عرضها، والتي لم تأخذ حَقّها من البحث ، ولم يُلتفتْ لأهميّتها الباحثون قبله ، فيتوسّع في تناولها وتوجيهها ، لما يتوافق ومشروعه الرسالي الكبير؛ ليصل إلى الثمار التي

تناسب الجهد الذي بذله في المراجعة وفحص المعروض من الآراء التي جاد بها أهل التفسير، وهي التي سنعرضها في هذا الفصل إن شاء الله .

ثانيًا : (الشاهد منه) واختلاف الروايات

أولًا : عرض السيّد البدريّ لما جاء من أقوال أهمّ المُفسّرين الذين يمثّلون وجهات نظر مُتميِّزة ، من التي تُمثّلُ التوجّهين الإسلاميين الكبيرين ، من مثل :

١ . شيخ الطائفة الطوسيّ (ت ٤٠٨ هـ) الذي ذكر أربع احتمالات للشاهد منه ، هي : (شاهد من الله محمّد ص روى ذلك عن الحسين بن عليّ ع ، والثاني : جبرائيل يتلو القرآن على النبيّ ع عن ابن عباس ومجاهد وإبراهيم والفراء والزجاج ، أو لسان النبيّ ص ، والثالث : شاهد منه لسانه ، والرابع : رُوِيَ عن أبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين ع ، أنّه عليّ بن أبي طالب ، رواه الرّماني ، وذكره الطبري بإسناده عن جابر بن عبد الله عن عليّ ع) (٥١٩) .

٢ . ابن الجوزيّ الحنبليّ (ت ٥٩٧ هـ) من كبار الوعاظ في بغداد ، الذي زاد على الأربعة الذين ذكرهم الشيخ الطوسيّ فصاروا عنده ثمانية : (الأول إنّهُ جبريل قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وآخرون ، والثاني أنّهُ لسان رسول الله ص الذي كان يتلو القرآن ، قاله عليّ بن أبي طالب والحسن وقتادة ، والثالث: إنّهُ عليّ بن أبي طالب ، و(يتلوهُ) بمعنى يتبعه ، رواه جماعة عن عليّ بن أبي طالب ، وبه قال محمد بن عليّ ، وزيد بن عليّ ، والرابع : إنّهُ رسول الله ص هو

(٥١٩) المنتخب من تفسير البيان ١ / ٣٩٦ .

شاهد من الله عزّ وجلّ قاله الحسين بن عليّ ع ، والخامس : إنّه الإنجيل يتلو القرآن بالتصديق ، وإن كان قد أنزل قبله ، لأنّ النبي ص بشرت به التوراة ، قاله الفراء ، والسابع : إنّه القرآن ونظمه وإعجازه ، قاله الحسين بن الفضل ، والثامن : إنّه صورة رسول الله ص ووجهه ومخايله ، لأنّ كلّ عاقلٍ نظر إليه علم أنّه رسول الله ص (٥٢٠) .

ثانيًا : تحوّل السيد البدري إلى مناقشة السيّد محمّد حسين فضل الله العالم المعروف، في الرأي الذي عرضناه في التمهيد ، وملخصه تجنّب السيّد فضل الله الخوض في مثل هذه الموضوعات الحسّاسة بين التوجّهين ، والإحالة على أوسع ما يمكن من الذين يشهدون من دون تعيين ، وليس شخصًا محدّدًا مختلفًا في تعيينه ، إذ إنّ السيّد محمد حسين فضل الله يتساءل : ﴿هل هو القرآن ، أو جبرائيل، أو الإمام علي ، أو غير ذلك من الاحتمالات ؟ لأنّ التفسير [عنده] لا يختلف كثيرًا في المعنى الأساس الذي تستهدفه الآية ، فقد يكفينا من المعرفة بذلك أن نفهم من الآية المقارنة ، بين من كان يعيش وضوح قضية الإيمان لديه ، ما هداه الله إليه بشكل قاطع ، فهو لا يحتاج إلى شيء آخر في زيادة المعرفة ، ويتبعه شاهد منه يؤكد هذه الحقيقة للآخرين ، سواء أكان هذا الشاهد رجلًا يملك المعرفة الكاملة للمسألة ، أم كتابًا يشهد على صحة هذا الإيمان وصدقه أمام الآخرين ، وبين من كان لا يعيش وضوح ذلك ، لأنّه لا يريد الاهتداء ، ولا يخضع له ، وقد نجد في كثير من الاحتمالات المذكورة في هذا المجال ما لا يتناسب مع سياق

(٥٢٠) زاد المسير في علم التفسير ٧٢/٤ .

الآية ؛ فلنجد ما أجمله الله، ولنطلب الوضوح في ما أراده لنا من قواعده ، ولنرجع علم ما أبهم علينا إليه ... انتهى كلامه رحمه الله(٥٢١) .

لكن السيد سامي البدري لا يرتضي قول السيد محمد حسين فضل الله : (ولنرجع علم ما أبهم علينا إليه تعالى) ، ولا سيما في (الشاهد منه الذي يتبعه) ، ذلك لأن السيد فضل الله يتجنب الخلاف فيما يتعلق بأكثر مسألة عقائدية بين المذهبين، ويجد أن السيد رحمه الله قد يكون استهدف الوسط السنّي أساسًا حين كتب تفسيره كما هو معروف عن منهجه الدعوي ، إذ لم يتخل عن الرأي الشيعي في تفسير آية التطهير بل طرحه بكل وضوح ، وعلى كلّ فإن قول السيد فضل الله : (خلل في سند بعض الروايات) ، لا يعذر فيه لأنّ هذا الخلل أصاب رواية عروة بن الزبير الناصبي وأصاب رواية العوفي عن سليمان العلاف بكونها مرسلّة فتبقى بقية الروايات عن علي بلا معارض ، فلا يقبل بتعليقه بتعدّد (الروايات حول هذه المسألة بالشكل الذي لا يمكن الركون إليها لخلل في سند بعضها ، وارتباك في مضمون بعضها الآخر)(٥٢٢) .

والاسم المبهم عند السيد البدري يتبين بالرجوع إلى بيان النبي ص ، الذي دلّنا عليه الباري في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ . الْقِيَامَةَ ١٨ - ١٩﴾ ، وقوله تعالى : ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ

(٥٢١) من وحي القرآن ١٧ .

(٥٢٢) بحوث جديدة في التفسير ١١ .

يَتَفَكَّرُونَ . النحل ٤٤ ﴿﴾ ، والراوي الأمين لكلمات النبي ص هم المعصومون من أهل بيته وعلي ع أولهم (٥٢٣) .

فيستند السيّد البدريّ في الردّ إلى مصادر الرواية المعتبرة عند الشيعة ، فالذي على بينة هو محمد ص ، وإنّ الشاهد الذي يتلوه بمعنى يتبعه هو علي ع ومن بعده الأوصياء من أهل بيته ففي الرواية عن :

فعن السيد علي البهبهاني أنّ رواية (الشاهد منه) متواترة أو كادت تكون (٥٢٤) ، فبالإسناد عن الأصمغ بن نباتة في بصائر الدرجات ؛ والقمي في تفسيره عن أبيه عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي عِمْرَانَ عَنْ يُوسُفَ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ ، وَالْفُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الْبَاقِرِ ع ، وَالشَّيْخِ الطُّوسِيِّ فِي الْأَمَالِيِّ بِإِسْنَادِ أَخِي دَعْبَلٍ عَنِ الرِّضَا عَنِ آبَائِهِ ع . وَالْعِيَّاشِيِّ وَفَرَاتٍ فِي تَفْسِيرِيهِمَا عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَجِيٍّ كِلَاهُمَا عَنْ عَلِيِّ ع ، وَالشَّيْخِ الْمَفِيدِ فِي الْمَجَالِسِ عَنْ عِبَادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَسَدِيِّ عَنْ عَلِيِّ ع ، وَالطَّبْرَسِيِّ فِي الْإِحْتِجَاجِ عَنْ سَلِيمِ بْنِ قَيْسِ الْهَلَالِيِّ عَنْ عَلِيِّ ع ؛ وَالثَّقَفِيِّ فِي الْغَارَاتِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ عَلِيِّ ع ، وَالْعِيَّاشِيِّ عَنْ بُرَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْعِجْلِيِّ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ع وَفِيهِ زِيَادَةٌ مَهْمَةٌ قَالَ : الَّذِي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ رَسُولُ اللَّهِ ص وَالَّذِي تَلَاهُ مِنْ بَعْدِهِ الشَّاهِدُ مِنْهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ع ثُمَّ أَوْصِيَاؤُهُ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ (٥٢٥) .

(٥٢٣) المصدر نفسه ١٣ .

(٥٢٤) كتاب الولاية ٦٧ .

(٥٢٥) بحوث جديدة في التفسير ١٦ .

أما الروايات في مصادر أهل السنة . فيما ينقل السيّد البدي . فعلى مجموعتين :

المجموعة الأولى : التي طرّقها كثيرة ، والتي تبلغ العشرات كالتالي أخرجها السيوطي في الدر المنثور عن أبي حاتم ، وابن مردويه وأبي نعيم في المعرفة ، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ، ومارواه الثعلبي في تفسيره، والنيسابوري في مستدرکه ، وابن أبي الحديد المعتزلي ، وابن المغازلي وغيرهم (٥٢٦) .

المجموعة الثانية : بطريقين ، الأول : الذي يُسند إلى الحسين بن علي ويفسر بأنّ الشاهد النبي نفسه أو لسانه ص ، ويصحّ السيّد هذه النسبة بعد أن يعرض ما يدلّ على أن الناقل لهذه الرواية هو الحسن البصريّ ، وأنّ الشيخ الطوسي نقل هذا الوهم عن المصادر السنيّة من دون سند ، وظنّ أنّه الحسين بن علي بن أبي طالب ، وسرّى هذا الظن منه إلى حفيده ابن إدريس ، وإلى الطبرسي في مجمع البيان ، والمشهدي في تفسيره كنز الدقائق ، وعنهم سرت إلى المتأخرين من مفسري الشيعة ؛ وأصل الرواية في تفسير ابن أبي حاتم الرازي (٥٢٧) ، والتحقق عند السيّد أنّ هذه الرواية عن الحسن ، وليس عن الحسين بن علي ع ، والحسن هذا هو الحسن البصري ، ثم توهم بعض الرواة في إسنادها أو تعمّدوا الإسناد إلى الحسن بن علي لتشتيت النسبة عن أمير المؤمنين ، والحسن نفسه في خطبة طويلة بمحضر معاوية وأمام الناس يستشهد لأبيه بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ، فَيُنْصُ قَائِلًا : إِنَّ (رسول الله ص هو الذي على بيته من

(٥٢٦) تفسير الثعلبي ١٦٢ / ٥ .

(٥٢٧) تفسير القرآن العظيم ٩١٤ / ٦ ، وبحوث جديدة في التفسير ٢٦ .

ربه ، وأبي الذي يتلوه ، وهو شاهد منه^(٥٢٨) ؛ ويبدو أنّ الحسن البصري . على رأي السيّد . فسر الآية من عنده بصفته المفسر الذي لا يستند إلى رواية عن النبي ص في هذا التفسير ، والحسن البصري نفسه منحرف عن أهل البيت في قليل أو كثير^(٥٢٩) ؛ وعن السيد علي الميلاني : الحسن البصري المُدلس الكثير الإرسال المنحرف عن أمير المؤمنين ع^(٥٣٠) ؛ وعلى فرض أنها للحسين بن علي ع فهي مرسلة ، يرويه عوف الأعرابي عن سليمان العلاف روى عن عوف الأعرابي^(٥٣١) ، وسليمان العلاف يروى المراسيل؛ ومن المقطوع به أنّ الحسين ع لا يُرتقب منه أن يفسر الآية على خلاف ما اشتهر عن أبيه علي ع^(٥٣٢) .

والطريق الآخر: مسند إلى خليل بن دعلج عن عروة بن الزبير عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي ، فيما نقلوه خطأً عنه ، فيدعون خطابه لأمير المؤمنين : (إِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ فِي قَوْلِ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : (وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ) أَنْكَ أَنْتَ التَّالِي ، فَقَالَ : وَدِدْتُ أَنِّي أَنَا هُوَ ، وَلَكِنَّهُ لِسَانَ مُحَمَّدٍ ص^(٥٣٣) ، وليس من شك أنّ الرواية موضوعة ، والمتهم في وضع الحديث على ابن الحنفية عن أبيه هو عروة بن الزبير ، وعروة متهم في حقّ عليّ ، قال أبو جعفر الإسكافي : (إنّ معاوية وضع

(٥٢٨) حلية الأبرار ٢٥٣/١ ، أمالي الطوسي ٥٦١ ، الاحتجاج ٦٦/٢ .

(٥٢٩) بحوث جديدة في التفسير ١٩ .

(٥٣٠) الإمامة في الكتب الكلامية ١٩٨ .

(٥٣١) ثقة ابن حبان ٣٩١/٦ .

(٥٣٢) بحوث جديدة في التفسير ١٩ .

(٥٣٣) الطبراني الأوسط ٥٣/٧ ، ومجمع الزوائد ٣٧/٧ .

قومًا من الصحابة وقومًا من التابعين على رواية أخبار قبيحة في عليّ تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل على ذلك جُعلًا يُرغَبُ في مثله، فاختلفوا ما أرضاه، منهم: أبو هريرة، وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين : عروة بن الزبير^(٥٣٤) ، وروى إبراهيم الثقفي في الغارات عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال : (كان عروة إذا ذكروا عليًّا ، نال منه)^(٥٣٥) .

فكلا الروايتين . على ما عرض السيّد من أدلّة . لا تنهضان بمعارضة الروايات المستفيضة عن عليّ بطرق كثيرة تبلغ العشرات ؛ ويترتب على ذلك أنّ المفسر السنّي فضلًا عن الشيعي ليس لهما الإعراض عن الرواية المشهورة عن علي في تفسير (مبهم الآية) ؛ أما المفسر الشيعي فليس له الإعراض عنها لأن كتبه الحديثية المعتبرة لا تروي غير تفسير عليّ ع لها ، وأنه هو المراد فيها ، وأمّا المفسر السني فليس له الإعراض عن ترجيح العشرات من الروايات عن علي رواها صحابة كابن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري وأنس بن مالك ، وتابعين أخيار من أصحاب عليّ كالأصبغ بن نباتة وسليم بن قيس وزاذان ، وعبد الله بن نُجّي ، وعباد بن عبد الله الأسدي وعبد الله بن الحارث وغيرهم ذكرهم الماهيار الثقة الثبت في كتابه ، على روايتين معارضتين مخدوشتين إحداهما بالإرسال على فرض نسبتها إلى الحسين بن علي وثانيتها بكون راويها متهم في حقّ علي ع ا . هـ^(٥٣٦) .

(٥٣٤) شرح نهج البلاغة ٤ / ٦٣ .

(٥٣٥) ٥٧٧/٢ .

(٥٣٦) بحوث جديدة في التفسير ٢٢ .

ويَتَّضِحُ بعد هذا العرض ابتعاد السيّد فضل الله عن المنهج الموضوعي ، لمساواته بين عَنَتِ الروايات وسمينها ، وخطئها وصحيحها ، لأنّ الإبهام اصطنع لمواجهة الصحيح وتضييعه ، أمّا السيّد البدريّ فقد اعتمد النظر إلى كلّ الروايات المأثورة لدى الشيعة والسنة ، ثمّ فَرَزَ المجموعة التي تستند إلى الصحيح المرويّ من غيرها ، وميَّز الخطأ من الصواب .

وواجه السيّد البدريّ بهذا ابتعاد صاحب (تفسير المنار) عن الحقّ والحقيقة ، ومن نهج نهجه في تفسير الآية نفسها ، فالموضوعية في التفسير تقتضي مراجعة رواية عروة بن الزبير المنحرف عن علي ع ، التي وضعها الرواة على لسان محمد بن الحنفية ضد أبيه علي ع ، ورجّحها على عشرات الروايات الأخرى ، واتهم التفسير الشيعي على أنه تفسير بالهوى ، وأنّ الروايات من وضع الشيعة ، على الرغم من وجودها في كتب معتبرة عند أهل السنة ، يرويها صحابة أجلاء وتابعون ثقة ! وقد عرض صاحب تفسير المنار (وفي "الشاهد" روايات أخرى ضعيفة الرواية والدراية "منها" أنه عليّ رض برواية الشيعة ويفسّرونه بالإمامة ، وروى أنه كرم الله وجهه سُئِلَ عنه فأنكره وفسّره بأنّه لسانه صلّى الله عليه وسلّم ، وقابلهم خصومهم بمثلها فقالوا : إنّه أبو بكر ، وهما من التفسير بالهوى ...) (٥٣٧) .

ثالثاً : (المُبهم) بين البيّنة والشاهد والمنزلة

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ هو محمد ص ، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ : هو علي ع والضمير في (منه) يعود على النبي ص ، ويتلوه بمعنى يتبعه ، ﴿وَمَنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ : كتاب موسى هو التوراة ، والتوراة خمسة أسفار (٥٣٨)؛ يذكر السيّد البدري أنّ الاستفهام المبدوء بهمزة في أول هذه الآية للتقرير، وهو شامل لحقائق ثلاث ، هي :

الحقيقة الأولى : إنّ محمداً رسول الله له بيّنة ، هي كتاب الله ، الذي يتحدى به الإنس والجن وتشهد له بصدقه قريش لمكان التحدي ، ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا فَاَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ . الْقِصَص ١٤﴾ ، وهذه الحقيقة إشارة إلى قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ .

الحقيقة الثانية : إنّ محمداً ص له شاهدٌ من أهل بيته هو أخوه ، يتلوه أي يتبعه ويشهد بصدقه في دعوى الرسالة وينصره ، وإنّ منزلة هذا الشاهد كمنزلة هارون من موسى ، ويشير إليها قوله تعالى ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ ، وهذه الحقيقة تتركب من ثلاث قضايا :

القضية الأولى : إنّ محمداً ص له أخ ، وهي قضية تاريخية تواترت في نقلها كتب الحديث والتاريخ ، على مستويين :

(٥٣٨) بحوث جديدة في التفسير ٣٦ .

الأول أن محمدًا ص تربي في بيت أبي طالب شقيق عبد الله والد النبي ، ومن ثمّ فإنّ أبا طالب كالأب للنبي ص ، وفي القرآن أطلق الأب على العم ، ومن ثمّ فإنّ ولد العم كالأخوة ، الثاني إنّ النبي حين آخى بين أصحابه أفرد عليًا أخًا له (٥٣٩) . وبذلك فإنّ عليًا أخو النبي على المستويين ، مستوى القرابة ومستوى التمييز من الآخرين بالاحتضان والتربية .

القضية الثانية : إنّ منزلة علي ع من محمد ص هي منزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعده ، وقد تواتر قول النبي ص بذلك (يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي) (٥٤٠) .

القضية الثالثة : إنّ محمدًا في القرآن له شاهد من أهل بيته يتبعه يشهد بصدقه ، وهذه القضية مما يستظهر من قوله : (ويتلوه شاهد منه) ، وتقصيل القول فيه من بيان عدة أمور :

الأمر الأول : إن الفعل (يتلوه) من (تلا) بمعنى تبع ، يقال تلا الشيء : تبعه ، ويقال ناقة مُتَلٍ : أي لها فصيل يتبعها ويمشي خلفها ويسير معها حيثما سارت . ويُقال : لهذا الفصيل (تلوّ) (٥٤١) ، فيكون المعنى : ويتبعه شاهد من أهل بيته

(٥٣٩) بحوث جديد في التفسير ٢٥ .

(٥٤٠) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ١٣٨ .

(٥٤١) المصباح المنير ٧٦ .

يلازمه كما يلزم الفصيل أمه ، وفي نهج البلاغة : (ولقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاعتداء به) (٥٤٢) .

الأمر الثاني : الضمير (منه) يرجع إلى النبي أي من أهل بيته ، كما في قوله ص لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل أي من أهل بيتي ، وقوله (علي مني) أي من أهل بيتي (وأنا منه) أي من أهل بيته .

الأمر الثالث : أن وظيفة الشاهد من أهل بيت محمد ص هي أداء الشهادة من موقع التابع لمحمد ص المصدق به والناصر له .

الأمر الرابع : وضَّح القرآن أن قيمة شهادة هذا الشاهد من أهل بيت النبي هي كشهادة القرآن لمحمد ص كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْنَا مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ . الرعد ٤٣ ﴾ ، والكتاب هو القرآن لقوله تعالى في أول هذه السورة : ﴿ الْمُرْتَدُّونَ لَئِن لَّمْ يَؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ لَنُرْزِقَنَّكَ مِنَ الْغَنِيِّ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . النحل ٤٤ ﴾ ، وشهادة الله لمحمد ص من كتابه القرآن ، أما شهادة الذي عنده علم الكتاب فتكون من علمه بالقرآن يبينه للناس في وقتٍ كتبه الآخرون وحرفوه ، وهذا العلم هو بيان القرآن وتفسيره كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَرَبِّكَ الْقَدِيمِ . القصص ١٨ . ١٩ ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . النحل ٤٤ ﴾ ، وقد ابتليت الرسالات قبل محمد بالكتمان والتحريف : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

البقرة ١٤٦ ﴿﴾ ، وَإِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . البقرة ١٥٩-١٦٠ ﴿﴾ ، وابتليت رسالة محمد ص بالكتمان بعده ، ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا . النساء ٤١-٤٢ ﴿﴾ ؛ وقد وكل الله تعالى بالرسالة بعد محمد ص ببيانه حين يكتمها حملتها من عامة الناس ، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَيُهْدَاهُمْ لِقَاءَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . الأنعام ٨٩-٩٠ ﴿﴾ ، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ لِلَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . فاطر ٣٢ ﴿﴾ .

الأمر الخامس : إن الذي عنده علم بيان الكتاب بعد النبي هو علي كما تضافرت الروايات من الفريقين ، فمن عسى أن يكون غيره وهذا ما روي عن الشعبي والقرطبي وأبي حيان والآلوسي في تفاسيرهم ، مثلما عرضنا في المباحث السابقة (٥٤٣) .

الأمر السادس : تواتر عن النبي قوله : (يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) . وهذه القضية تعلمها قريش قبل إسلامها وبعده ، وقد أخبر القرآن عن موسى أن الله أيده بهارون يصدقه وينصره وقد وضح القرآن موقع هارون من موسى بقوله تعالى : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ

(٥٤٣) بحوث جديدة في التفسير ٢٩ .

مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ . القصص ٣٤-٣٥ ﴿٣٥﴾ ،
والردء : العون والناصر ، يقال : (فلان رِدْءٌ لفلان أي يُنصِّرُهُ وَيَشُدُّ ظَهْرَهُ) (٥٤٤).

وخلاصة الكلام في الحقيقة الثانية : إنَّ للنبي محمد ص أخ ، هو عليٌّ ، منزلته من النبي كمنزلة هارون من موسى ، مصدقًا به ، ووزيرًا له في حياته ، لم يسجد لصنم ، هو والنبي دعوة إبراهيم وإسماعيل عند رفع القواعد من البيت ، عالم بالقرآن بتعليم النبي إياه حين أوحى إليه في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ... رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ . البقرة ١٢٧ . ١٢٩ ﴾ ، وبهذا التعليم الذي جعله الله لهذه الأمة المسلمة شهداء على الناس بعد النبي ص ، يبينون حديث محمد وسنته ، في مواجهة كتمان قريش المسلمة وتحريفهم ، ومن إتباعها لرسالة محمد ص ، في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ . الحج ٧٧ . ٧٨ ﴾ .

وأخيرًا يقتض السَّيِّدُ البَدْرِيُّ شهادة من موسى لمحمد ، أو البشارة بالنبي وأخيه في كتاب موسى وعلى لسانه بنبي مثله له وزير من أهل بيته يصدقه وينصره ، إذ

(٥٤٤) لسان العرب ٣/ ١٦١٩ ، بحوث جديدة في التفسير ٣٠ .

جاء في سفر التثنية من كتاب موسى التوراة الفصل ١٨ الفقرة ١٥ ، أنّ موسى ع قال لبني إسرائيل : (سوف يبعث الله لكم نبيًا مثلي من وسط أخوتكم) ، أو بعبارة: (يقيم لك الربّ إلهك نبيًا من وسطك من أخوتك مثلي، له تسمعون ، حسب كلّ ما طلبت من الربّ إلهك)^(٥٤٥) ، أو بعبارة : (يقيم لك الربّ إلهك نبيًا من بينكم من أخوتك مثلي له تسمعون)^(٥٤٦) .

رابعًا : الربط بين أجزاء آية سورة هود

حاول السيّد البدريّ توجيه دلالة أجزاء هذه الآية ، لما يُزيل الإبهام الذي ادّعاه السيّد فضل الله ، فالآية بُدئت بشرط سبق باستفهام إنكاري ، ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۗ هُوَ ۙ﴾^(١٧) ، والتقدير: ليس من كان كذا وكذا كغيره ممّن ليس كذلك؟! فَمَنْ : مبتدأ ، والخبر محذوف؛ أو أنّ التقدير: أفمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها كمن كان على بيتة؟ أي لا يقاربونهم في المنزلة ، وبينهما فرق ، وتفاوت بعيد^(٥٤٧) ، أو الهمزة للاستفهام التقريري ، أي إنّ كَفَرَ به هؤلاء أفئومن به من كان على بيتة من ربّه؟! (ومن

(٥٤٥) الكتاب المقدس ، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، ٣٠٨ .

(٥٤٦) الكتاب المقدس ، سفر التثنية ، بيروت ١٩٨٦ ، ٣٣٠ .

(٥٤٧) تفسير الكشاف ٤٧٩ ، والدرّ المصون ٨٦/٤ .

كان على بصيرة إلهية من أمرٍ ولحق به من هو من نفسه فشهد على صحة أمره واستقامته^(٥٤٨) ، (والمراد تشريف هذا الشاهد بأنه بعضٌ من محمد ص)^(٥٤٩) .

والهمزة في هذا الاستعمال (للاستفهام التقريري ... وعلى نحو نظم قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْفِذُ مَنْ فِي النَّارِ . الزمر ١٩﴾ ، أي أنت تنفذ من النار الذي حق عليه كلمة العذاب؟!)^(٥٥٠) ، والاستفهام التقريري بمعنى التحقق والتثبت ، وحمل المخاطب على الإقرار بما يعرف والاعتراف بأمرٍ قد استقرَّ عنده ثبوته أو نفيه ، ولا يحتاج إلى جواب ؛ إذ يطلب من المخاطب أن يُقرَّ بما يُسأل عنه نفيًا أو إثباتًا ، و"يجب أن يليها الشيء الذي تقرر به" ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمَ . الأنبياء ٦٢﴾ ، والآية الكريمة محتملة لوجهين اثنين : الأول : الاستفهام الحقيقي ؛ إذا كان قوم سيدنا إبراهيم يجهلون الفاعل حقيقة ، والثاني : التقرير والإنكار ؛ حيث يكون مرادهم حمل النبي إبراهيم عليه السلام على الإقرار بأنه الفاعل ، "والفرق بينهما أن الاستفهام ممن لا يعلم لمن يعلم ، أو يُنَوِّهَم منه العلم ليعلم ، والتقرير ممن يعلم لمن يعلم لِيُثَبِّتَهُ على فعله فيكون جزاءً ، أو يتحقق أنه فعله عن قصدٍ ، فليس المراد إذا بالاستفهام التقريري طلب العلم ؛ لأنه صادر ممن يعلم إلى آخر يعلم ، لكن المقصود به هو حمل الموجه إليه الكلام على الإقرار والاعتراف بما يعرف ، ومن أمثله أيضًا قوله تعالى : ﴿أَفَأِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ . آل عمران ١٤٤﴾ ، أفان مات أو

(٥٤٨) الميزان ١٤٣/١٠ .

(٥٤٩) التفسير الكبير ١٧/٢٠٠ ، وروح المعاني ١٢/٢٥ .

(٥٥٠) التحرير والتنوير ١١/٢٢٣ .

قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ، والهمزة للإنكار ، وقد أتبعَت بالفاء العاطفة (الفاء) وأداة الشرط (إن) (٥٥١) ؛ فقد خرجت الهمزة عن الدلالة على معنى الاستفهام الحقيقي ، لتفيد معاني أُخر؛ منها معنى التقرير، لحمل المُخاطَب على الإقرار والاعتراف بأمرٍ قد استقرَّ عنده ثبوتاً أو نفيًا ، وقد خُصِّصَت الهمزة بالتقرير وإيلائها المقرَّر به ، فتكون لإنكار ما يليها ، وجواز تقديم الاسم والفصل به بين (همزة) استفهام والفعل (٥٥٢) .

وآية سورة (هود) جملة استفهامية تقريرية مثلما عرضنا ، والجملة الأولى في قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ...﴾ ، استؤنفت بالفاء وأتبعَت بثلاث جمل ، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ ، ﴿وَمَنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ ، والجملتان الأخريان معطوفتان عليها ، وهكذا تؤسس الآية ١٧ من سورة هود ثلاث دلائل ، تقضي إلى مناهج لإثبات صدق محمد ص في دعواه ، وتوكيد أنّ رسالته من الله ، ومطالبة قريش الآباء والأبناء ومن يتولاهم إلى آخر الدنيا بترتيب الأثر عليها والإيمان بمحمد ص الرسول من الله (٥٥٣) .

ومقتضى القاعدة النحوية أنّ المبتدأ بحاجة إلى خبر، وقد حذف في الجملة الاستفهامية والمعطوف عليها لوضوحه ، وتقديره : أفمن كان على بينه من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إمامًا ورحمة يشهدون بصدقه على الله في دعواه ، كمن ليس له إلا الكذب والافتراء على الله؟! ثم استأنف النصّ القرآني

(٥٥١) أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٣٥٨ .

(٥٥٢) المصدر نفسه ٣٥١ - ٣٥٢ .

(٥٥٣) بحوث جديدة في التفسير ٣٢ .

جملة جديدة ، هي قوله : ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ : أي أولئك علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى وعلى رأسهم مخيريق الذي استشهد مدافعاً عنه في معركة أحد^(٥٥٤)، وكذلك علماء ذرية إبراهيم من قريش وعلى رأسهم أبو طالب الذي نصر محمداً في دعوته في مكة نصرته لم ينصره أحد بمثلها إلا ولده علي ع ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب الذي استشهد مدافعاً عنه ص في معركة بدر^(٥٥٥) .

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ : أي من يكفر به من كفار مكة وكفار أهل الكتاب في المدينة وغيرهم إلى آخر الدنيا ، ومن مَنَّ لهما من النصارى وغيرهم : ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ ذلك لمن أعرض أو أنكر القرآن كله أو بعضه^(٥٥٦) ، ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ : الخطاب للنبي ص وأريد به عموم من بلغته دعوة محمد^(٥٥٧) . ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ : أي لا يؤمنون بالحق مع وضوح أدلته ولا أوضح من حقانية محمد ص في دعواه الرسالة عن الله تعالى^(٥٥٨) .

ويربط السيد البدرى هذا الذي وضحه ، في السعي من أجل إزالة الإبهام الذي ادّعاه صاحب تفسير وحى القرآن و(بُعدّه عن فهم المراد الجدي للآية إذ يقول السيد فضل الله : "إنّ التفسير لا يختلف كثيراً سواء فهمنا المبهم في الآية أو لم نعرفه . وإنه قد يكفي من المعرفة بذلك أن نفهم من الآية المقارنة ، بين من كان يعيش

(٥٥٤) التحرير والتنوير ٣/ ١٩٢ .

(٥٥٥) بحوث جديدة في التفسير ٣٣ .

(٥٥٦) التفسير الكبير ٥٩/١٩ ، والتحرير والتنوير ١١/ ٢٢٦ .

(٥٥٧) بحوث جديدة في التفسير ٣٤ .

(٥٥٨) المصدر نفسه ٣٣ .

وضوح قضية الإيمان لديه ، ممّن هداه الله إليه هداية تامّة ، فهو لا يحتاج إلى شيء آخر في زيادة المعرفة ، ويتبعه شاهد منه يؤكد هذه الحقيقة للآخرين ، سواء أكان هذا الشاهد رجلا يملك المعرفة الكاملة للمسألة، أم كتابا يشهد على صحة هذا الإيمان وصدقه أمام الآخرين، وبين من كان لا يعيش وضوح ذلك ، لأنه لا يريد الاهتداء، ولا يخضع له) (٥٥٩) .

فالآية تؤسس ثلاثة أركان في الاستدلال لصدق النبي في دعواه ، هي : القرآن البيّنة ، والشاهد والمرجع بعد رسول الله الذي يصون هذه البيّنة ، وكتاب موسى . وهذه الأركان الثلاثة . على رأيّ السيّد البدريّ . تعضد بعضها بعضًا : فالمنهج القرآني في الوقت الذي يثبت فيه صدق محمد ص بتحدّيهِ الإنس والجن يشير إلى منهج آخر في الاستدلال على صدق النبوة يقوم على شهادة عليّ وأهل بيته حين نهضوا بعد النبي ص في وجه قريش المسلمة والتحريف ؛ وإلى منهج ثالث هو كتاب موسى وأسفار الأنبياء بعده في الوقت الذي تثبت فيه صدق محمد ص بتوصيفه بصفات لا تنطبق إلا عليه وبتعيين زمان بعثته كما في سفر دانيال وبتوقيت انتصاره على قريش بعد الهجرة بسبع سنوات ، يشير إلى وزيره أخيه علي وإنّ موقعه من النبي هو موقع هارون من موسى ويشير إلى أنّ الأئمة بعد النبي هم اثنا عشر، وإنّ منهم علي وإنّ منهم المقتول بلا ذنب الذي يكون من نسله من تطول أيامه وتكون مسرّة الرب في آخر الزمان (٥٦٠) .

(٥٥٩) تفسير من وحي القرآن تفسير سورة هود آية ١٤ ، ١٧ ، وبحوث جديدة في التفسير ٣٥ .

(٥٦٠) بحوث جديدة في التفسير ٣٦ .

خامسًا : مراجعة تفسير الأمثل

يلحظ السيّد البدريّ على تفسير الأمثل . فيما نحن فيه . ست ملاحظات :

الأولى : غفلته عن تسرية حكم الاستفهام التقريري إلى الجملتين المعطوفتين على الجملة الأولى ، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ ، ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى﴾ ، وهذه غفلة جميع المفسرين وليست خاصة به (٥٦١) .

الثانية : قوله في (الشاهد) إنه كلُّ مؤمنٍ حق أمثال علي ، وهذه مخالفة لرواية علي ع والإمام الباقر على أنّ الشاهد خاص بعلي والأوصياء من ذريته ، ثم إنّ الشاهد مصطلح قرآني يقتصر على النبي وأوصيائه دون غيرهم (٥٦٢) .

الثالثة : حصره تبشير كتاب موسى بمحمد في حين هو يبشر بمحمد وبالشاهد من أهل بيته (٥٦٣) .

الرابعة : تقديره للكلام المحذوف بسبب الاستفهام التقريري في الجملة الاستفهامية بقوله : (ومع وجود هذه الدلائل هل يمكن أن يقاس مع غيره من المدّعين؟) ، بل المناسب ما قدرناه وهو (أفمن كان على بينه من ربه ، ويتلوه شاهد منه ومن قبل كتاب موسى إمامًا ورحمةً يشهدون بصدقه على الله في دعواه) ، أي أفمن كان له شهود ثلاثة يشهدون الأول الله تعالى في كتابه الثاني علي في سيرته وحديثه ،

(٥٦١) بحوث جديدة في التفسير ٤٠ .

(٥٦٢) المصدر نفسه ٤٠ - ٤١ .

(٥٦٣) المصدر نفسه ٤١ .

الثالث موسى في كتابه ، أي يكون هذا كمن ليس له إلا الكذب والافتراء على الله؟ (٥٦٤) .

الخامسة : إرجاعه الضمير الغائب في (شاهد منه) إلى الله ، وليست خاصة به فهناك من المفسرين الشيعة والسنة كانوا قد أثبتوا ذلك أيضًا ، وهو خلاف السياق مع عدم القرينة الصارفة ، وخلاف الروايات التي أوردها (في تفسيره الأمثل) عن أهل البيت ع ، التي ترجع الضمير إلى النبي ؛ فقله ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ أي شاهد من أهل بيت النبي (٥٦٥) .

السادسة : جعل الإمام عليٍّ والأوصياء من بعده مصاديق للشاهد ، قال : (وعلى الرغم من أنّ هذه الرواية تذكر المعصومين فحسب ، و لكنّها تدل على أن الروايات التي تفسر الشاهد بالإمام علي لا تعني شخصه فحسب ، بل كونه مصداقًا وشاخصًا للمؤمنين!) ، أقول وهذا يتعارض مع بشارة كتاب موسى الذي يبشر بمحمد ص ووزيره علي ولذلك قصرها صاحب التفسير الأمثل على البشارة بالنبي ص ، فالشاهد شخص علي ع لا غير يضاف إليه الأوصياء من بعده لأنهم يتبعون النبي كأتباع علي ع له ويحيون سنته كما أحيائها (٥٦٦) .

ومع وجود هذه الدلائل الحيّة ، هل يمكن أن يقاس مع غيره من المُدّعين، أم أينبغي التردد في صدق دعوته؟! ثم يشير بعد هذا الكلام إلى طلاب الحقّ والباحثين

(٥٦٤) بحوث جديدة في التفسير ٤٠ - ٤١ .

(٥٦٥) المصدر نفسه ٤١ - ٤٢ .

(٥٦٦) المصدر نفسه ٤٠ - ٤١ .

عن الحقيقة، يدعوهم إلى الإيمان دعوة ضمنية فيقول : **أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَي النَّبِيِّ** الذي لديه هذه الدلائل الواضحة ، وبالرغم من أن مثل هؤلاء الذين أشير إليهم بكلمة (أولئك) في الآية لم يذكروا في الآية نفسها، ولكن مع ملاحظة الآيات السابقة يمكن استحضارهم في جو هذه الآية و الإشارة إليهم^(٥٦٧) ، ولكن كثيرًا من كبار المفسرين فسروا (الشاهد) بالإمام علي عليه السلام، وهو أول من آمن بالنبي والقرآن الكريم، وكان معه في جميع المراحل ولم يقصر لحظة في التضحية دونه وحمايته إلى آخر نفس من أنفاسه^(٥٦٨) .

وينقل السيّد البدريّ عن الأمثل حديث عن الإمام علي ع أنه قال : (ما من رجل من قريش إلا وقد أنزل فيه آية أو آيتان من كتاب الله ، فقال له رجل من القوم : وماذا أنزل فيك يا أمير المؤمنين؟ فقال : أما نقرأ الآية التي في هود ، (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يُتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ كُنْتُ أَنَا الشَّاهِدُ)^(٥٦٩) .

و في آخر سورة الرعد عبارة تؤيد هذا المعنى ، حيث يقول سبحانه : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْنَا مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) ، هناك روايات كثيرة عن طرق الشيعة وأهل السنة تبين أن المراد بقوله : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ، هو الإمام علي عليه السلام مثلما عرضنا في بحث سابق ، ومما يجدر ذكره . كما أشرنا سابقًا .

(٥٦٧) بحوث جديدة في التفسير ٣٨ .

(٥٦٨) المصدر نفسه .

(٥٦٩) المصدر نفسه ٣٩ .

سادسًا : مراجعة مفسري آية سورة الأحقاف

ربط السيّد البدريّ بين دلالة آية سورة هود التي عرضناها سابقًا والآية ١٠ من سورة الأحقاف مثلنا عرضنا ، لكنّه قبل أن يصل إلى هذه النتيجة يعرض ما جاء بالتفسير بدءًا بتفسير الشيخ الطوسي من تفاسير الشيعة ، الذي نقل عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والحسن وعون بن مالك الأشجعيّ صحابيّ وابن زيد ، أن : الآية ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ، ﴿نزلت في عبد الله بن سلام، وهو الشاهد من بني إسرائيل ؛ فروي أنّ عبد الله بن سلام جاء إلى النبي وقال : يا رسول الله ، سل اليهود عني ، فهم يقولون : هو أعلمنا ، فإذا قالوا ذلك، قلت لهم إنّ التوراة دالة على نبوتك وإنّ صفاتك فيها واضحة ، فلما سألهم عن ذلك ، قالوا ذلك ، فحينئذ أظهر ابن سلام إيمانه وأوقفهم على ذلك ، فقالوا : هو شرنا وابن شرنا . وقال الفراء : هو رجل من اليهود من دون تعيين ؛ وقال مسروق : الشاهد من بني إسرائيل هو موسى شهد على التوراة كما شهد النبي على القرآن ، قال : لأن السورة مكية ، وابن سلام أسلم بالمدينة^(٥٧٠) ، قال تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَتْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الأحقاف ١٠﴾ ؛ (شهد رجل من اليهود على مثل ما شهد عليه عبد الله بن سلام من التصديق بالنبي ص وأنّه موصوف بالتوراة فأمن ذلك الرجل واستكبرتم)^(٥٧١) .

(٥٧٠) التبيان ٢٦٩/٩ ، ومعاني القرآن ، للفراء ٥١/٣ .

(٥٧١) معاني القرآن للفراء ٥١/٣ .

يبدو أن الفراء يميّز بين شخصين من اليهود بين رجلٍ لم يُسمِّه شهدَ للإسلام وآمن به ، ومن بعد هذا الرجل شهد عبد الله بن سلام .

يقول السيّد البدري : (من الواضح أنّ الشيخ الطوسي في تفسيره التبيان قد نقل روايات العامة ، وحذا حذوه الشيخ الطبرسي في مجمع البيان وجامع الجوامع ، والمشهدي في تفسيره كنز الدقائق والصافي^(٥٧٢) ، والعلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان^(٥٧٣) ؛ والسيد محمد حسين فضل الله في تفسيره^(٥٧٤) ، والسيد محمد تقي المدرسي^(٥٧٥) ، والسيد عبد الله شبر في تفسيره ، والشيخ محمد جواد مغنية ، والشيخ ناصر مكارم في تفسيره الأمثل وغيرهم ، ومن المفيد نقل بيان الأخير لتفصيله واستدلّاله ومناقشته : قال في تفسير الأمثل : إنّ هذه الآية نزلت في المدينة بالرغم من أنّ السورة مكّية ، وهذا ليس منحصراً بالآية مورد البحث ، بل يلحظ "أحيانا" في سور القرآن الأخرى وجود آيات مكّية في طيات السور المدنية والعكس بالعكس، وهذا يبيّن أنّ النبي كان يأمر بوضع الآية مع ما يناسبها من الأنسب ... انتهى كلام صاحب تفسير الأمثل^(٥٧٦) .

. ١٣/٥ (٥٧٢)

. ١٦١/ ١٨ (٥٧٣)

. (٥٧٤) من وحي القرآن ٢١ / ١٩ .

. (٥٧٥) من هدي القرآن ٩ / ١٢٢ .

. (٥٧٦) الأمثل ١٦ / ٢٥٥ .

أما التفاسير السنيّة فيما ينقل السيّد فقد أطبقت على الرأي المشهور، ورووا في ذلك عن ابن عباس والحسن، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة والضحاك ويوسف بن عبد الله بن سلام وهلال بن يساف والسدي والثوري ومالك بن أنس، وابن زيد، ورواه البخاري ومسلم والنسائي؛ وزاد الماوردي فيما ينقل السيّد عنه : أمين بن يامين ، قال لما أسلم عبد الله بن سلام : أنا شاهد مثل شهادته و مؤمن ، أو أنّ موسى مثل محمد صَلَّى الله عليه وسلّم يشهد بنبوته ، والتوراة مثل القرآن يشهد بصحته قاله مسروق، ولم يكن في عبد الله بن سلام ، لأنه أسلم بالمدينة والآية مكية ؛ أو هو من آمن من بني إسرائيل بموسى والتوراة ، قاله الشعبي ؛ أو أنه موسى الذي هو مثل محمد صَلَّى الله عليهما شهد على التوراة التي هي مثل القرآن ، حكاها ابن عيسى ... انتهى كلام الماوردي (٥٧٧) .

ولم يُسمِّ الزمخشريّ شخصًا ، بل عرض مضمون الآية إذ ذكر (عطف قوله : "وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَّنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ" على جملة قوله : "كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ" ... قُلْ : أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بني إسرائيل على نزول مثله ، وإيمانه به ، مع استكباركم عنه ، وعن الإيمان به ، أَلَسْتُمْ أَضَلَّ النَّاسِ وَأَظْلَمِهِمْ ، وقد جعل الإيمان في قوله فأمن مسببًا عن الشهادة على مثله ، لأنه لما علم أنّ مثله أنزل على

(٥٧٧) النكت والعيون تفسير للماوردي ٥ / ٢٧٤ .

موسى صلوات الله عليه ، وإنه من جنس الوحي ، وليس من كلام البشر ، وأنصف من نفسه فشهد (...)(٥٧٨) .

وينقل السيد البدرى عن الرازي (أنه ليس المراد منه شخصاً معيناً ، بل المراد منه أن ذكر محمد صلى الله عليه و سلم الموجود في التوراة ، والبشارة بمقدمه حاصله فيها ، فتقدير الكلام لو أن رجلاً منصفاً عارفاً بالتوراة أقر بذلك واعترف به ، ثم إنه آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنكرتم أستم كنتم ظالمين لأنفسكم ضالين عن الحق؟ فهذا الكلام مقرر سواء كان المراد بذلك الشاهد شخصاً معيناً أو لم يكن كذلك ، لأن المقصود الأصلي من هذا الكلام أنه ثبت بالمعجزات القاهرة أن هذا الكتاب من عند الله وثبت أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم و مع هذين الأمرين كيف يليق بالعقل إنكار نبوته) انتهى كلام الرازي(٥٧٩) ، وقد خطا الرازي . على رأي السيد . خطوة جيدة في فهمه للآية ، لكنه لم يصل إلى المطلوب وصولاً تاماً .

سابعاً : التناظر بين موسى ومحمد وهارون وعليّ

التناظر: هو التطابق أو التماثل أو التقابل أو التشابه بين الأجزاء الأكثر انتظاماً كاليدنين والعينين والرجلين، وتناظرا : تقابلا، والنظائر: الأمثال لاشتباه بعضهم

(٥٧٨) تفسير الكشاف ١٠١١ .

(٥٧٩) بحوث جديدة في التفسير ٥٣ .

ببعض في الأفعال والأقوال^(٥٨٠) ، ومن أمثلة التناظر لما يناسب بحثنا أو هذا العنوان ، هو حديث المنزلة : (يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) ، رواه اصحاب الصحاح بما فيهم البخاري^(٥٨١) ؛ وهو من الأحاديث المتواترة عند أهل السنة والشيعة .

وقد أفاد السيّد البدي من هذا الحديث في تثبيت هذا التناظر والدفاع عنه ، وانطلق من انفراد علي بن إبراهيم القمي من بين مفسري الشيعة ، في أنّ الشاهد في آية سورة الأحقاف هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ، والدليل عند القمّي ما جاء في آية سورة هود : ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يُتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ . هود ١٧﴾^(٥٨٢) ، وخرج هذا المُفسّر عن الفهم المشهور بين الطرفين ، لكنّه . على رأي السيّد . لا يقوم لا على قاعدة ظهر الآية ، ولا على قاعدة بطنها ، فإنّ ظهر قوله تعالى : ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ ، يفيد أنّ أعظم شاهد في بني إسرائيل هو موسى ، إذ إنّ تكبير شاهد يدل على عظمته ، ولا يوجد أعظم من موسى عالمًا في بني إسرائيل بكتابه ، أما بطنها فهو محمد لأنه أعظم شاهد في بني إسماعيل ، وليس عليًا الذي يقابل هارون^(٥٨٣) .

(٥٨٠) تاج العروس ٢٤٨/١٤ ، ٢٥٢ .

(٥٨١) نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهراء والسبطين ١٣٨ .

(٥٨٢) تفسير القرآن العظيم ٢/٢٩٦ .

(٥٨٣) بحوث جديدة في التفسير ٥٥ .

ويقول السيد : نعم حين نفسر ﴿عَلَى مِثْلِهِ﴾ بعودة الضمير فيه إلى موسى ويكون معناها أن موسى قد بشر بنبي مثله ، وقد ورد في التوراة في سفر التثنية الفصل ١٨ الفقرة ١٥ قول موسى لبني إسرائيل الذي عرضناه سابقاً : (يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي) ؛ (ويؤيد بشارة موسى بمحمد وعلي عليهما السلام هذه ما ورد في سفر دانيال الفصل ٩ الفقرة ٢٤ قوله : (سَبْعُونَ أَسْبُوعًا قُضِيَتْ عَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى مَدِينَتِكَ الْمُقَدَّسَةِ لِتَكْمِيلِ الْمُعْصِيَةِ وَتَتْمِيمِ الْخَطَايَا ، وَلِكَفَّارَةِ الْإِثْمِ وَلِيُؤْتَى بِالْبَرِّ الْأَبَدِيِّ وَلِخْتِمِ الرُّؤْيَا وَالنَّبُوءَةِ وَلِمَسْحِ قُدُوسِ الْقَدِيسِينَ)^(٥٨٤) . أو بعبارة: ﴿إِنَّ سَبْعِينَ أَسْبُوعًا حُدِدَتْ عَلَى شَعْبِكَ وَعَلَى مَدِينَةِ قُدْسِكَ لِإِفْنَاءِ الْمُعْصِيَةِ وَإِزَالَةِ الْخَطِيئَةِ وَتَكْفِيرِ الْإِثْمِ وَالْإِتْيَانِ بِالْبَرِّ الْأَبَدِيِّ وَاحْتِتَامِ الرُّؤْيَا وَالنَّبُوءَةِ وَمَسْحِ قُدُوسِ الْقَدِيسِينَ)^(٥٨٥) . وَلِيُؤْتَى بِالْبَرِّ الْأَبَدِيِّ (الصدق الأبدي) ، قد تكون إشارة الى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . الزمر ٣٣﴾ ، (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ . الزمر/٣٢﴾ ، ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . الآية﴾ وَلِخْتِمِ النَّبُوءَةِ، وَلِمَسْحِ قُدُوسِ الْقُدُوسِينَ (أي تعيين أعظم المقدسين) ، أي تعيين علي ع^(٥٨٦) .

(٥٨٤) الكتاب المقدس ، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، ١٢٨٠ .

(٥٨٥) بحوث جديدة في التفسير ٥٥ .

(٥٨٦) الكتاب المقدس ، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ، ١٢٨٠ .

أي أنّ النبي المبعوث من أخوة بني إسرائيل / بمقابل أخوة بني إسماعيل : يماثل موسى ، ونجد المماثلة بين محمد وموسى تاريخياً في خصوصيتين هما الخصوصية الرسالية والخصوصية النَّسَبِيَّة (٥٨٧) .

أما خصوصية موسى الرسالية فإن الله تعالى قد بعث موسى بالكتاب والشريعة ، ومعه وزير من أهل بيته هو أخوه (هارون) ، وقد جعل الله الإمامة في ذريته ، ويقابلها خصوصية محمد الرسالية ، إذ إنّه أنزل عليه الكتاب وجعله صاحب الشريعة وأيّده بوزير من أهل بيته ، أي أخوه (علي) وقد تواترت هذه المنزلة أو الخصوصية برواية البخاري لها وكل الكتب المعتبرة في الحديث عند أهل السنة والشيعه (يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي) ، وتواتر قوله ص في الغدير إنه قال : (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي ... الحديث) (٥٨٨) .

ويستطرد السيّد في استدعاء أدلّة التناظر والتقابل والمثابفة ، في النَّسَب ، والأسماء ، والصفات ، والذريّة وغيرها ، في قوله : (أما خصوصية موسى النَّسَبِيَّة فإنّ موسى هو ابن عمّام بن قهات (مجمّع) بن لاوي فلاوي يقابل : (لؤي) بن يعقوب وعمّام : معرب (عم + رام) ومعناها بالعبرية (جماعة شريفة) ، وقد تبوأ بيت عمران موسى وهارون أرفع موقع في بني إسرائيل إذ جعل منه موسى صاحب الكتاب والشريعة وجعل منه هارون وزير موسى وجعل في ذريته الإمامة الإلهية

(٥٨٧) بحوث جديدة في التفسير ٥٦ .

(٥٨٨) المستدرك ١٠٩/٣ - ١١٠ ، وبحوث جديدة في التفسير ٥٦ - ٥٧ .

الهادية بعد موسى وهارون ، أمّا خصوصية محمد النسبية فهو ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي (مجمع) ، واسم هاشم : عمرو العلي ، أي الفرع الزاكي ، وقد كان بيت هاشم في بني إسماعيل أرفع بيت في قريش ، ثم في بني إسماعيل إذ جعل الله تعالى منه محمد ص صاحب الكتاب والشريعة ، وجعل منه علياً أخاه وزيراً للنبي ومنه أهل بيته الذين قرنهم النبي بالقرآن ، وأولهم علي والبقية من ذريته من فاطمة بنت محمد) (٥٨٩) .

ويكون معنى المماثلة بين النبي موسى والنبي المُبَشَّرِ به في بني إسماعيل هو أن النبي الإسماعيلي يُبَعَثُ من أكرم بيت في قريش على الإطلاق ، وهو بيت عمرو العلي بن عبد مناف بن قصي (لقبه مجّع) ، معه وزير من أهل بيته هو أخوه علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم عمرو العلي بن قصي (لقبه مجّع) كما أن موسى هو ابن عمران (عمرام) أي عمرو العلي بن قهات (بالعبرية معناها مجمع) ، ولموسى من أول تكليفه بالرسالة وزير من أهل بيته هو أخوه هارون (٥٩٠) ، بنص القرآن : ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ . طه ٢٤ - ٣٦ ﴾ .

والمماثلة بين موسى ع ومحمد ص من جهة موقع علي منه ص أمر متواتر لدى

(٥٨٩) بحوث جديدة في التفسير ٥٧ .

(٥٩٠) المصدر نفسه ٥٨ .

المسلمين لقول النبي ص في غار حراء سنة ١٣ قبل الهجرة وفي قصة تبوك سنة ٩ هجرية (يا علي انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي) ، رواه أصحاب الصحاح كلها بما فيهم البخاري الذي لم يرو حديث الغدير، لكنه روى حديث المنزلة ، وفي قصة الدار قبل الهجرة بعشر سنوات (٥٩١) .

وفي ضوء ذلك يتضح أنّ محاولة علي بن ابراهيم في التفسير . في رأي السيد البدريّ . لم يكتب لها أن تصيب المعنى الكامل ، إذ كانت تفسيرًا في ضوء الفهم الخاص به ، ويقول : (أما إذا تعاملنا مع قوله الذي أورده بصفته رواية عن الأئمة ع فحينئذ لا بد من افتراض أن بعض كلماتها سقطت سهوًا من النساخ وأن الأصل فيها هو : "الشاهد موسى بشر بالنبي وأمير المؤمنين" ، وسقط من الكلام أربع كلمات هي (موسى بشر بالنبي و)، وبقي قوله "الشاهد أمير المؤمنين" ، ولكن هذا الافتراض يحتاج إلى مراجعة كل مخطوطات تفسير علي بن إبراهيم أو استقراء من نقل عنه من العلماء) (٥٩٢) .

ويذكر السيد البدريّ أنّ مسروق والشعبيّ أرادا بالشاهد موسى ، الذي شهد على مثله ، أي على مثل القرآن وهو التوراة ، وقد رجّحه الطبريّ ، فالتوراة مثل القرآن، وموسى مثل محمد ، فأمنوا بالتوراة وبرسولهم وكفرتهم، قال الطبريّ : حدّثنا أبو كريب عن الشعبيّ قال : إنّ ناسًا يزعمون أنّ الشاهد على مثله : عبد الله بن سلام، وأنا أعلم بذلك ، وإنّما أسلم عبد الله بالمدينة ، وقد أخبرني مسروق أنّ آل

(٥٩١) روى الشيخ الصدوق في علل الشرائع ٢ / ١٧٠ .

(٥٩٢) بحوث جديدة في التفسير ٦١ .

حم ﴿حَا مِيم﴾ إِنَّمَا نَزَلَتْ بِمَكَّةَ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ مُحَاجَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لِقَوْمِهِ ، فَقَالَ ﴿قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ
وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الأحقاف ١٠﴾ ، فمثل التوراة الفرقان ،
التوراة شهد عليها موسى ، ومحمد على الفرقان صلى الله عليهما وسلم ... ثم قال
آمن هذا الذي من بني إسرائيل بنبيّه وكتابه ، واستكبرتم أنتم ، فكذبتم أنتم بنبيكم
وكتابكم(٥٩٣) .

ويقول السيّد البديري : وكلام مسروق والشعبي والطبري ومن أخذ بقولهم كلام من
لم يطلع على نص بشارة موسى بالنبي (سيبعث الله لكم نبيا مثلي) ، ومن هنا
أبعدوا النُجعة ، أي ابتعدوا عن الفهم الصحيح في فهم المراد من جملة عربية
واضحة لا تعقيد في دلالتها على المقصود(٥٩٤) .

وفي الكتاب المقدس : (أقيم لهم نبياً من بين أخوتهم مثلك ، وألقي كلامي في فيه
فيخاطبهم بجميع ما أمرهم به)(٥٩٥) ، و(يقيم لك الربُّ إلهك نبياً من وسطك من
أخوتك مثلي ، له تسمعون)(٥٩٦) .

(٥٩٣) جامع البيان في تفسير القرآن ٧ / ٢٦ .

(٥٩٤) بحوث جديدة في التفسير ٦٩ .

(٥٩٥) الكتاب المقدس ، سفر تثنية الاشتراع ، الفصل ١٨ ، تسلسل ١٥ ، دار المشرق بيروت ، ١٩٨٦ ،
ص ٣٣٠ .

(٥٩٦) الكتاب المقدس ، التثنية ، الإصحاح ١٨ ، تسلسل ١٥ ، دار الكتاب المقدس ، في الشرق الأوسط ، د
ت ، ص ٣٠٨ .

وشهد شاهد من بني إسرائيل ، هو موسى ، أخبر بنبي مثله سيبعثه الله من مكة ، وقد نصت التوراة على ذلك ، فأمن من أتباع موسى من علمائهم كمخيريقي وغيره الذين أدركوا النبي وعاصروا مماثلة محمد ص لموسى ع بكون كل منهما نبيّ صاحب كتاب وشريعة ولكل واحد منهما وزير من أهل بيته وقد أكّد النبي هذه المماثلة بقوله المتواتر : (يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) ، وقد روته الصحاح السننية كلها! (٥٩٧) .

ولوضوح بُعد المعنى الذي ذكره مفسروهم عدل عنه ابن جزى الغرناطي في تفسيره إذ قال : (والضمير في "أمن" للشاهد فإن كان عبد الله بن سلام أو الرجل الآخر فإيمانه بيّن ، وإن كان موسى ، فإيمانه هو تصديقه بأمر محمد وتبشير به) (٥٩٨) . و(شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ، اختلّف في الشاهد المذكور ، على ثلاثة أقوال: أحدها : أنه عبد الله بن سلام ، فقيل على هذا أنه الآية مدنيّة ، لأنه إنّما أسلم بالمدينة ، وقيل : أنها مكّيّة وأخبر بشهادته قبل وقوعها ، ثم وقعت على حسب ما أخبر ، وكان عبد الله بن سلام يقول : نزلت فيّ الآية ؛ الثاني : أنه رجل من بني إسرائيل كان بمكة ؛ الثالث : أنه موسى ع ، ورجّح ذلك الطبري ، والضمير في مثله للقرآن ، أي يشهد على مثله فيما جاء به من التوحيد والوعد والوعد والضمير في آمن للشاهد فإن كان عبد الله بن سلام أو الرجل الآخر

(٥٩٧) بحوث جديدة في التفسير ٦٨ - ٦٩ .

(٥٩٨) التسهيل لعلوم التنزيل ٢ / ٢٧٥ .

فإيمانه بيّن ، وإن كان موسى ع فإيمانه هو تصديقه بأمر محمد ص ، وتبشيره به(٥٩٩) .

ويجد السيّد أنّ هذا : (أوجه من الرأي المشهور عندهم ويقرب منه تفسير الرازي ثم أشكل عليه المستشكل بما أشكل أنفا ، وإشكاله غير وارد لأن قوله تعالى: (فَأَمَّنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) معناه : فأمن من علماء بني إسرائيل المعاصرين لمحمد ص من آمن ؛ لما رأوا انطباق بشارة موسى بوضوح على محمد ووزيره علي واستكبرت قریش، ومن ثمّ يتحقق أن الشاهد في الآية هو موسى وإن الذي آمن بالنبى عند بعثته هو من علماء بني اسرائيل الذين ادركوا النبى، وكان من أبرزهم مخيريق(٦٠٠) .

يقول السيّد : إنّ الرازي قال : (إنه ليس المراد منه شخصاً معيناً بل المراد منه أن ذكر محمد صلى الله عليه وسلم موجود في التوراة والبشارة بمقدمه حاصله فيها فتقدير الكلام لو أن رجلاً منصفاً عارفاً بالتوراة أقر بذلك واعترف به، ثم إنه آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وأنكرتم أستم كنتم ظالمين لأنفسكم ضالين عن الحق؟ فهذا الكلام مقرر سواء كان المراد بذلك الشاهد شخصاً معيناً أو لم يكن كذلك لأن المقصود الأصلي من هذا الكلام أنه ثبت بالمعجزات القاهرة أنّ هذا الكتاب من عند الله وثبت أن التوراة مشتملة على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم

(٥٩٩) التسهيل لعلوم التنزيل ٣ / ١٣٧٨ .

(٦٠٠) بحوث جديدة في التفسير ٧١ .

ومع هذين الأمرين كيف يليق بالعقل إنكار نبوته) انتهى كلام الرازي ، وقد خطا خطوة جيدة في فهمه للآية ولكنه لم يصل إليه وصولاً تاماً^(٦٠١) .

ويذكر السيد أنّ الاحتمال الذي نكره ابن جُزَيّ صحيح ، بأن موسى هو الشاهد ؛ لأنه بَشَّرَ بالنبى ، ثم أشكل عليه المستشكل بما أشكل أنفاً ، وإشكاله غير وارد لأن قوله تعالى : (فَامَنَّ وَاسْتَكْبَرْتُمْ) ، معناه : فآمن من علماء بني إسرائيل الذين عاصروا محمداً ص ؛ لما رأوا انطباق بشارة موسى بوضوح على محمد ص ووزيره علي ع واستكبرت قريش ، ومن ثَمَّ يتحقق أن الشاهد في الآية هو موسى وإنّ الذي آمن بالنبى عند بعثته هو من علماء بني إسرائيل الذين أدركوا النبى ، وكان من أبرزهم مخيريق^(٦٠٢) .

(٦٠١) بحوث جديدة في التفسير ٥٣ .

(٦٠٢) المصدر نفسه ٧٠ .

الخاتمة

نجمُ فيما يأتي أهمّ النتائج :

١ . إنّ فكرة جمع القرآن كانت مكتملة في ذهن أمير المؤمنين ، وكان مؤهلاً لجمعه وجاهزاً لتدوينه ، بعد صحبة النبي ، وملازمته ، وتوجيهه ، وإعداده لهذه المهمة العظيمة التي لا تضاهيها مهمة أخرى .

٢ . إنّ الإمام صحب القرآن وكان معه ، وقد قال : (إنّ الكتاب لمعي : ما فارقتهُ مُذْ صَحِبْتُهُ...) ، وقد بذل جهداً في حفظه ، واختصّ بالإحاطة بما فيه ، حتى قال النبي ص : (عليّ أعلم الناس بالكتاب والسنة) ؛ وقول الإمام نفسه ، (لم ينزل الله على رسول الله ص آية إلا جمعتها ، وليس منه آية إلا وقد أقرأنيها رسول الله وعلمني تأويلها) .

٣ . إنّ تأدية سورة براءة من التوجيه الربانيّ ، فالإمام من النبي ص ، والتأكيد باختصاص تأدية السورة به ص ، أو رجلٍ منه بالنفي وإلا ، في حديث : (لا يُؤدّي عنك إلا أنت أو رجلٌ منك) ، اختصاص الإمام بالتأدية ونفيها عن عده ، في مواجهة من ينكر ، أو ربما يتردّد في قبول هذا التوجيه .

٤ . إنّ العلامة السيّد سامي البدريّ كان قد انتقد محاولات تشتيت الرواة للمقصود بـ(الشاهد منه) في القرآن الكريم ، من رواة المراسيل لمصلحة المخالفين لآل البيت ، من الذين وضعوا على لسان أمير المؤمنين ، عن طريق أولاده ، ما يبعدُ نسبة الشاهد منه إليه .

٥ . إنَّ اعتمادَ السائدِ من الرواياتِ على رأيِ السيّدِ البدري نفسه في محاولةٍ تجنّبِ الخلافاتِ العقائديّةِ بين المذهبين؛ كان على حسابِ الحقِّ والموضوعيّةِ، فإيمانِ موسى وهارون وبنِي إسرائيلِ بالتوراةِ، يُناظرُ النبيَّ والقرآنَ وعليّ بن أبي طالب؛ وكذلك النسبِ بين الذريّتين، فالشاهد من بني إسرائيلِ يناظرُ الشاهد من آلِ محمد.

٦ . إنَّ من يشهد للشاهد من النبيّ ثلاثة : تناظر الآية ١٧ من سورة هود والآية ١٠ من سورة الاحقاف ، وسيرة أمير المؤمنين نفسه ، وموسى وكتابه وأتباعه ؛ فضلاً عن أنّ السيّد وجد أنّ القرآن تحدّى فصحاء العرب وبلغاءهم أن يأتيوا بمثله، وفي الوقت نفسه عرض المُضاهاة والتكافؤ بين دعوة موسى ومحمد عليهما السلام والشاهد منهما هارون وعليّ ، استناداً إلى تناظر مضمون هاتين الآيتين .

٧ . أنّ جميع المُعطيات تجعلُ المُنصِفُ ، يطمئنُ إلى أنّ عليّ بن أبي طالب هو الشاهد الأوثق ، منه ص من بيت النبيّ وأقرب الناس إليه ، والتالي له ووارثه ومستودع علمه ، والناطق بحجته ، حَفِظَ ما سَمِعَ ، ودوّن ما تلقى ، فجاء به على وجهه ، لم يزد فيه ولم ينقص ، ووضع كلّ شيء في موضعه ، وهو نفسه الضامن لسلامة هذا النصّ باعتناء النبيّ ص وتهيئته ، سواء استُدعي للتدوين الرسميّ مباشرة أو لم يُستدعَ ، لأنّ مكانته من النصّ معلومة ، عند القاصي والداني في هذا الأمر، وهو نفسه حريصٌ كلّ الحرص ، على القرآن وموجّه من النبيّ التوجيه المطلوب ، فلا يُوازن بغيره في هذا المضمار، والقرآن المضبوط بعلامات ضبط أبي الأسود كان بتوجيهه ، وهو قرآن الإمام ، وقرآن رسول الله ، والقرآن النازل من عند الله .

وأخيراً وليس آخراً .. نقولُ باطمئنان : إنّ القرآنَ المجيدَ يوحدُ المسلمين وهذا هو الواقع ، ولابدَّ من إبعاد قضية جمع القرآن عن الصراع بين المذاهب ، وتجاوز الروايات التي لا أساس لها على الرغم من شيوعها وتداولها ، وكذلك الأفكار المتناقضة التي لا تستند إلى دلائل ، أو براهين مقنعة ، ويشهد للقرآن أنّه دُون في عهد النبوة ومن بعده مباشرة ، ومن (الشاهد منه) أمير المؤمنين ...

فيا لها من شهادة قرآنيّة مباركة حَفِظَتْ النّصَّ الشريف ، من التغيير والتحريف!!

والحمد لله ربّ العالمين .

المصادر

- أبو الأسود الدؤليّ في الميزان ، د محمد المنصور ، قم ، ١٤١٨ .
- الإتقان في علم القرآن ، للسيوطي ، تح أحمد بن علي ، القاهرة ، ٢٠٠٦ .
- الاحتجاج ، لأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي ط ٥ ، قم ، ١٤٣٤ هـ .
- إحقاق الحق للتستري ، طهران ، ١٩٨٩ .
- أدب الكتاب للصولي ، نشر محمد بهجة الأثري ، القاهرة ، ١٣٤١ .
- إرشاد الساري شرح صحيح البخاري للقسطلاني ، ط ٦ ، بولاق بمصر ، ١٣٠٥ .
- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ، د . قيس إسماعيل الأوسي ، بغداد ، ١٩٨٨ .
- أسباب النزول ، للواحدي ، تح السيد أحمد صقر ، ١٩٦٩ .
- إعلام الوري ، بأعلام الهدى للطبرسي بيروت ، ١٩٧٩
- أعيان الشيعة ، للسيد حسن الأمين العاملي ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٩٨ .
- الأمالي ، للشيخ الطوسي ، قم ، ١٤١٤ .
- أمالي المرتضى ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، ٢٠٠٥ .
- الإمامة في أهم الكتب الكلامية ، السيد علي الحسيني الميلاني ، د . ط ، د . ت .
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، قم ١٤٢٦ .
- أنباه الرّواة على أنباه النحاة ، للقفطي ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، ٢٠٠٤ .
- أنساب الأشراف للبلاذري تحقيق سهيل زكار ، بيروت ، ١٩٩٦ .
- أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ، د . مهدي صالح سلطان ، بغداد ، ٢٠١٦ .

- الأوقاف النبوية، د . عبد الله بن محمد بن سعد الحجيلي ، المدينة المنورة ، د . ت .
بحار الأنوار ، للعلامة الشيخ محمد باقر المجلسي ، بيروت ، ١٤١٤ ،
البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي ، الرياض ، د . ت .
بحوث جديدة في التفسير ، السيّد سامي البديري ، تراث النجف الحضاريّ ، د . ت .
البخلاء ، للجاحظ ، بيروت ، ٢٠١٠ .
البديع ، لابن خالويه ، تح .د . جايد زيدان مخلف ، بغداد ، ٢٠٠٦ .
البرهان في علوم القرآن للزركشي ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٣ ، دار الفكر ، ١٩٨٠
بصائر الدرجات ، للعالمي ، لمحمد بن الحسن بن فروخ الصفار ، طهران ، ١٤٠٤ هـ .
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، للسيوطيّ تح مصطفى عبد القادر عطا ، بيروت ٢٠٠٤ .
البيان في تفسير القرآن ، لأبي القاسم الخوئي ، قم ، ٢٠٠٣ .
البيان في غريب إعراب القرآن ، أبو البركات الأنباري ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
البيان والتبيين للجاحظ ، تح عبد السلام هارون ، ط ٩ ، ١٩٦٩ .
بيّنات ، الموقع الرسمي لمؤسسة السيّد محمد حسين فضل الله على النت .
تاج العروس ، للزبيدي ، تح مجموعة من الباحثين ، الكويت ، ١٩٦٥ .
تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ، تح مصطفى عبد القادر عطا ، بيروت ، ١٩٩٧ .
تاريخ القرآن ، د . عبد الصبور شاهين ، دار القلم ، ١٩٦٧ .
تاريخ القرآن ، محمد طاهر الكرديّ ، جدّة ، ١٩٤٦ .
تاريخ مدينة دمشق ، لابن عساكر ، تح مصطفى عبد القادر ، بيروت ، د . ت .

- التبيان في تفسير القرآن ، للطوسي ، قم ، ١٤١٣ هـ .
- التحرير والتنوير ، لابن عاشور ، بيروت ، ٢٠٠٠ .
- تحف العقول للحرّاني ، بيروت ، ٢٠٠٢ .
- تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل ، لأبي زرعة ، تح عبد الله نواره ، الرياض ، ١٩٩٩ .
- تحليل لغة القرآن ، د. محمد باقر سعيدي روشن، تر علي عباس الموسوي، بيروت، ٢٠١٤.
- ترتيب جمهرة اللغة ، لابن دريد ، مشهد ، ١٤٢٦ هـ .
- ترتيب كتاب العين، للفراهيدي، تح د . مهدي المخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، قم ، ١٤١٤ .
- التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جُزَي الكلبِي، تح د محمد بن سيدي محمد مولاي، ط ٢، الكويت، ٢٠١٣.
- التعريفات ، للشريف السيّد الجرجانيّ ، قدم د أحمد مطلوب ، بغداد ، د . ت .
- تفسير الثعلبي ﴿الكشف والبيان﴾ ، تحقيق أبي محمد بن عاشور ، بيروت ، ١٤٢٢ .
- تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم الرازي، تح أسعد محمد الطيب، ط ٣، السعودية، ١٤١٩.
- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير ، بيروت ، ١٤١٩ .
- تفسير القمي عليّ بن إبراهيم ، من مشايخ الكليني ، ط ٣ ، قم ، ١٤٣٥ .
- تفسير الكشاف ، الزمخشري ، تح خليل مأمون شيحا ، بيروت ، ٢٠٠٢ .
- تفسير المنار محمد رشيد رضا ،بيروت دار المعرفة ، ط ٢ ، د.ت.
- تفسير من وحي القرآن ، السيد محمد حسين فضل الله ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٩٨ .
- تلخيص التمهيد ، محمد هادي معرفة ، قم ، ٢٠١٦ .
- التمهيد في علوم القرآن ، محمد هادي معرفة ، قم ، ١٤٣٨ .

- تهذيب اللغة ، للأزهريّ ، تح عبد السلام هارون ، ومحمد علي النجار ، د . ط ، د . ت .
جامع البيان في تفسير القرآن، للطبري ، بيروت دار المعرفة ، ط ٢ ، ١٩٧٢ .
- جامع البيان في القراءات السبع المشهورة لأبي عمر الداني ، تح محمد صدوق الجزائري،
بيروت ، ٢٠٠٥ .
- الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ، تح مصطفى السقا ، بيروت ، ١٩٨٥ .
- الجرح والتعديل ، لأبي حاتم الرازي ، بيروت ١٩٥٢ .
- جرس الألفاظ ودلالاتها ، د . ماهر مهدي هلال ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- جماليّات الخطاب في النصّ القرآنيّ ، د . لطفي فكري محمد الجوديّ ، القاهرة ، ٢٠١٤ ،
- جمع القرآن نقد الوثائق وعرض الحقائق ، للشهرستاني ، كربلاء ، ١٤٣٥ .
- الحافظ أحمد بن الصديق الغماري وجهوده في خدمة الحديث من خلال أجزائه الحديثية ، علياء
محمد زجل، بيروت ، ٢٠١٩ .
- الحدود ، المعجم الموضوعي للمصطلحات الكلاميّة ، لقطب الدين النيسابوريّ ، تح د .
محمود يزدي ، قم ، ١٤١٤ هـ .
- حذيفة بن اليمان أمين سر رسول الله ، إبراهيم محمد العلي ، دمشق ، ١٩٩٦ .
- حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، للشريف الرضيّ ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ﴿ت ٤٣٠ هـ﴾ ، لأبي نعيم الأصفهاني ، مصر ، ١٩٩٦
- دراسات لأسلوب القرآن الكريم ، د . مجمد عبد الخالق عضيمة ، القاهرة ٢٠٠٤
- الدر الثمين في معالم دار الرسول الأمين، غالي محمد الأمين الشنقيطي، ط ٣، بيروت،
. ١٩٩١

- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، للسمين الحلبي ، بيروت ، ١٩٩٤ .
- الدر المنثور للسيوطي ، للسيوطي ، بيروت ، ١٩٩٣ .
- دلائل الإعجاز ، للبرجاني، تح محمد رشيد رضا ، بيروت ، ١٩٧٨ .
- ديوان أبي الأسود الدؤلي صنعة السكري، تح الشيخ محمد حسين آل ياسين، بيروت ، ١٩٩٨
- ديوان الأدب ، لأبي إبراهيم الفارابي ، تح د . أحمد مختار عمر ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
- رجال البرقي ، تح جواد الفيومي الأصفهاني ، قم ، د . ت .
- روح المعاني ، للألوسي ، بيروت ، دار إحياء التراث ، د.ت .
- الروض الأنف ، أبو القاسم السهيلي ، تح عبد الرحمن الوكيل ، عابدين ، ١٤٢١ .
- زاد المسير في علم التفسير للألوسي ، بيروت ، دار إحياء التراث ، د.ت .
- السبعة في القراءات ، لابن مجاهد ، تح شوقي ضيف ، مصر ، د . ت .
- سعد السعود، لابن طاووس "٦٦٤هـ"، تح صاحب علي المحتي، قم، ١٤٣٨
- سلسلة الأحاديث الصحيحة ، للألباني ، الرياض ، ١٩٩٩ .
- سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، تح شعيب الأرنؤوط ومحمد العرقسوسي ، بيروت ، ١٤١٣ .
- السيرة لابن هشام ، تح طه عبد الرؤوف سعد ، بيروت ، ١٤١١ .
- شرح ابن عقيل ، ط ١٥ ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- شرح التصريح على التوضيح ، للأزهريّ تح محمد باسل عيون السود ، بيروت ، ٢٠٠٠ .
- شرح الرضي على كافية ابن الحاجب ، تح د . عبد العال سالم كرم ، القاهرة ، ٢٠٠٠ .

- شرح نهج البلاغة ، لابن أبي الحديد المعتزلي ، بيروت ، ٢٠٠٤ .
- صحيح مسلم ، بيروت ، د . ت ، باب فضائل علي بن أبي طالب ، بيروت ، د . ت .
- الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، لابن حجر الهيتمي، مصر، د . ت .
- الطبراني الأوسط ، تح طارق بن عوض الله ، وعبد المحسن الحسيني ، دار الحرمين ، ١٩٩٥ .
- طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
- طبقات القراء السبعة أمين الدين أبو محمد عبد الوهاب بن السلاّر، تح أحمد محمد عزوز، لبنان ، ٢٠٠٨ .
- الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، تح محمد عبد القادر عطا ، بيروت ، ١٩٩٠ .
- العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسي ، تح أحمد أمين وغيره ، القاهرة ، ١٩٦٧ .
- العلل ، لأحمد بن حنبل ، بيروت ، ١٤٠٨ .
- عمدة عيون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأبرار لابن البطريق الحلبي، قم، ١٤٠٧ هـ .
- الغارات ، أبو إسحق إبراهيم بن محمد ، طهران ، ١٩٧٥ .
- فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني، تح الشيخ عبد الله بن باز، بيروت، ٢٠١٩ .
- فضائل القرآن ، لابن كثير ، تح أبو إسحاق الحويني الأثري ، القاهرة ، ١٤١٦ .
- الفهرست لابن النديم ، تح د . يوسف علي طويل ، ط ٢ ، بيروت ، ٢٠٠٢ .
- في النحو العربيّ قواعد وتطبيق ، د . مهدي المخزومي ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- القاموس المحيط للفيروز آبادي ، بيروت ، ٢٠٠٣ .
- القرآن الكريم جمعه وتدوينه وضبط حروفه ، د . مهدي صالح سلطان ، بغداد ، ٢٠١٧ .

- الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ، بيروت ، ١٩٨١ .
- الكتاب أصلاً من أصول التشريع ، رياض ميلادي ، بيروت ، ٢٠١٦
- كتاب المصاحف ، للسجستاني ، مصر ، ١٩٣٦
- الكتاب المقدس، التنثية، الإصحاح ١٨، تسلسل ١٥، دار الكتاب المقدس، في الشرق الأوسط ، د . ت .
- الكتاب المقدس ، سفر التنثية ، بيروت ١٩٨٦ .
- كلام الله ، الجانب الشفاهي من الظاهرة القرآنية ، د . محمد كريم الكوّاز ، بيروت ٢٠٠٢ ،
- الكُتَيَات ، معجم المصطلحات والفروق اللغوية، للعكبري ، تح د . عدنان درويش، ومحمد المصري، قم ١٤٣٣
- كنز العمال ، للمتقي الهندي، فضائل عليّ رض، تح صفوة السقا ، بيروت ، ١٩٨٩ .
- كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين ع ، للعلامة الحلّي ، بيروت ، د . ت .
- لسان العرب ، لابن منظور ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت .
- مباحث في علوم القرآن ، صبحي الصالح ، بيروت ، ١٩٨٥
- متشابه القرآن ، د . عبد الحميد ندا ، القاهرة ، ٢٠٢١
- مجمع البيان في تفسير القرآن ، للطبرسي ، تح هاشم الرسولي المحلاتي ، بيروت ١٩٩٢
- مجمع الزوائد ، للهيتمي ، باب الخلفاء الأربعة ، بيروت ، ١٤٠٧ .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تح عبد السلام عبد الشافي، بيروت، ٢٠٠١ .

- محطّات في تاريخ القرآن ، مرتضى باقر ، بيروت ، ٢٠١٥ .
- مختصر بصائر الدرجات ، للأشعري القمي ، تح مشتاق صالح المظفر ، قم ، ١٤٣٠ .
- مختصر فتح الباري لابن حجر العسقلاني، تح طه عبد الرؤوف سعد ومحمد خليل الطوخي
القاهرة ، ٢٠٠٥ .
- مرجع الضمير في القرآن الكريم موضعه وأحكامه وأثره في المعنى والأسلوب ، محمد حسنين
صبرة، القاهرة، ٢٠٠١ .
- المستدرك على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري ، دار الفكر ، بيروت ، د . ت .
- مسند أحمد ، بيروت ، د ت .
- مشكل إعراب القرآن للقيسي ، دمشق ، ٢٠٠٣ .
- المصباح المنير ، للفيومي ، تح د . عبد العظيم الشناوي ، ط ٣ ، القاهرة ، ٢٠١٩ .
- مصباح الهداية في إثبات الولاية ، للبههاني ، ط ٤ ، قم ، ١٤١٨ هـ .
- المصحف الشريف المنسوب إلى علي بن أبي طالب، نسخة صنعاء، تح د . طيار آلتى قولاج،
استانبول، ٢٠١١ .
- معاني القرآن ، للفرّاء ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- المعجم الاشتقاقي الموصل لألفاظ القرآن الكريم ، مجمد حسن جبل ، القاهرة ، ٢٠١٩ .
- المعجم الاوسط ، للطبراني ، تح طارق بن عوض الله وغيره ، ، القاهرة ، ١٤١٥ .
- معجم الفروق اللغويّة ، لأبي هلال العسكري ، قم ، ١٤٢١ .
- المعجم في فقه لغة القرآن وسر بلاغته ، بإشراف محمد واعظ زاده الخراساني ، مشهد ، ١٤١٩ .

- معجم القراءات القرآنية، د أحمد مختار عمر، وعبد العال سالم مكرم، ط ٢، الكويت، ١٩٨٨.
- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، ١٣٦٦
- المعيار والموازنة في فضائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، للإسكافي، تح الشيخ محمد باقر المحمودي، ١٩٨١.
- مُغني اللبيب، لابن هشام، تح مازن المبارك، بيروت، ١٩٦٩.
- مفردات الراغب الأصفهاني مع ملاحظات العاملي، دار المعروف، ١٤٣٢هـ.
- مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الأصفهاني، تح أحمد صقر، بيروت، ٢٠٠٩.
- مقالات في اللغة والأدب، د. تمام حسان، القاهرة، ٢٠٠٦.
- مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب، تح د. يوسف البقاعي، ط ٢، دار الأضواء، ١٩٩١.
- المنتخب من تفسير البيان، لابن إدريس الحلي، تح مهدي الرجائي، قم، ١٤٠٩.
- منهاج السنة، لابن تيمية، د محمد رشاد سالم، ١٩٨٦.
- موادّ البيان لعلي بن خلف الكاتب، تح أ. د حاتم صالح الضامن، دمشق، ٢٠٠٣.
- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، عبد الأعلى السبزواري، ط ٢، ٢٠٠٧.
- موسوعة الإمامة في نصوص أهل السنة، للمرعشي النجفي وغيره، قم، ١٤٤٠ هـ، ٢٠١٨.
- الميزان في تفسير القرآن، للطباطبائي، بيروت، ٢٠٠٦.
- نحو النَّصِّ بين الأصالة والحداثة، د. أحمد محمد عبد الراضي، القاهرة، ٢٠٠٨.
- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، بيروت، ٢٠٠٨.
- النَّصُّ والخطاب والإجراء، ط ٢، القاهرة، ٢٠٠٧.

- النكت والعيون تفسير للماوردي، تح السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، بيروت، د . ت .
نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين النويري ، القاهرة ، ١٤٢٣ .
- النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير ، تح محمود محمد الطناحي ، قم ، د . ت .
- نهج البلاغة شرح محمد عبده ، تح محمد محيي الدين عبد الحميد ، مصر ، د . ت .
- نور الفرقدين في فضائل المرتضى والزهاء والسبطين، د . بشار عواد معروف، بغداد، ٢٠١٩ .
- همع الهوامع ، للسيوطي ، تح د عبد العال سالم مكرم ، القاهرة ، ٢٠٠١ .
- ينابيع المودة للقندوزي الحنفي ، بيروت ، ٢٠٠٩ .

فهرس الآيات

مرتبة بحسب تسلسل السور ، وما يقابل الآيات من صفحات الكتاب :

البقرة : ١٩ / ١٥٨ ، ٢٣ / ١٦٦ ، ٢٦ ، ٨٦ ، ٤١ / ٤٥ ، ٨٨ ، ٨٥ / ٤٨ ، ٨١ / ٨٧ ، ٦٣ ، ٦٣ ، ١٢١ ، ١٧٢ ، ٧٥ / ١٦٢ ، ٨١ / ٩١ ، ٩٧ ، ٨٤ / ٩٩ ، ٨٧ / ١٠١ ، ١٠٩ / ١٢١ ، ٨٧ ، ١٠٢ ، ١٢٤ ، ٨٩ / ١٢٧ ، ١٢٩ . ٢٥٦ / ١٢٨ ، ٥٤ / ١٤٣ ، ٥٤ / ١٤٣ ، ١٤٤ / ١٠٩ ، ١٤٥ / ١٠٩ ، ١٤٦ / ٤١ ، ١٠٢ ، ١٥٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ / ١٦٠ ، ٢٥٥ / ١٦٦ ، ١٨٠ / ١٦٨ ، ٨٣ / ١٧١ ، ١٦٢ ، ١٨٩ / ١١٦ ، ٢٠٠ / ٢٠١ ، ١٢١ / ٢٠٨ ، ٦٠ / ٢٥٩ ، ١٧٠ / ٢٨٢ ، ١٩ / ٢٠ ، ١٨ ، ٢٨٣ ، ١٨ ، ١٩ .

آل عمران : ١٩ / ١١٠ ، ٢٠ / ١١٠ ، ٣١ / ٢٣٣ ، ٤٨ / ١٧٩ ، ٦١ / ١٤٣ ، ٢٢٨ ، ٧٠ / ٥٣ ، ٨١ / ٥١ ، ٨٦ / ٥٢ ، ٩٨ / ٢٥ ، ٩٨ / ٢٥ ، ٩٩ / ٥٢ ، عمران ١٠٠ / ١١٠ ، ١٠٣ / ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ١١٢ / ٢٠٧ ، ٢٢٨ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ٦٠ / ١٩٧ ، ٢٥٨ ، ١٨٦ / ١١٠ ، ١٨٧ / ١١١ .

النساء : ١١ / ٩٠ ، ٤١ / ٤٢ ، ١٣ / ٥٤ ، ٢٥٥ ، ٤٧ / ١١١ ، النساء ٥٤ / ١٢٨ ، ١٠٦ ، ٥٩ / ٢٢٤ ، ٧٩ / ٢٢ ، ١١٢ / ٨١ ، ١٣١ / ١١١ ، ١٣٦ / ٦٠ ، ١٤٠ / ٨٧ ، ١٦٦ / ٢٣ ، ١٧١ / ١٩٧ ، ٢٥٧ ، .

المائدة : ٣ / ٢٩ ، ١٤٦ ، ٥ / ١١١ ، ٦ / ١٥٠ ، ١٥ / ٨٧ ، المائدة ١٦ / ٨٤ ، ٤٤ / ٥٢ ، ٤٥ / ١٦١ ، ٤٨ / ٣٤ ، ٥٦ / ٦٠ ، المائدة ٦٧ / ١٣٨ ، ،

الأنعام : ٢٠ / ١٠٢ ، ٢٩ / ٨٣ ، ٣٦ / ١٦٢ ، ٥٧ / ٣٨ ، ٨٨ / ٨٧ ، ٨٩ . ٩٠ / ٢٤ ، ٨٨ ، ١٠٣ ، ٢٥٥ ، ٩٢ / ٨٧ ، ١١٢ / ٧٩ ، ١١٤ / ٩٥ ، ٢٢٤ ، ١٠٤ .

الأعراف : ٢ / ١٧١ ، ٢٧ / ٨٣ ، ٦٩ / ٧١ ، ٧٣ / ٣٤ ، ١٧١ / ١٢١ ، ١٧٩ /
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨٣ / ٢٠٧ ، ١٩٨ / ٣٦ .

الأنفال : ٢١ / ٨٠ ، ٣٠ / ١٠١ ، ٤١ / ٢٠٥ ، ٤٢ / ٣٥ .

التوبة : ١ . ٣ / ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٥ / ١٧٧ ، ١١ / ١٧٧ ، ١٥ / ١٧٧ ، ٢٧ /
١٧٧ / ٣٤ ، ٨١ / ٣٨ ، ١٩٣ / ٤٩ ، ١٨٢ / ٥٨ ، ١٨٣ / ٦١ ، ١٥٧ / ٦١ ، ١٦١ /
١٨٣ ، ٦٢ / ٩٠ ، ٧٤ / ١٧٧ ، ١٠٢ / ١٧٧ ، ١٠٤ / ١٧٧ ، ١٠٦ / ١٧٧ ،
١١٢ / ١٧٧ ، ١١٧ / ١٧٧ ، ١١٨ / ١٧٧ ، ١٢٦ / ١٧٧ .

يونس : ٢٩ / ٢٣ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٣٨ / ٨٩ ، ٤٣ / ٦٠ . ٦١ ، ٩٠ ، ٤٦ / ٢٥ ،
٥٧ / ١٦٦ ، ٦٤ / ١٦١ ، ٩٤ / ٩٥ .

هود : ١ / ١٦١ ، ٥ / ٨٥ ، ١٢ / ١٦٢ ، ١٣ / ٣٥ ، ٦٢ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٦٣ ، ١٧ /
٣ / ٢٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٨٨ ، ٩١ ،
٩٢ ، ٩٥ ، ١٨٧ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٨ / ٤٠ ، ٦٧ ، ٨٨ / ٦٦ ،
٣٩ . ٤٨ / ١٥٩ ، ٦٥ / ٤١ ، ٦٣ / ٦٨ ، ٨٧ / ٤١ ، ٦٦ ، ٨٨ / ٤١ ، ٦٧ ،
١٢٠ / ١٧١ .

يوسف : ٢٦ / ٢٨ ، ٧٢ ، ١٠٩ / ١٢٥ .

الرعد : ١ / ٢٥٤ ، ٣٦ / ١٠٤ ، ٤٣ / ٢٣ ، ٦١ ، ٩٥ ، ١٥٣ ، ٢٥٤ .

إبراهيم : ٩ / ٤ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ١٢٢ ، ١٧٢ ، ٤ / ١٦٨ ، ٢٨ / ١٥٥ .

الحجر : ٩ / ٤ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ١٢٢ ، ١٧٢ ، ٨٠ . ٨١ / ١٠٦ .

النحل : ٢٧ / ١١٣ ، ٤٣ . ٤٤ / ٨ ، ٤٤ ، ١٢٢ . ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ٢٤٦ .

٢٤٧ ، ٢٥٤ ، ٦١ / ٨٤ ، ٧٨ / ١٦١ ، ٨٩ / ٣٦ .

الإسراء : ٩٣ . ٩٤ / ١٢٥ ، ٩٦ / ٢٤ ، ١٠١ / ٩٩ ، ١٠٧ / ١١٣ .

الكهف : ١٩ / ١٩٣ ، ٢٥ / ١٠٠ ، ٢٦ / ١٠٠ ، ٦٣ / ١٢٢ ، ١٧٢ .

مريم : ٢٢ / ١٧٠ ، ١١٠ / ١٢٥ ،

طه : ٣ / ١١٨ ، ٢٥ . ٣٢ / ١٦٧ ، ٢٤ . ٣٦ / ٢٧٢ ، ٦٧ / ٨٩ ، ٨١ / ١٣ ،

١١١ / ١٥٤ .

الأنبياء : ٦ . ٨ / ١٢٢ ، ٧ / ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٥ / ١٢٥ ، ٣٠ / ١٧٠ ، ٤٨ / ١٠٥ ،

١٢٨ ، ٨٢ / ٩١ .

الحج : ١٧ / ٢٥ ، ١٩ / ٨٢ ، ٧٧ . ٧٨ / ٢٥٦ ، ٥٤ / ١١٣ ، ٧٧ . ٧٨ /

٢٥٦ ،

المؤمنون : ٩٠ / ١٠٦ .

النور : ٢ / ١٤ ، ٦ . ٩ / ١٢ ، ٢٤ / ٢٢

الشعراء : ١٢ / ١٦٩ ، ١٣ / ١٦٨ ، ١٠٩ / ٧٨ . ٧٧ ، ١٩٥ / ٣٣ ، ١٩٧ / ٦١ ،

٢١٤ / ١٣٧ .

النمل : ٣٢ / ١٨ ، ٣٤ / ١٦٩ ، ٤٨ / ١٠٠ ، ٤٩ / ١٤ ، ١٠٠ ، ٥٠ / ١٠١ .

القصص : ١٤ / ٢٥٢ ، ٢٦ / ٧٢ ، ٣٤ / ١٦٨ ، ٢٢٥ ، ٣٥ / ١٧٠ ، ٥٢ . ٥٤ ،

١٠٤ / ٦١ ، ١٤ / ٧٨ ، ٨٩ / ٨٣ ، ١٧٠ /

العنكبوت : ٢٧ / ٧٢ ، ٤٩ / ١١٤ ، ٤٧ . ٤٨ / ١٠٤ ، ٤٨ . ٤٩ / ٤٥ .

الروم : ٢١ / ١٣ ، ٥٦ / ١١٤ .

لقمان : ٧ / ١٦٢ .

الأحزاب : ٧ / ٥١ ، ٣٣ / ١٤٤ ، ٢٠٤ ، ٣٧ ، ٣٨ / ١٩٥ ، ٣٩ / ١٩٦ ، ٤١ /

١٢٢ ، ١٧٢ ، ٤٥ / ٣٦ ، ٥٦ ، ٩٥

سبأ : ٦ / ١١٤ ، ٤٤ ، ٤٥ / ١٠٨ .

فاطر : ١٤ / ٩٠ ، ٢٢ ، ٢٣ / ١٩٥ ، ٢٨ / ٩٩ ، ٣٢ / ٢٥٥ ، ٤٠ / ٤٢ ،

١٠٧ ، ٤٥ / ٨٤ .

يس : ١٠ / ١٦٦ ، ٦٥ / ٢٢ .

الصفات : ١١٤ ، ١١٧ / ١٠٥ ، ١٢٧ .

سورة ص : ٣٢ / ٩٠ ، ٨٦ / ٧٧ .

الزمر : ١٩ / ٢٥٨ ، ٢٣ / ٨٤ ، ٣٢ / ٢٧٠ ، ٣٣ / ٢٢٣ ، ٢٧٠ ، ٦٩ / ٣٧ ،

٥٥ .

غافر : ٥١ / ٢١ ، ٦٠ / ١٦٦ ،

فصلت : ٦ / ١٢٥ ، ٤١ / ١٢٢ ، ٤٤ / ١٥٨ .

الشورى : ٣ / ١٧٠ ، ١١ / ١٣ ، ١٩ / ١٧٠ ، ٢٠ ، ٢١ / ١٠٦ ، ٢٣ / ٧٨ ،

١٠٣ ، ٢٦ / ١٧٩ ، ٥٢ / ٨٧ ، ٦٠ / ١٩٣ ، ٤٤ / ١٢٤ ، ٨٦ / ٥٢

الدخان : ٣ / ١٨٥ ، ١٨ / ١٧٧ ، ٣٣ / ١٠٧ .

الجاثية : ١٧ / ١٠٧ .

الأحقاف : ١٠ / ٣ ، ٨ ، ٢٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٩٢ ، ٢٧٤ ، ١٩٤ .

محمد : ١٣ / ٤٢ ، ١٦ / ١١٤ .

الفتح : ٨ / ٩٥ ، ٢٨ / ٢٥ .

الحجرات : ٩ / ٨٢ .

سورة ق : ١٧ . ٢٢ / ٢٢ ، ٢١ / ٢٢ . ٢١ .

الذاريات : ١ . ٤ / ١٥٥ ، ٥٥ / ١٧١ ، ٥٨ / ٢٠٧ .

الواقعة : ١٠ . ١١ / ١٥٠ ، ٧٣ / ١١٨ ، ٩٣ / ٩٠ .

الحديد : ١٦ / ١١٢ .

المجادلة : ٧ / ١٥٤ ، ١١ / ١١٤ .

الحشر : ٢٣ / ٣٥ .

الجمعة : ١٠ / ١٢٠ ، ١١ / ٨١ .

القلم : ٤٥ / ٢٠٧ .

الحاقة : ١٢ / ٣٠ ، ١٢٠ ، ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ،

٤٢ / ١٢٠ ، ٤٨ / ١٢٠ .

المعارج : ١٨ / ١٥٧ .

المزمل : ١٥ / ٣٦ ، ٩٥ ، ١٩ / ١١٨ .

المدثر : ٣١ / ١١٢ ، ٤٩ / ١١٩ ، ٥٦ / ١١٩ .

القيامة : ١٨ . ١٩ / ٨ ، ٢٤٦ ، ٢٥٤ .

الإنسان : ٢٩ / ١١٩ .

المرسلات : ٢٥ . ٢٦ / ١٧٠ .

عبس : ١١ / ١١٩ .

الانشقاق : ١ . ٢ / ١٥٧ ، ٦ / ٨٠ ، ٢٣ / ١٥٧ .

الأعلى : ١٨ / ١٢١ .

الشمس : ٩ / ٩١ ، ٢ / ٤٥ ، ٤٧ .

القدر : ١ / ٩٠ ، ٢ / ٧٣ .

البيّنة / ١ / ٣٥ ، ٤ / ١١٢ .

الأعلام

النبيّ الكريم : لم ندرجه لكثرة تكراره ، وكذلك اسم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب .

آل كاشف الغطاء محمد حسين ٢٢٢ .

آل محمد ١١٥ ، ١١٦ ، ١٥١ ، ٢٠١ ، ٢٢٤ ، ٢٨٠ .

الآلوسي ٢٢٢ ، ٢٥٥ .

أمين بن يامين ٢٦٧ .

أبان بن عيَّاش ١٥٠ ، ٢٠٨ .

إبراهيم الثقفي ٢٥٠ .

إبراهيم القمي ٢٦٩ .

إبراهيم النبي ٥٤ ، ٧٢ ، ٨٩ ، ١٠٦ ، ١٢٨ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

إبراهيم النخعي ٥٦ .

ابن أبي حاتم ٢٢٦ .

ابن أبي الحديد ١٥٢ ، ٢٤٨ .

ابن أبي دؤاد ١٣٥ .

ابن إسحاق ٦٤ ، ٦٥ .

ابن تيميّة ٩٤ .

ابن جرير ٢٢٦ .

ابن الجزري ٢٣٢ .

ابن جُزَي الكلبى الغرناطى ٩ ، ٢٥ ، ٢٢٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ .

ابن الجوزى الحنبلى ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

ابن الحنفىة محمد بن على بن أبى طالب ٥٧ ، ٩٣ ، ١١٧ ، ١٢٥ ، ٢١٤ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ .

ابن خلكان ٢٢٩ .

ابن زىد ٩٣ ، ٢٢٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ .

ابن سعد ١٣٥ .

ابن شهر آشوب ٢١٤ .

ابن طاووس ٢٢١ .

ابن عاشور ١٠٠ ، ٢٢٤ .

ابن عباس ٤ ، ٥٦ ، ٩٣ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩٩ ،

٢٣٠ ، ٢٦٧ .

ابن عساكر ٢٤٨ .

ابن عطىة ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١٦٤ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ .

ابن عيسى ٢٦٧ .

ابن الفاصح ٢٣٠ .

ابن كثير ١٣٨ .

- ابن الكواء ١٥٥ ، ٢٠٢ .
- ابن مجاهد ٥ ، ٢٦٥ .
- ابن مردويه ٢٢٦ ، ٢٣٨ .
- ابن مسعود عبد الله ٥٥ ، ٦١ ، ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ،
٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
- ابن المغازلي ٢٤٨ .
- ابن المنذر ٢٢٦ .
- ابن النديم ٢١٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
- ابن هشام ٦٤ ، ٦٥ .
- أبو الأسود ٣١ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
٢٤٠ .
- أبو أيوب الأنصاري ١٣٢ .
- أبو البركات ٩٢ .
- أبو بصير ١٤٧ ، ٢٤١ .
- أبو بكر ١١٧ ، ١٣٥ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٥١ .
- أبو بكر بن عياش ٢٢٩ .
- أبو جعفر الإسكافي ٢٤٩ .

- أبو جهل ١٠١ .
- أبو حاتم الرازي ٢٤٨ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦ .
- أبو حيان ٢٥٥ .
- أبو الدرداء ١٣١
- أبو ذر ٨٢
- أبو رافع ٢٠٩ ، ٢١٣ .
- أبو زيد الأنصاري ١٣٢
- أبو سعيد الخدري ١٤٠ .
- أبو صالح ٥٦ .
- أبو طالب ٤٧ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .
- أبو الطَّفيل ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٥٤ .
- أبو العالية ٢٢٣ .
- أبو عبد الرحمن السلمي ١٥٠ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ .
- أبو عبد الله الجدلي ١٤٧ .
- أبو العلاء العطار ٣١٤
- أبو عمرو بن العلاء ٢٣٢ .
- أبو عمرو الداني ٢٢٩ .

- أبو محمد بن سعيد الجرمي ١٥٢ .
- أبو المنهال ٢٣٠ .
- أبو موسى الأشعري ١٣١ ، ٢١٧ .
- أبو نعيم ١٣١ ، ٢٤٨ .
- أبو هريرة ١٤٢ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٥٠ .
- أبو يعلى ٢٠٢ ، ٢١٠ .
- أبي بن كعب ١٣١ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .
- أحمد بن حنبل ١٨٤ ، ٢٢٩ .
- أسماء بنت عميس ١٤٤ ، ١٤٦ .
- إسماعيل ١٠
- الأصمغ بن نباتة ١١٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ .
- الأعمش ١٥٣ .
- أم سلمة ١٤٧ ، ٢٠١ .
- أنس بن مالك ٢٥٠ ، ٢٦٧ .
- الباقر أبو جعفر ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ٢٠٨ ، ٢٢٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ،
- ٢٦٢ .
- البخاري ٨٢ ، ١٤٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ .
- البرقي ٢٢٨ .

- زُرَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْعِجْلِيِّ ٢٤٧ .
- البلاذري أحمد بن يحيى ٦٥ ، ١٣٦ .
- البلخي ٥٦ .
- البهبهاني ٢٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٢٤٧ .
- الترمذي ١٩٤ .
- تميم الداري ١٣٢ .
- التوراة ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٩٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ،
٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ .
- ثابت بن أنس ٥٨ .
- ثابت مولى أبي ذر ٢٠٠ ، ٢٠١ .
- الثعلبي ١٦٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ .
- الثوري ٣٦٧ .
- جابر بن عبد الله الأنصاري ١١٦ ، ١٢٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ .
- الجاحظ ٢٣٨ .
- جبرئيل ١١ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٧ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٨٤ ،
١٨٥ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤ .
- جعفر بن محمد الصادق ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٥١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ،
٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ .

حبيش بن جنادة السلوليّ ١٨٤ .

حجاج بن محمّد ٢٢٩ .

الحجاج بن يوسف ٢٢٩ .

حسان بن ثابت ٦٢ .

الحسين بن فضل ٩٣ .

الحسن بن أبي الحسن البصري ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٥٧ . ٩٣ ، ١٥١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ،

٢٣٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ .

الحسن بن علي بن أبي طالب ١٠٣ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢١٠ .

٢١٤ ، ٢٢٩ ، ٢٤٩ .

الحسين بن علي بن أبي طالب ٥٦ ، ١٠٣ ، ١٢٥ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ٢١٤ ،

٢٢٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ .

الحسين بن فضل ٥٠ .

حذيفة بن اليمان ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ ، ٢٣٦ .

حفص ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٧ .

حفصة بنت عمر ٢٢٠ .

حماد بن سلمة ٥٨ .

حمران بن أعين ٢٣٠ ، ٢٣٣ .

- . حمزة بن حبيب الزييات ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ .
- . الحمزة بن عبد المطلب ١٣٦ ، ١٥١ .
- . حميد بن عبد الرحمن ١٤٢ .
- . حنش ١٨٥ .
- . خديجة ٤٨ ، ١٣٧ ، ١٣٩ .
- . خليل بن دعلج ٢٤٩ .
- . الخليل ٢٤٠ .
- . الخوارزمي ٢٠٦ .
- . الخوئي ٢١٠ .
- . دعلب ٢٤٧ .
- . ذعلب ١٥٤ .
- . الذهبي ٦٣ ، ١٦٣ .
- . الرضا علي بن موسى ١٢٤ ، ٢٤٧ .
- . الرماني ٢٤٤ .
- . زاذان ٢٥٠ .
- . الزجاج ٩٤ .
- . زُرُّ بن حبيش ١٥٣ .

زليخا ٧٢ .

الزمخشري ٧٨ ، ٩٢ ، ١٨١ ، ٢٦٧ .

زيد بن أرقم ٢٠٨ .

زيد بن ثابت ١٣١ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٦ .

زيد بن علي ٤٩ ، ٢٤٤ .

سالم مولى أبي حذيفة ٢١٦ ، ٢٢٢ .

سامي البديري ٨ ، ٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،

٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

السدي ٢٦٧ .

سعد بن أبي وقاص ١٤٣ .

سعيد بن جبير ٤٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٤ .

سعد بن حذيفة ٢١٥

سليم بن قيس ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

سيبويه ٢٤٠ .

السيوطي ١١٦ ، ٢٤٨ . سليمان العلاف ٢٣٩ .

الشعبي ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

شعيب ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٦ ، ٦٧ .

- شيبه بن ربيعة ٨٢ .
- الشيطان ١١٤ ، ١٣٧ .
- صالح ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٠٠ ، ١٠١ .
- صفوان بن حذيفة ٢١٥ .
- الضحاك ٢٢٣ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ .
- الطباطبائي ٢٤٢ ، ٢٦٦ .
- الطبراني ٢٠٨ ، ٢٢٦ .
- الطبرسي ٢٢٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ .
- الطبري ١٣٨ ، ١٣٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
- الطوسي ٢٠١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٥ .
- طيّار آلتى قولاج ٢٠٩ .
- عائشة ٢٠٠ ، ٢٠١ .
- عاصم بن أبي النجود ١٥٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ .
- عامر بن سعد بن أبي وقاص ١٤٣ .
- عباد بن عبد الله الأسدي ٢٣٠ ، ٢٤٧ .
- عبادة بن الصامت ١٣٢ .
- العباس عم النبي ٤٧ ، ١٣٦ ، ١٣٩ .

- عبد خير ٢١٣ .
- عبد الرحمان ابن أبي سعيد الخدري ٢٠٢ .
- عبد الرحمان بن أبي لئلى ٢١٤ ، ٢٢٨ .
- عبد الرحمان بن سابط ١٤٣ .
- عبد الله بن إسحاق ٢٢٩ ، ٢٤٠ .
- عبد الله بن الحارث ٢٥٠ .
- عبد الله بن سلام ٨ ، ٤٦ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٩ ، ٢٤٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ .
- عبد الله بن عمر بن العاص ١٣١
- عبد الله بن نجي ٢٤٧ ، ٢٥٠ .
- عبد الله شبر ٢٦٦ .
- عبد مناف ١٠ .
- عبدة بن الحارث بن المطلب ٢٦٠ .
- عتاب بن أسيد ١٨٢
- عتبة بن ربيعة ٨٢
- عثمان بن عفان ٦٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .
- عروة بن الزبير ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .

عكرمة ٤٩ ، ٥٦ ، ٩٣ ، ٢٤٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

علقمة ٢٣٠ .

علي بن إبراهيم القمي ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٧٣ .

علي بن الحسين الأصفهاني ١٣٦ .

علي بن الحسين السجاد ٩٣ ، ١٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ .

علي بن رباح ٢١٤ .

علي الشهرستاني ٢١٤ ، ٢٢٣ .

علي الميلاني ٢٤٩ .

عمرام قهات بن لاوي ١٠ ، ٢٧١ .

عمر بن الخطاب ٦١ ، ٦٢ ، ١١٧ ، ١٨٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ .

عمرو بن العاص ٢٥٠ .

عمرو العلي ١٠ ، ٢٧٢ .

عوف الأعرابي ٢٤٩ .

عون بن مالك الأشجعي ٢٦٥ .

العايشي ٢٤٧ .

عيسى النبي ٥١ ، ٦٨ ، ١٧٠ .

الغرانيق ١١٤ .

الغماري ١٦٣ .

فاطمة ١٠ ، ١٠٣ ، ١٤٤ ، ١٥١ ، ٢٠٥ ، ٢٧٢ .

الفراء أبو زكريا ٩٢ ، ٩٣ ، ٢٦٥ .

فرات ٢٤٧ ،

فرعون ١٥٠ ، ١٦٧ ، ١٧٧ .

الفرقان ٢٧٤ .

الفضل بن العباس ١٣٩ .

الفضيل بن يسار ٢٤١ .

قتادة ٥٦ ، ٥٧ ، ٩٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ .

القرطبي ٩٣ ، ٩٤ ، ٢٥٥ .

قصي ١٠ .

قيس بن عباد ٨٢

الكسائي ٢٣٠ ، ٢٣٣ .

كعب بن مالك ٦٢ .

المأمون ١٢٤ .

الماهيار ٢٥٠ .

الماوردي ٢٦٧ .

المقداد ٢١٧ ، ٢١٨ .

الكوراني ٩ ،

لؤي ٢٧١ .

مجاهد ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٩٣ ، ٢٢٣ ، ٢٤٤ ، ٢٦٧ .

المجلسي ٦٢ .

محمد الباقر ٤٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ .

محمد بن أبي ليلى ٢٣٠ .

محمد بن سيرين ١٣٥ .

محمد تقي المدرسي ٢٦٦ .

محمد جواد مغنية ٢٦٦ .

محمد حسين فضل الله ٧ ، ٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ .

محمد رشيد رضا ١٨٦ ، ٢٢٧ ، ٢٥١ .

مخيريق ٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، .

مسروق ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

مسلم ٢٦٧ .

المشهدى ٢٦٦ .

مصعب بن سعد بن أبي وقاص ١٤١ ، .

معاوية ٦٢ ، ١٤٣ ، ٢٤٩ .

معمر عن وهب بن عبد الله ١١٦

المغيرة بن شعبة ٢٥٠ .

المفيد ٢٤٧ .

الملائكة ٢١ ، ٥٢ ، .

موسى ٩ ، ١٠ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٦٠ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،

١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ،

٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،

٢٨٠ .

الموفق خطيب خوارزم ٢١٤ .

ناصر مكارم ٢٦٦ .

نافع ٢٣٣ .

النخعي ٩٣ .

النذيرُ العُريان حذيفة ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ .

النسائي ٢٦٧ .

نصر بن عاصم ٢٣٢ .

النضير ٦٣ .

نوح ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١١٨ ، ١٥١ ، ١٥٩ .

النيسابوري ٢٤٨ .

هارون ٩ ، ١٠ ، ١٠٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،
٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٠ .

هلال بن يساف ٢٦٧ .

هود ٣٨ ، ٦٦ .

الواحدي ١٦٤ .

الواقدي ٦٣

الوليد بن عتبة ٨٢

يحيى بن أبي عمران ٢٤١ ، ٢٤٧ .

يحيى بن سعيد الأموي ١٥٣ .

يحيى بن عروة بن الزبير ٢٥٠ .

يحيى بن وثاب ٢٣٠ .

يحيى بن يعمر ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ .

يوسف بن عبد الله بن سلام ٢٦٧ .

يوسف النبي ٧٢ .

يونس ٢٤١ ، ٢٤٧ .

الجماعات

. الأنصار ٦٦ .

بنو إسرائيل ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٢٥٧ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
٢٧٧ ، ٢٨٠ .

بنو إسماعيل ٢٧١ ، ٢٧٢ .

بنو هاشم ١٣٨ ، ١٥١ .

الصابئة ١٢٧ .

الفطيون ٦٥ .

قريش ١٠ ، ٤٩ ، ٩٣ ، ١٠١ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .

المحرمون ١١٦ .

النصارى ١١٣ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٦٠ .

اليهود ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ١١٣ ، ١٢٤ ، ٢١٥ ،
٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

الأماكن والحوادث

أحد ٦٥ ، ٦٩ ، ٢١٥ ، ٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

أرمينية ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٦ .

أذربيجان ٢١٩ .

بدر ٨٢ ، ٢٦٠ .

البصرة ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ .

تبوك ١٣٨ ، ١٨٣ ، ٢٧٣ .

الجحفة ١٨٥

الحديبية ١٤٨ .

حراء ٤٨ ، ١٣٧ ، ٢٧٣ .

حرب الجمل ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٣٧ .

حمص ٢١٧ ، ٢١٨ .

خيبر ١٤٧ .

دمشق ٢١٧ ، ٢٣٨ .

الشام ٢١٨ ، ٢٢٢ .

الصفاء ١٣٨ .

صفين ٢١٥ ، ٢٣٧ .

صنعاء ٢٠٩ .

الطائف ١٤٨ .

الطوفان ١٥٩ .

العراق ٢١٨ .

غدير خم ١٤٤ ، ٢٠٤ .

قبا ٦٥ .

الكوفة ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

مدينة العلم ١١٦ ، ١٢٧ .

المدينة المنورة ٦٣ ، ٦٤ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٦٥ ،

٢٦٦ .

مكة ٤٢ ، ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٨ ،

٢٠٣ ، ٢٢٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

اليمن ١٤٨ ، ١٦٥ .

كتب دينية

الإنجيل ٢٦ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٩٤ ، ١١٤ ، ٢٤٥ .

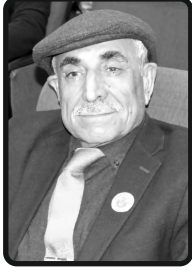
زير الأولين ٩٢ .

سفر دانيال ٢٦١ ، ٢٧٠ .

الكتاب المقدس ٢٧٤ .

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٧	التمهيد
١١	الفصل الأول : الشهادة والشهود في القرآن الكريم
٣٣	الفصل الثاني : بيّنات الأنبياء وشهاداتهم
٧١	الفصل الثالث : عود ضمير (الشاهد منه)
٩٩	الفصل الرابع : شهادة أهل العلم والذكر والكتاب
١٣١	الفصل الخامس : الشهادات المؤهلة لجمع القرآن وحفظه
١٥٧	الفصل السادس : شهادة حديث الأذن الواعية
١٧٧	الفصل السابع : شهادة الأداء عن رسول الله
١٩٩	الفصل الثامن : النبي والإمام والقرآن
٢١٣	الفصل التاسع : ثبأت نصّ القرآن الكريم
٢٤١	الفصل العاشر : السيّد البدري وتعيين (الشاهد منه)
٢٧٩	الخاتمة
٢٨٣	المصادر
٢٩٣	الفهارس



المؤلف في سطور:

- أ. د. مهدي صالح سلطان نصيف
- المواليد ١٩٥٠ محافظة ديالى - بعقوبة ..
- شهادة الدكتوراه : جامعة بغداد - كلية الآداب ١٩٩٦ .
- عشر سنوات في كلية التربية الأساسية - الجامعة المستنصرية .
- ثلاث عشرة سنة من التدريس في جامعة بغداد - كلية الآداب .
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق .
- عضو اللجنة الوطنية لمناهج اللغة العربية في وزارة التربية ٢٠١١ .

الكتب المنشورة :

- ١ - الأفعال في دراسات المحدثين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠١١ م .
- ٢ - أهل القرآن وتأسيس النحو ، دار الضياء ، النجف الأشرف ، ٢٠١٢ م .
- ٣ - في المصطلح ولغة العلم ، منشورات المجمع العلمي العراقي ، ٢٠١٢ م .
- ٤ - مسائل الخلاف النحوي بين الكوفيين ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ٢٠١٣ .
- ٥ - خلف الأحمر والريادة اللغوية ودعوى الانتحال ، بيروت ، دار عدنان ، ٢٠١٦ .
- ٦ - أنظار لسانية في آيات وسور قرآنية ، بيروت ، دار عدنان ، ٢٠١٦ .
- ٧ - القرآن الكريم ، جمعه وتدوينه وضبط حروفه ، بيروت ، دار عدنان ، ٢٠١٧ .
- ٨ - في المصطلح ولغة العلم ، ط ٢ ، الدار الجامعية ، جامعة بغداد ، ٢٠١٨ م .
- ٩ - الألف باء ومقاطع الحروف ، دار عدنان ، طبعة الثالثة ، ٢٠١٨ .
- ١٠ - موجز تاريخ اللغات السامية ، دار عدنان ، بغداد ، ٢٠١٩ .
- ١١ - القرآن والتأسيس الصوتي للنحو العربي ، دار بين الكتب ، بغداد ، ٢٠٢١ .